
حرب فلسطين
في
مذكرات جمال عبد الناصر
يوميات محمد حسنين هيكل
محمود صلاح

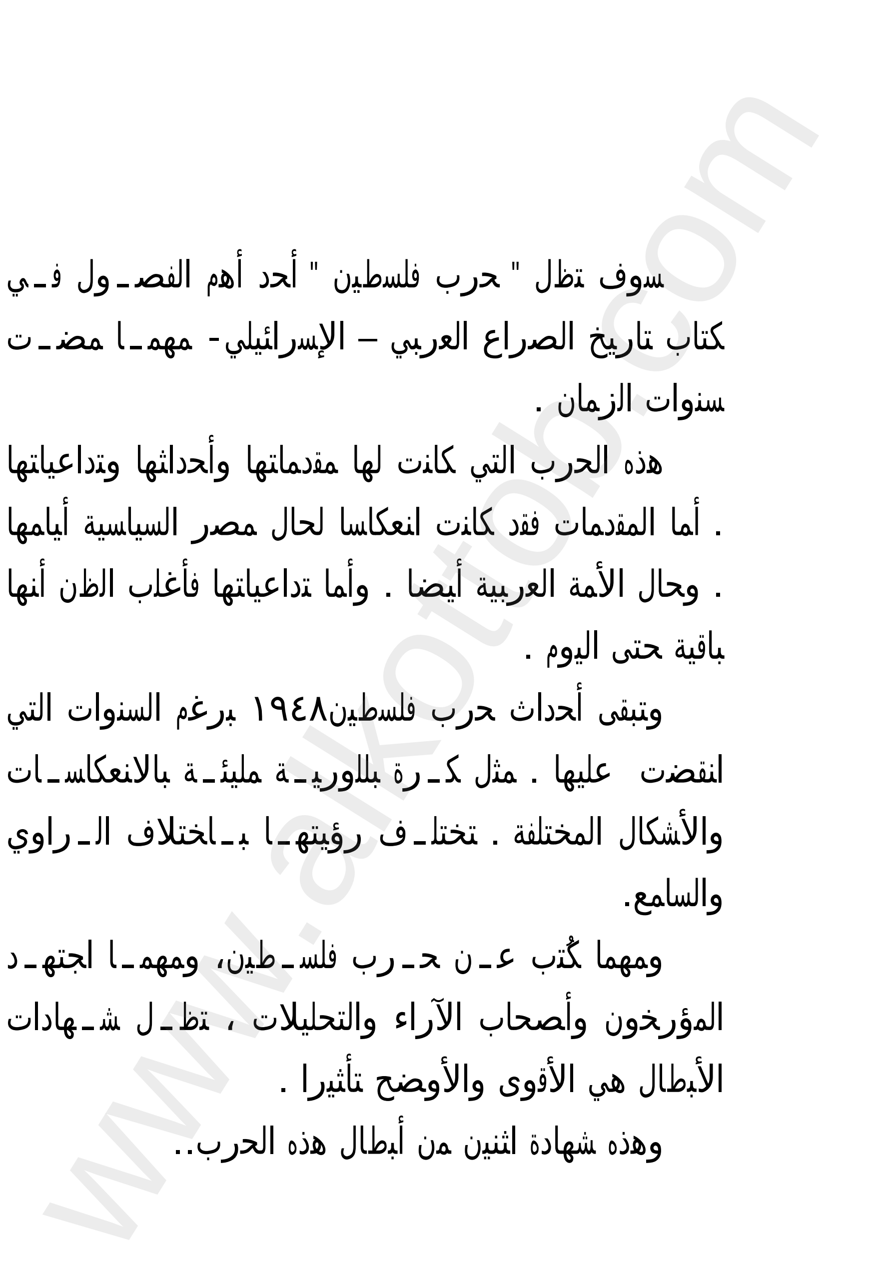
حرب فلسطين

في

مذكرات جمال عبد الناصر
يوميات محمد حسنين هيكل

محمود صلاح

فهرس



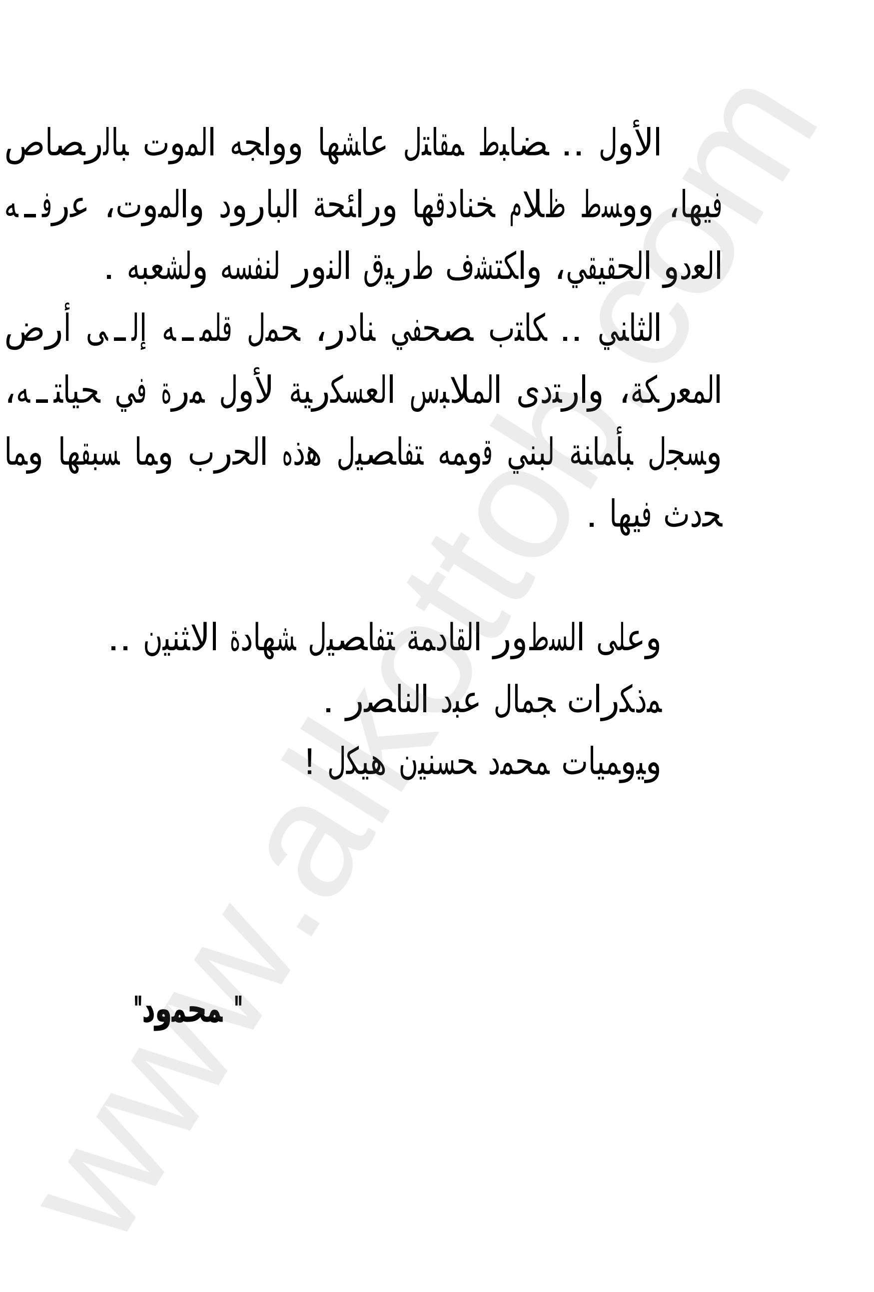
سوف تظل " حرب فلسطين " أحد أهم الفصـول فـي كتاب تاريخ الصراع العربي – الإسرائيلي- مهمـا مضـت سنوات الزمان .

هذه الحرب التي كانت لها مقدماتها وأحداثها وتداعياتها . أما المقدمات فقد كانت انعكاسا لحال مصر السياسية أيامها . وحال الأمة العربية أيضا . وأما تداعياتها فأغلب الظن أنها باقية حتى اليوم .

وتبقى أحداث حرب فلسطين١٩٤٨ برغم السنوات التي انقضت عليها . مثل كـرة بللوريـة مليئـة بالانعكاسـات والأشكال المختلفة . تختلـف رؤيتهـا بـاختلاف الـراوي والسامع.

ومهما كُتب عـن حـرب فلسـطين، ومهمـا اجتهـد المؤرخون وأصحاب الآراء والتحليلات ، تظـل شـهادات الأبطال هي الأقوى والأوضح تأثيرا .

وهذه شهادة اثنين من أبطال هذه الحرب..



الأول .. ضابط مقاتل عاشها وواجه الموت بالرصاص فيها، ووسط ظلام خنادقها ورائحة البارود والموت، عرفـه العدو الحقيقي، واكتشف طريق النور لنفسه ولشعبه .

الثاني .. كاتب صحفي نادر، حمل قلمـه إلـى أرض المعركة، وارتدى الملابس العسكرية لأول مرة في حياتـه، وسجل بأمانة لبني قومه تفاصيل هذه الحرب وما سبقها وما حدث فيها .

وعلى السطور القادمة تفاصيل شهادة الاثنين ..

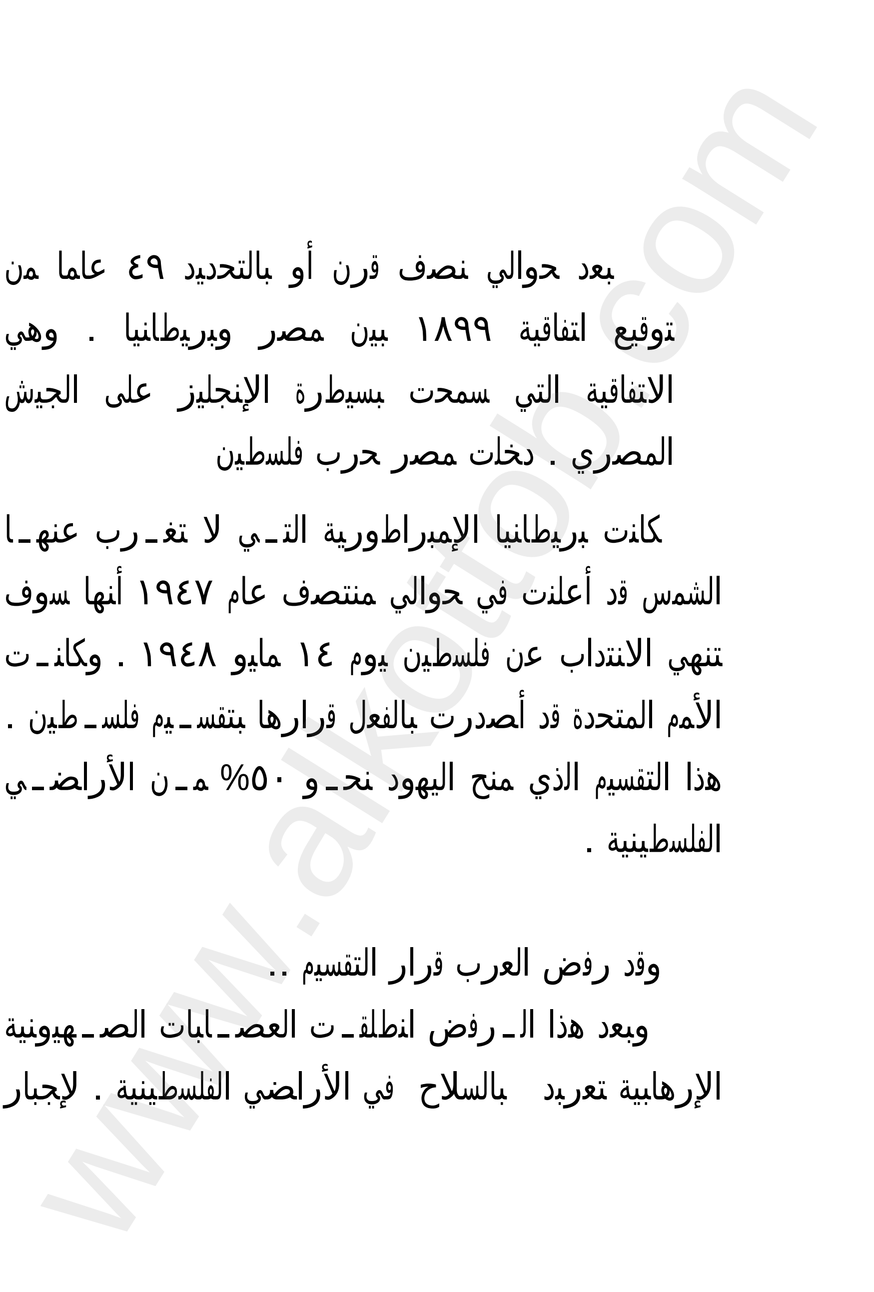
مذكرات جمال عبد الناصر .

ويوميات محمد حسنين هيكل !

" محمود"

الفصل الأول

وخرج جمال عبد الناصر من السينما ..
ليكتب مذكراته!

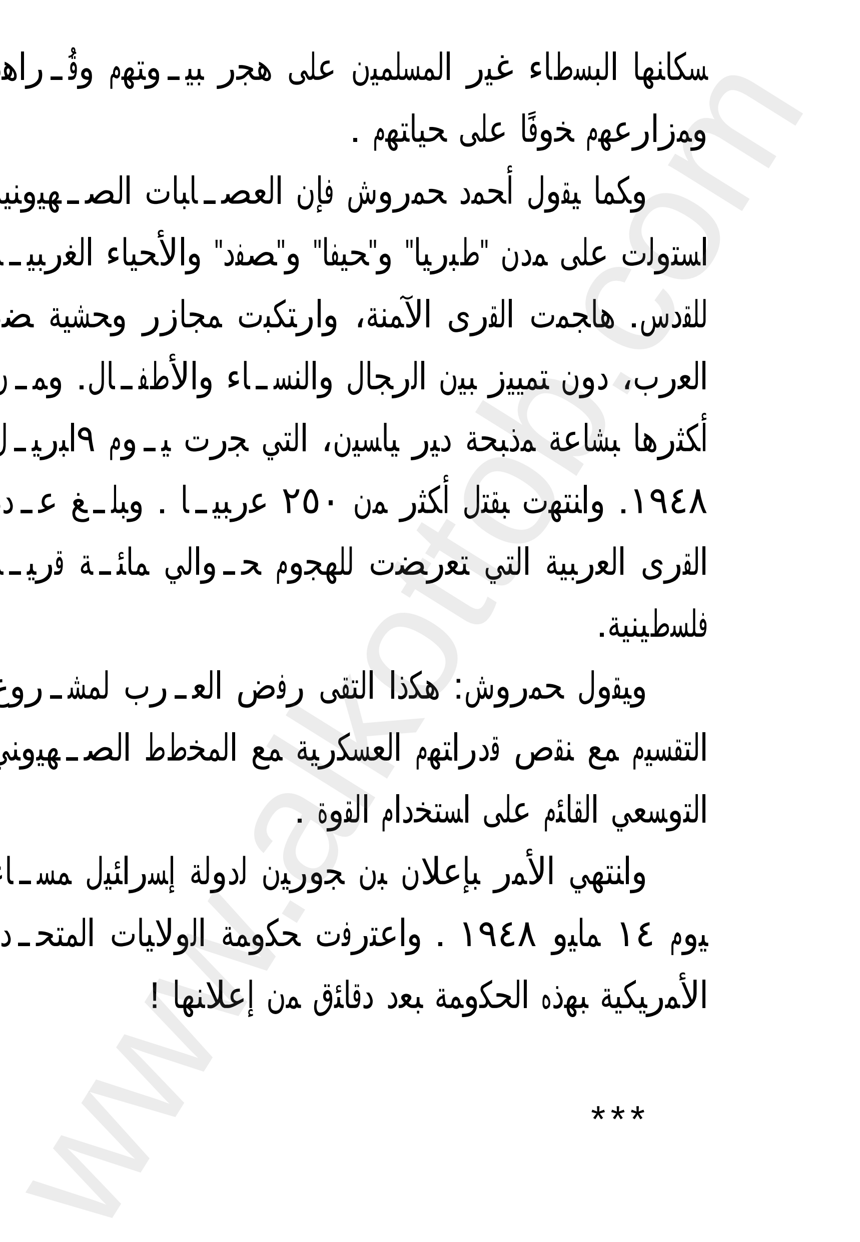


بعد حوالي نصف قرن أو بالتحديد ٤٩ عاما من توقيع اتفاقية ١٨٩٩ بين مصر وبريطانيا . وهي الاتفاقية التي سمحت بسيطرة الإنجليز على الجيش المصري . دخلت مصر حرب فلسطين

كانت بريطانيا الإمبراطورية التـي لا تغـرب عنهـا الشمس قد أعلنت في حوالي منتصف عام ١٩٤٧ أنها سوف تنهي الانتداب عن فلسطين يوم ١٤ مايو ١٩٤٨ . وكانـت الأمم المتحدة قد أصدرت بالفعل قرارها بتقسـيم فلسـطين . هذا التقسيم الذي منح اليهود نحـو ٥٠% مـن الأراضـي الفلسطينية .

وقد رفض العرب قرار التقسيم ..

وبعد هذا الـرفض انطلقـت العصـابات الصـهيونية الإرهابية تعربد بالسلاح في الأراضي الفلسطينية . لإجبار



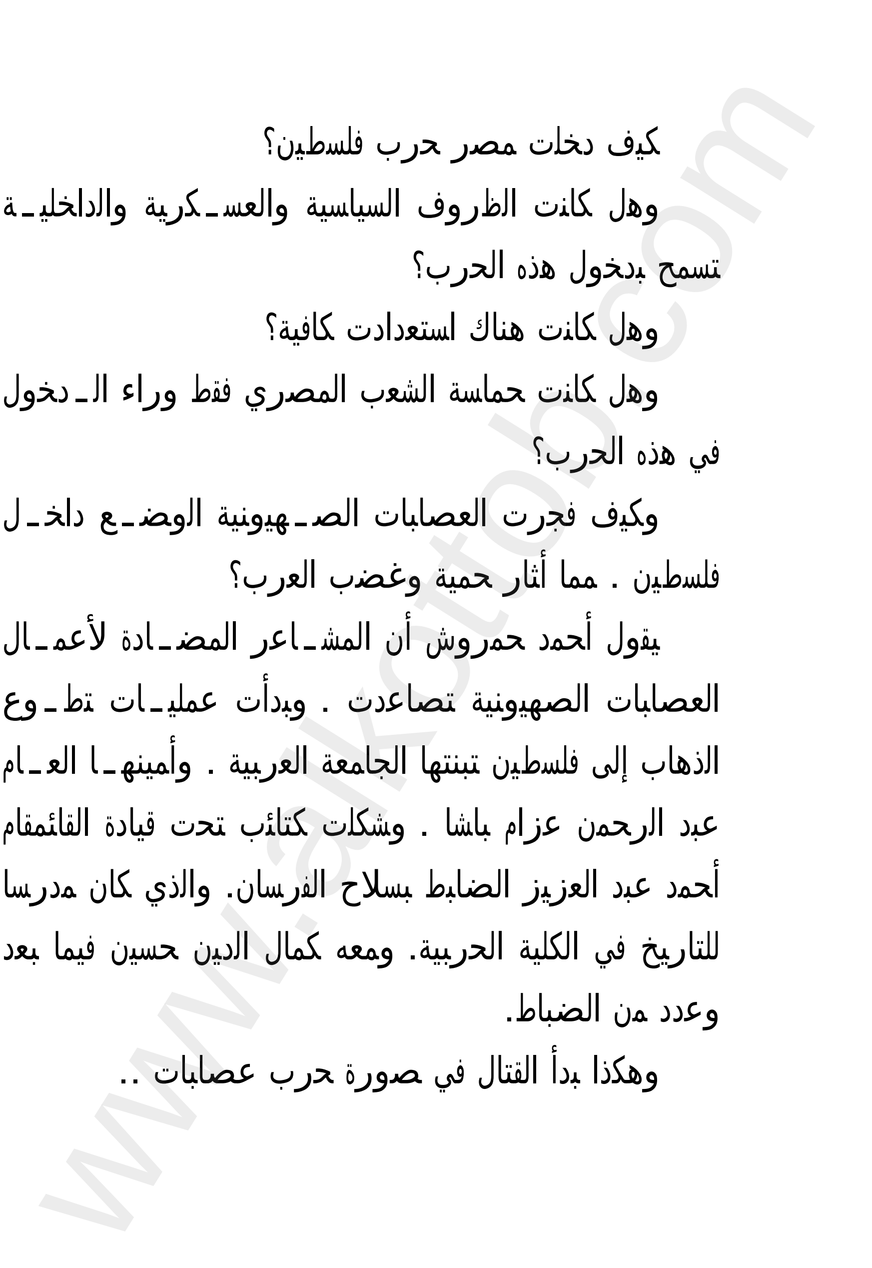
سكانها البسطاء غير المسلمين على هجر بيـوتهم وقُـراهم ومزارعهم خوفًا على حياتهم .

وكما يقول أحمد حمروش فإن العصـابات الصـهيونية استولت على مدن "طبريا" و"حيفا" و"صفد" والأحياء الغربيـة للقدس. هاجمت القرى الآمنة، وارتكبت مجازر وحشية ضد العرب، دون تمييز بين الرجال والنسـاء والأطفـال. ومـن أكثرها بشاعة مذبحة دير ياسين، التي جرت يـوم ٩ابريـل ١٩٤٨. وانتهت بقتل أكثر من ٢٥٠ عربيـا . وبلـغ عـدد القرى العربية التي تعرضت للهجوم حـوالي مائـة قريـة فلسطينية.

ويقول حمروش: هكذا التقى رفض العـرب لمشـروع التقسيم مع نقص قدراتهم العسكرية مع المخطط الصـهيوني التوسعي القائم على استخدام القوة .

وانتهي الأمر بإعلان بن جورين لدولة إسرائيل مسـاء يوم ١٤ مايو ١٩٤٨ . واعترفت حكومة الولايات المتحـدة الأمريكية بهذه الحكومة بعد دقائق من إعلانها !

***



كيف دخلت مصر حرب فلسطين؟

وهل كانت الظروف السياسية والعسـكرية والداخليـة تسمح بدخول هذه الحرب؟

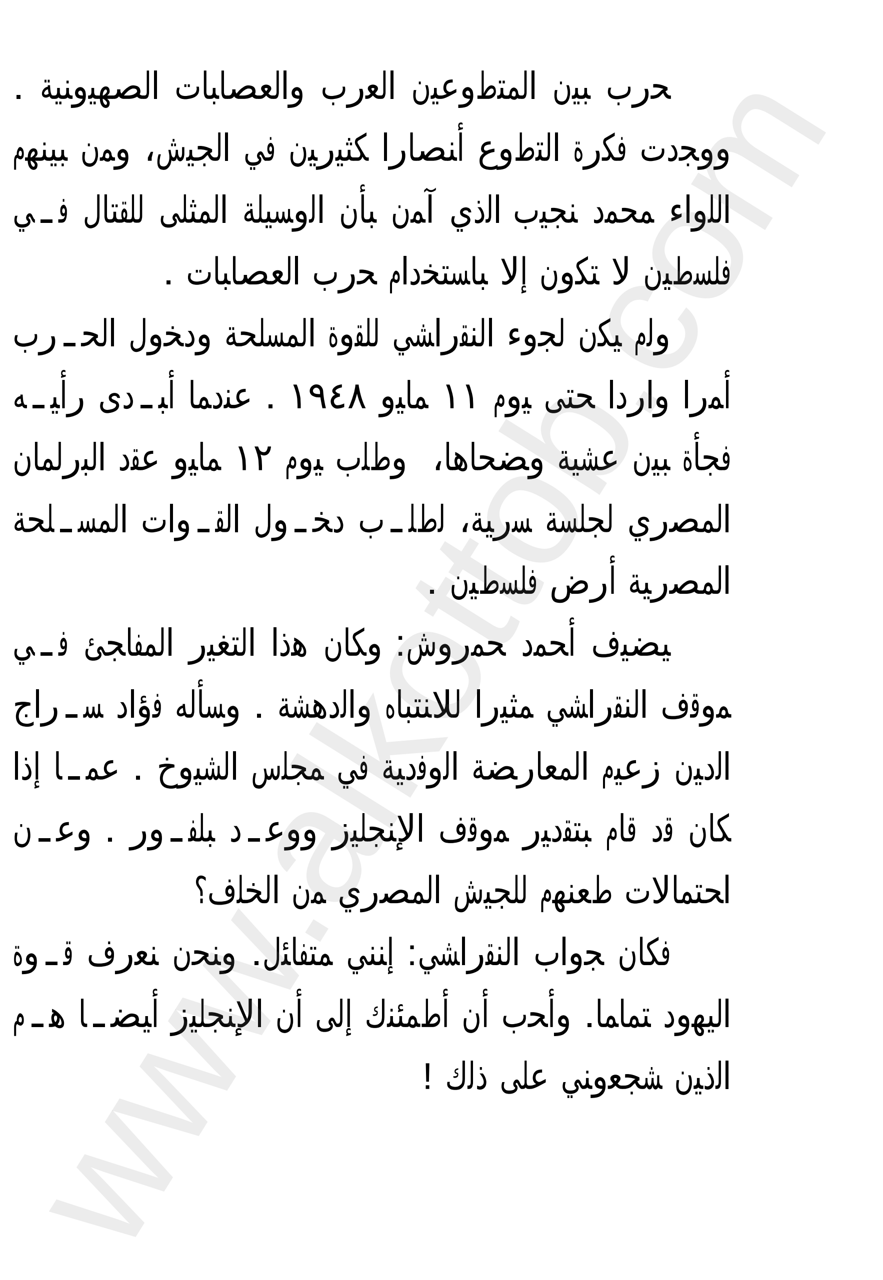
وهل كانت هناك استعدادت كافية؟

وهل كانت حماسة الشعب المصري فقط وراء الـدخول في هذه الحرب؟

وكيف فجرت العصابات الصـهيونية الوضـع داخـل فلسطين . مما أثار حمية وغضب العرب؟

يقول أحمد حمروش أن المشـاعر المضـادة لأعمـال العصابات الصهيونية تصاعدت . وبدأت عمليـات تطـوع الذهاب إلى فلسطين تبنتها الجامعة العربية . وأمينهـا العـام عبد الرحمن عزام باشا . وشكلت كتائب تحت قيادة القائمقام أحمد عبد العزيز الضابط بسلاح الفرسان. والذي كان مدرسا للتاريخ في الكلية الحربية. ومعه كمال الدين حسين فيما بعد وعدد من الضباط.

وهكذا بدأ القتال في صورة حرب عصابات ..



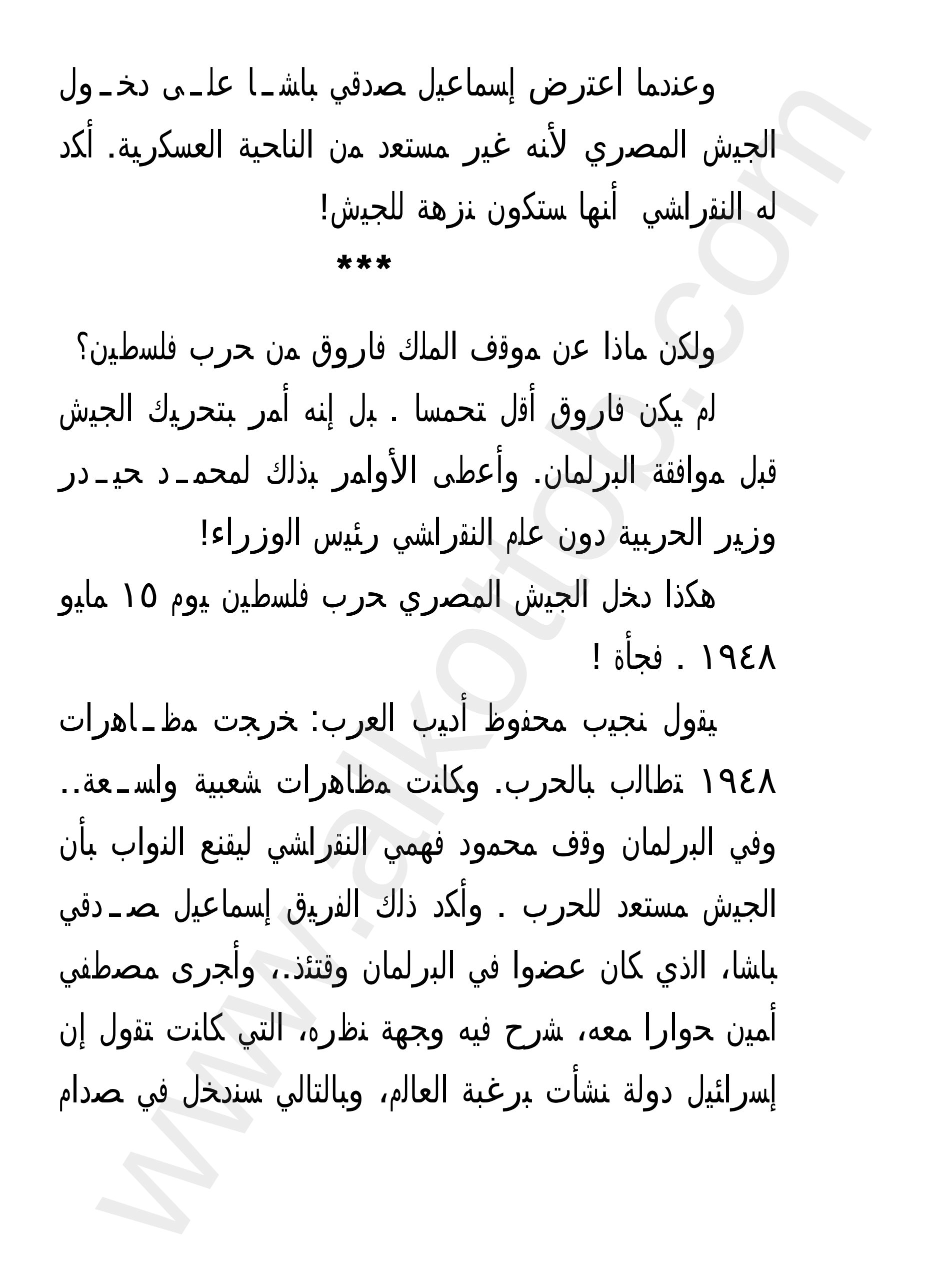
حرب بين المتطوعين العرب والعصابات الصهيونية .

ووجدت فكرة التطوع أنصارا كثيرين في الجيش، ومن بينهم اللواء محمد نجيب الذي آمن بأن الوسيلة المثلى للقتال في فلسطين لا تكون إلا باستخدام حرب العصابات .

ولم يكن لجوء النقراشي للقوة المسلحة ودخول الحرب أمرا واردا حتى يوم ١١ مايو ١٩٤٨ . عندما أبدى رأيه فجأة بين عشية وضحاها، وطلب يوم ١٢ مايو عقد البرلمان المصري لجلسة سرية، لطلب دخول القوات المسلحة المصرية أرض فلسطين .

يضيف أحمد حمروش: وكان هذا التغير المفاجئ في موقف النقراشي مثيرا للانتباه والدهشة . وسأله فؤاد سراج الدين زعيم المعارضة الوفدية في مجلس الشيوخ . عما إذا كان قد قام بتقدير موقف الإنجليز ووعد بلفور . وعن احتمالات طعنهم للجيش المصري من الخلف؟

فكان جواب النقراشي: إنني متفائل. ونحن نعرف قوة اليهود تماما. وأحب أن أطمئنك إلى أن الإنجليز أيضا هم الذين شجعوني على ذلك !



وعندما اعترض إسماعيل صدقي باشـا علـى دخـول الجيش المصري لأنه غير مستعد من الناحية العسكرية. أكد له النقراشي أنها ستكون نزهة للجيش!

***

ولكن ماذا عن موقف الملك فاروق من حرب فلسطين؟

لم يكن فاروق أقل تحمسا . بل إنه أمر بتحريك الجيش قبل موافقة البرلمان. وأعطى الأوامر بذلك لمحمـد حيـدر وزير الحربية دون علم النقراشي رئيس الوزراء!

هكذا دخل الجيش المصري حرب فلسطين يوم ١٥ مايو ١٩٤٨ . فجأة !

يقول نجيب محفوظ أديب العرب: خرجت مظـاهرات ١٩٤٨ تطالب بالحرب. وكانت مظاهرات شعبية واسـعة.. وفي البرلمان وقف محمود فهمي النقراشي ليقنع النواب بأن الجيش مستعد للحرب . وأكد ذلك الفريق إسماعيل صـدقي باشا، الذي كان عضوا في البرلمان وقتئذ.، وأجرى مصطفي أمين حوارا معه، شرح فيه وجهة نظره، التي كانت تقول إن إسرائيل دولة نشأت برغبة العالم، وبالتالي سندخل في صدام

واسع مع الغرب. ومن ناحية أخرى فإن الجـيش المصـري ضعيف!

ويضيف نجيب محفوظ: لكن إسماعيل صدقي كـان ذا سمعة سيئة. ووقفنا ضده. وكان حزب الوفد مـع الحـرب. وأقنعت الحكومة الشعب بـأمرين: أن الجـيش قـوى، وأن الإسرائيليين مجرد عصابات!

وطبعا كانت كلمة عصابات وقتئذ تعنى شراذم ضعيفة .

الحكومة قالت إن الجيش قادر. من أين لنا أن نعـرف الحقيقة التي لم تعلن؟

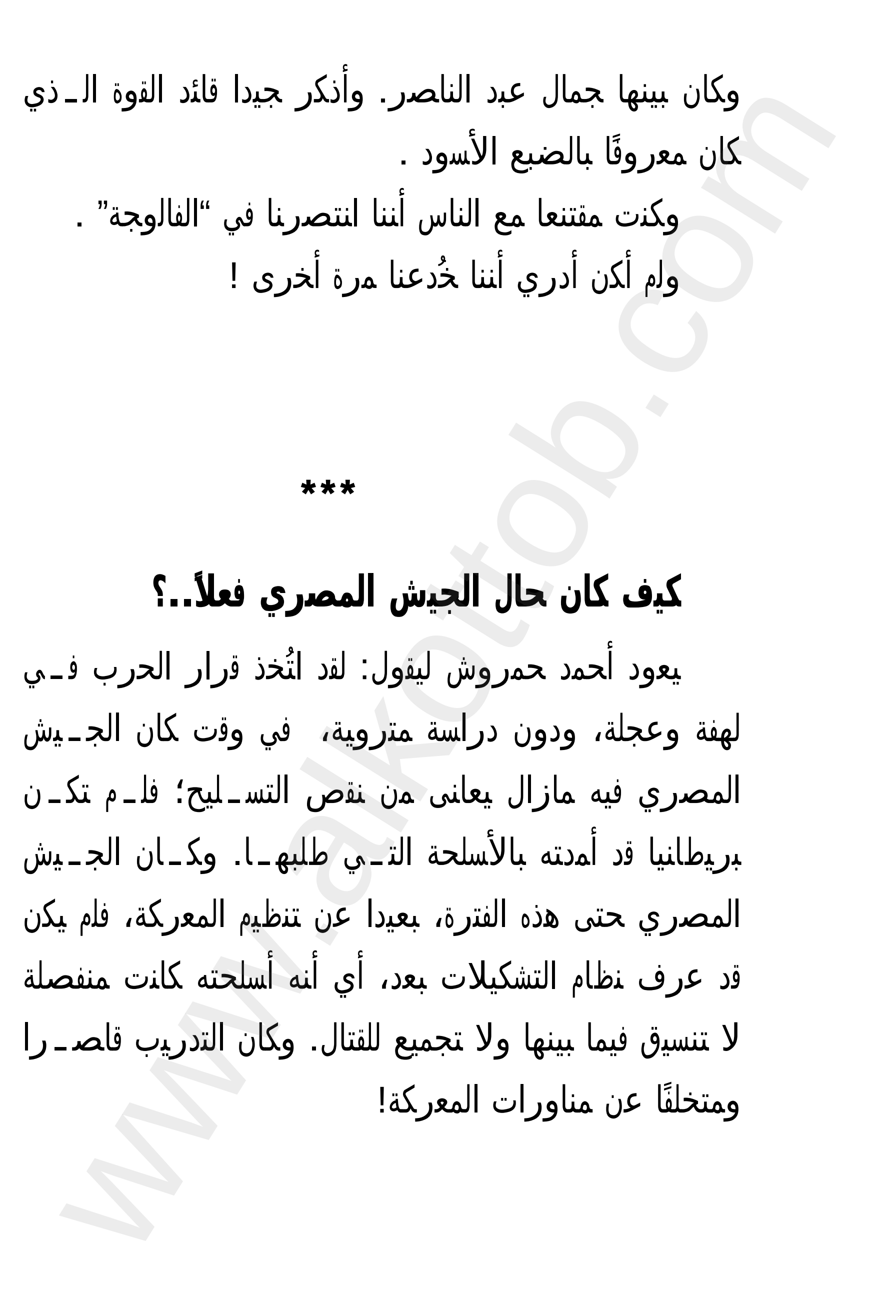
طبعا صدقنا الحكومة ..

ولكن للأسف الحقيقة كانت على خلاف ذلك تماما . لقد خُدعنا كشعب !

ومن فلسطين وصلنا صـوت المفتـي الحـاج أمـين الحسيني، كان يطالب بالعون المادي والمعنوي، وكان ضـد تدخل الجيوش العربية !

وكنت أتابع وقائع القتال..

كنت منغمسا مثل بقية الناس، وأذكر حصار "الفالوجة" جيدا . وشاركنا في استقبال القوة المصرية عنـد عودتهـا.



وكان بينها جمال عبد الناصر. وأذكر جيدا قائد القوة الـذي كان معروفًا بالضبع الأسود .

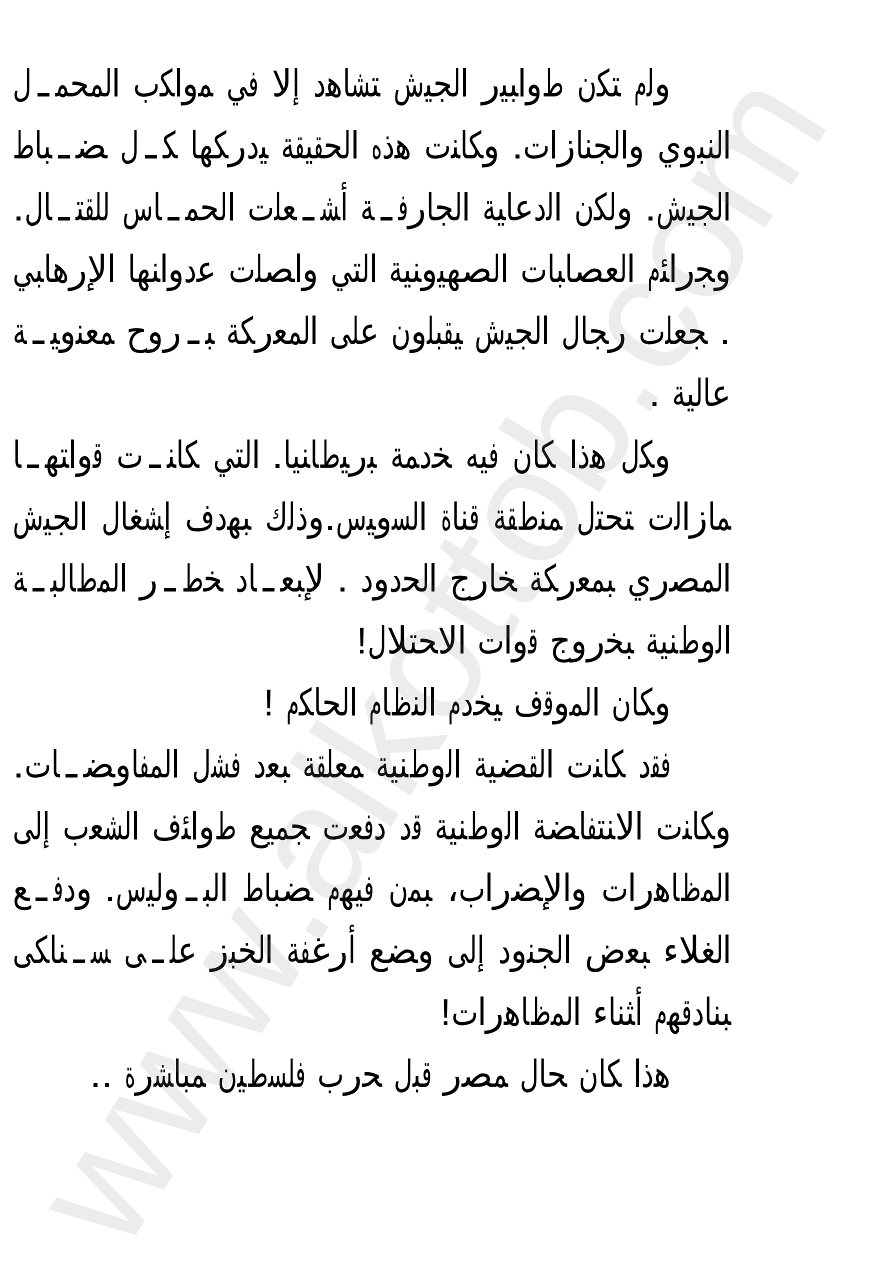
وكنت مقتنعا مع الناس أننا انتصرنا في "الفالوجة" .

ولم أكن أدري أننا خُدعنا مرة أخرى !

***

كيف كان حال الجيش المصري فعلاً..؟

يعود أحمد حمروش ليقول: لقد اتُخذ قرار الحرب فـي لهفة وعجلة، ودون دراسة متروية، في وقت كان الجـيش المصري فيه مازال يعانى من نقص التسـليح؛ فلـم تكـن بريطانيا قد أمدته بالأسلحة التـي طلبهـا. وكـان الجـيش المصري حتى هذه الفترة، بعيدا عن تنظيم المعركة، فلم يكن قد عرف نظام التشكيلات بعد، أي أنه أسلحته كانت منفصلة لا تنسيق فيما بينها ولا تجميع للقتال. وكان التدريب قاصـرا ومتخلفًا عن مناورات المعركة!



ولم تكن طوابير الجيش تشاهد إلا في مواكب المحمـل النبوي والجنازات. وكانت هذه الحقيقة يدركها كـل ضـباط الجيش. ولكن الدعاية الجارفـة أشـعلت الحمـاس للقتـال. وجرائم العصابات الصهيونية التي واصلت عدوانها الإرهابي . جعلت رجال الجيش يقبلون على المعركة بـروح معنويـة عالية .

وكل هذا كان فيه خدمة بريطانيا. التي كانـت قواتهـا مازالت تحتل منطقة قناة السويس.وذلك بهدف إشغال الجيش المصري بمعركة خارج الحدود . لإبعـاد خطـر المطالبـة الوطنية بخروج قوات الاحتلال!

وكان الموقف يخدم النظام الحاكم !

فقد كانت القضية الوطنية معلقة بعد فشل المفاوضـات. وكانت الانتفاضة الوطنية قد دفعت جميع طوائف الشعب إلى المظاهرات والإضراب، بمن فيهم ضباط البـوليس. ودفـع الغلاء بعض الجنود إلى وضع أرغفة الخبز علـى سـناكى بنادقهم أثناء المظاهرات!

هذا كان حال مصر قبل حرب فلسطين مباشرة ..

كانت مليئة بعوامل التضجر التي تهدد قواعد النظـام، الذي كان يستند على ملكيته. وفاحت رائحة فساد رجالهـا . إلى الحد الذي أضعف تماما من مركز الملك فاروق .

وهكذا وجدت حكومة النقراشـي فـي دخـول حـرب فلسطين أنه في تنفيذ أوامر بريطانيا والسراي إنقاذٌ لها ممـا عجزت عن مواجهته. ووجد فيها الملك والاسـتعمار طـوق نجاة يتعلقان به لإنقاذهما من غضب الشعب يوما بعد يوم .

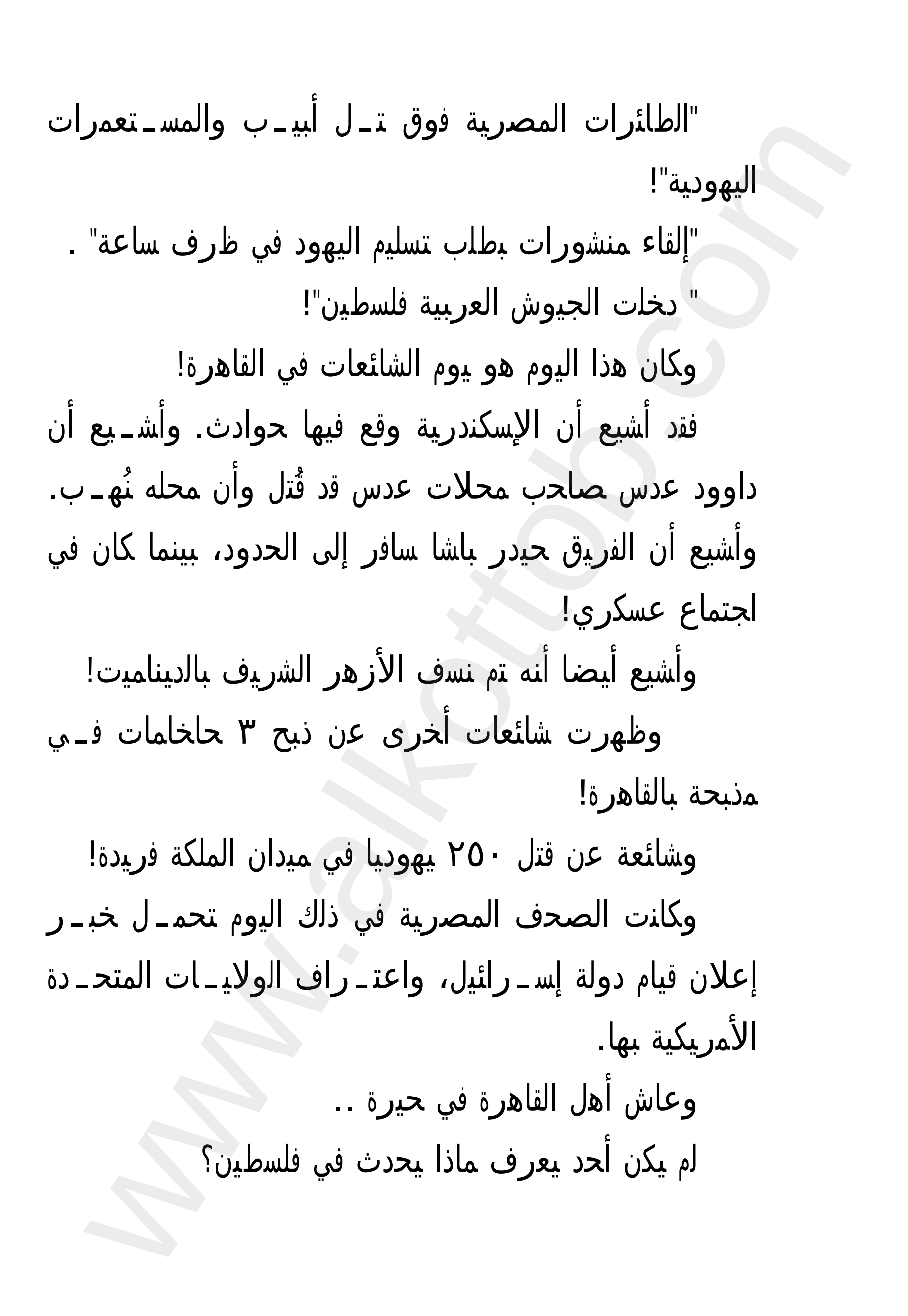
وأُعلنت الأحكام العرفية ..

وفُتحت المعتقلات في معسكر "هايكستيب" الذي امـتلأ بالمئات من المعتقلين وفُرضت الرقابة على الصحف، وقيدت الاجتماعات العامة. ولم تكن الدولة قد عبأت نفسها للحـرب، بل لم تكن هناك إدارة للتعبئـة. وأول كتيبـة دخلـت أرض فلسطين، كانت تحملها أتوبيسات أحضرها أحد المقاولين !

***

ماذا قالت الصحافة المصرية صباح يوم دخول مصـر حرب فلسطين؟

حملت الصحف المصرية صباح ذلك اليوم مانشـيتات تقول:



"الطائرات المصرية فوق تـل أبيـب والمسـتعمرات اليهودية"!

"إلقاء منشورات بطلب تسليم اليهود في ظرف ساعة" .

" دخلت الجيوش العربية فلسطين"!

وكان هذا اليوم هو يوم الشائعات في القاهرة!

فقد أشيع أن الإسكندرية وقع فيها حوادث. وأشـيع أن داوود عدس صاحب محلات عدس قد قُتل وأن محله نُهـب. وأشيع أن الفريق حيدر باشا سافر إلى الحدود، بينما كان في اجتماع عسكري!

وأشيع أيضا أنه تم نسف الأزهر الشريف بالديناميت!

وظهرت شائعات أخرى عن ذبح ٣ حاخامات فـي مذبحة بالقاهرة!

وشائعة عن قتل ٢٥٠ يهوديا في ميدان الملكة فريدة!

وكانت الصحف المصرية في ذلك اليوم تحمـل خبـر إعلان قيام دولة إسـرائيل، واعتـراف الولايـات المتحـدة الأمريكية بها.

وعاش أهل القاهرة في حيرة ..

لم يكن أحد يعرف ماذا يحدث في فلسطين؟

وتاهت الحقيقة في طوفان البرقيات والشائعات والخطب الحماسية،

بينما كانت هناك دماء تسيل على أرض فلسطين.. فـي نفس اليوم!

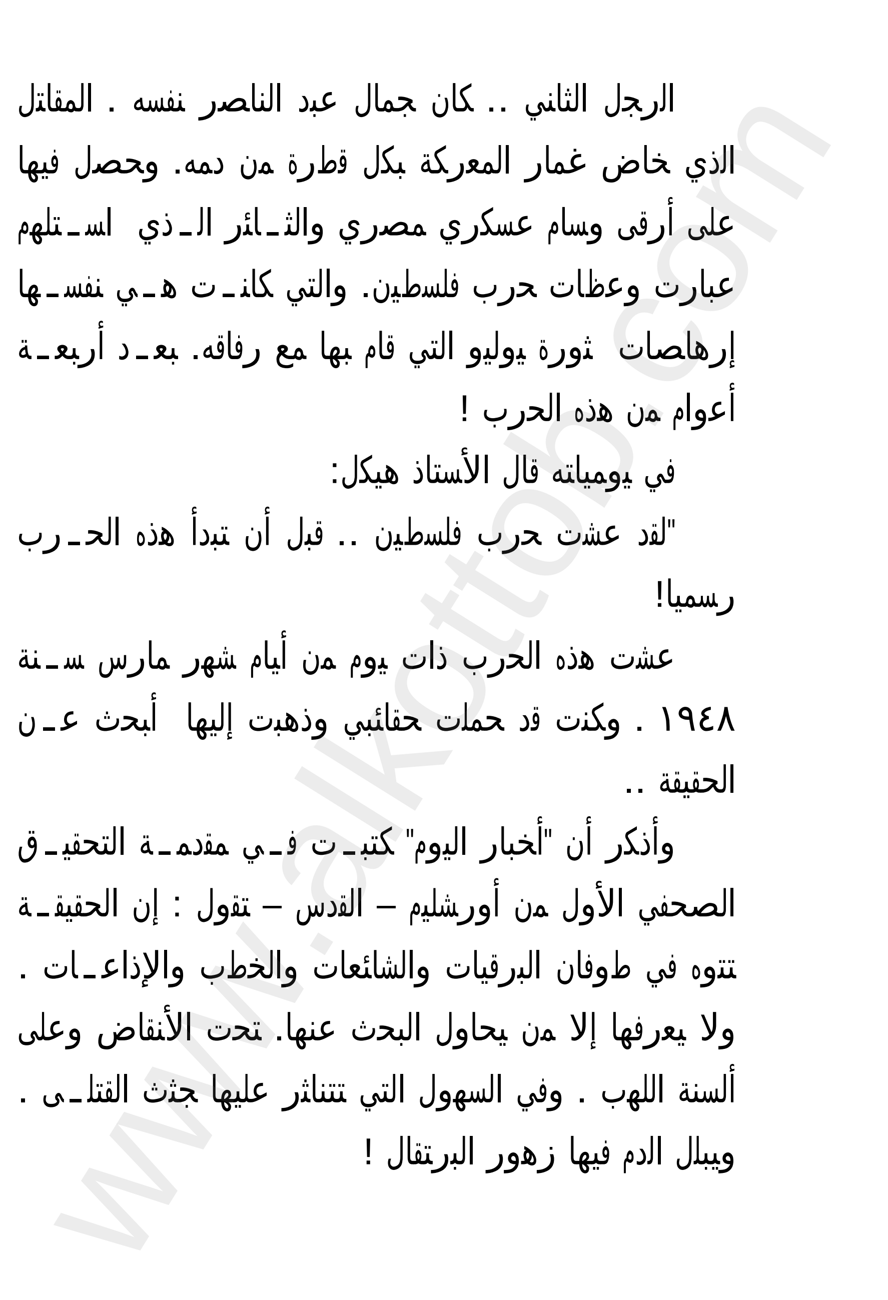
***

بعد مرور خمس سنوات على حرب فلسطين ..

سجل اثنان من شهود الحق على هذه الحرب شهادتيهما على أحداثها وخلفياتها . وما دار في كواليسها .

الأول .. كان الأستاذ محمد حسنين هيكل .. وكان وقتها محررا عسكريا لدار"أخبار اليوم"، وكان الصـحفي الوحيـد الذي ذهب إلى فلسطين، وحاول أن يرفع الستار عن حقيقة ما كانت تخفيها الظلال على صورة ما كان يجري .

بعد خمس سنوات من حرب فلسـطين روى الأسـتاذ هيكل شهادته بدون رقابة، وبلا قيود أو ظلمـات، وبعـد أن تخلص عقله من ظروف الزمان والمكان . ولم تعد تخطـف أعصابه أحداثٌ بعينها. أو تبهر عينه زاويـة مـن زوايـا الصورة فيتجه إليها ولا يرى غيرها !



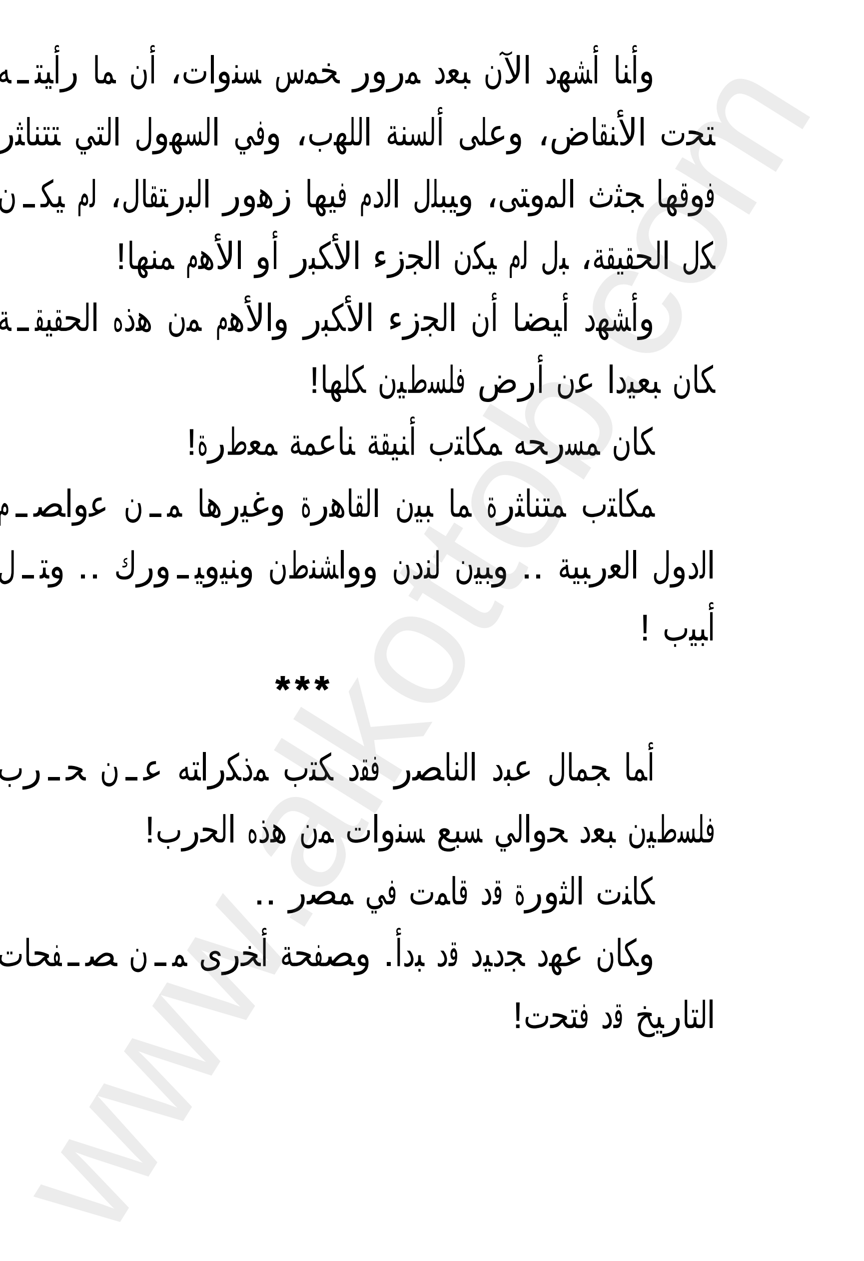
الرجل الثاني .. كان جمال عبد الناصر نفسه . المقاتل الذي خاض غمار المعركة بكل قطرة من دمه. وحصل فيها على أرقى وسام عسكري مصري والثائر الذي استلهم عبارت وعظات حرب فلسطين. والتي كانت هي نفسها إرهاصات ثورة يوليو التي قام بها مع رفاقه. بعد أربعة أعوام من هذه الحرب !

في يومياته قال الأستاذ هيكل:

"لقد عشت حرب فلسطين .. قبل أن تبدأ هذه الحرب رسميا!

عشت هذه الحرب ذات يوم من أيام شهر مارس سنة ١٩٤٨ . وكنت قد حملت حقائبي وذهبت إليها أبحث عن الحقيقة ..

وأذكر أن "أخبار اليوم" كتبت في مقدمة التحقيق الصحفي الأول من أورشليم – القدس – تقول : إن الحقيقة تتوه في طوفان البرقيات والشائعات والخطب والإذاعات . ولا يعرفها إلا من يحاول البحث عنها. تحت الأنقاض وعلى ألسنة اللهب . وفي السهول التي تتناثر عليها جثث القتلى . ويبلل الدم فيها زهور البرتقال !



وأنا أشهد الآن بعد مرور خمس سنوات، أن ما رأيتـه تحت الأنقاض، وعلى ألسنة اللهب، وفي السهول التي تتناثر فوقها جثث الموتى، ويبلل الدم فيها زهور البرتقال، لم يكـن كل الحقيقة، بل لم يكن الجزء الأكبر أو الأهم منها!

وأشهد أيضا أن الجزء الأكبر والأهم من هذه الحقيقـة كان بعيدا عن أرض فلسطين كلها!

كان مسرحه مكاتب أنيقة ناعمة معطرة!

مكاتب متناثرة ما بين القاهرة وغيرها مـن عواصـم الدول العربية .. وبين لندن وواشنطن ونيويـورك .. وتـل أبيب !

***

أما جمال عبد الناصر فقد كتب مذكراته عـن حـرب فلسطين بعد حوالي سبع سنوات من هذه الحرب!

كانت الثورة قد قامت في مصر ..

وكان عهد جديد قد بدأ. وصفحة أخرى مـن صـفحات التاريخ قد فتحت!

ولم يكن يخطر على بال جمال عبد لناصر أن يكتب أية مذكرات عن حرب فلسطين .. لولا أنه شاهد فـي السـينما فيلما بوليسيا!

ذات يوم دخل جمال عبد الناصر إحدى دور السينما ..

وكانت تعرض فيلما بوليسيا مثيرا. فيلم أمريكـي مـن الأفلام التي كانت هوليود تتفنن في صناعتها تلـك الأيـام، ويتبارى مخرجو هذه الأفلام في حشدها بكل ما يشد أعصاب الناس، ويحبس عليهم أنفاسـهم بالحبكـة والمفاجـأة وقـوة المؤثرات الفنية !

وجلس جمال عبد الناصر في مقعده بدار السينما يتـابع أحداث الفيلم.

وفيما بعد روى عبد الناصر ما حدث فقال: كان لقصـة الفيلم - ككل قصة فيلم – بطلان!

البطل الأول استولى الشـيطان علـى قلبـه وعقلـه.. وزرعهما بالشر والدهاء!

والبطل الثاني رجل طيب يؤمن بالخير وبالحـب بـين الناس ..

وتمضي أحداث الفيلم ..

ويرتكب الرجل الذي ملكه الشيطان جريمة قتل. وأكثر من ذلك يرتب مسرح الحادث، بحيث يلقي التهمة كلها علـى الرجل الطيب!

وتمشي الأحداث إلى ذروة الإثارة ..

وتحيط الشبهات من كل جانب بالرجل الطيب، وتنطبق عليه الريب من اليمين ومن الشمال، وتلاحقه نظرات الشك، وتضعه داخل قفص الاتهام الرهيب!

ويفقد الرجل الطيب أعصابه ..

ويكاد أن يجن!

ينكر ويلح في إنكاره .. فلا يجد من يسمع أو يصدق .. حتى أقرب الناس إليه!

يحاول أن يدفع عن نفسه شراك العنكبوت التي وقع في حبائلها. فإذا الشواهد الملفقة - والتي أحسن تلفيقها – تشده بأغلال حديدية!

ويتخبط الرجل الطيب..

يضيع .. وينهار .

يملكه اليأس على نفسه. وتختلط معالم الحق في وجدانه المهزوز بمعالم الباطل الذي دس عليه .

وحتى هو ..

أخيرا ... ومن ضغط الإلحاح عليه، ومن شدة الحصار حوله، يكاد يعترف على نفسه بجريمة لم يرتكبها.

ولم يفكر يوما في ارتكابها!

***

قال جمال عبد الناصر في مذكراته عن حرب فلسطين:

"ولقد ذكرتني هذه القصة بجيش مصر في فلسطين"!

لقد كانت   في فلسطين هزيمة!

كما كان في قصة الفيلم جريمة!

ولكن من الذي هزم في فلسطين؟

في رأيي أن جيش مصر لم يرتكب جريمة فلسطين!

وإنما ارتكبها غيره.

وزيف عليه الأدلة.

ودبر الشبهات حتى تلاحقه.

وتحمله الوزر الذي هو منه .. براء .

وكما حدث في الفيلم .. حدث في الجيش!

كاد الجيش الطيب نفسه يصدق مهزلة هزيمتـه. وكـاد أقرب الناس إليه - شعب مصر وغيره من الشعوب الصديقة – ينطلي عليهم الزور ويصدقونه!

لكن الأمر انجلى .. وبان الحق في قصة الفـيلم بعـد ساعة أو أكثر.. وخرج البرئ رافعا رأسه من القفص. ودخل المجرم الداهية كي يلقى حسابه.

ولكن فيا المأساة التي عشناها في فلسطين ..

مضى الكابوس رهيبا ..

سنوات طويلة .. مظلمة .

وحين قلت إن الجيش المصري لم يهزم في فلسطين. لم أكن أقول كلاما حماسيا. ولا كنت أريد أن أرفع من معنويات الجيش.

كنت أقول الحقيقة التي عشتُها ..

كنت أحاول أن أمزق نسيج العنكبوت. التي وقع جيشنا فريسة لها.

كنت أريد ببساطة أن أقول ..

إن هذا الجيش لم يرتكب هزيمة فلسطين!

وإن الهزيمة لُفقت عليه.

ودبرت مظاهرها من حوله افتراء وبهتانًا .

لقد كان هناك مجرم آخـر يجـب أن يحاسـب علـى الهزيمة.

أما الجيش المصري فيجب أن يخرج من قفص الاتهام!

***

تلك كانت مقدمة هيكل ..

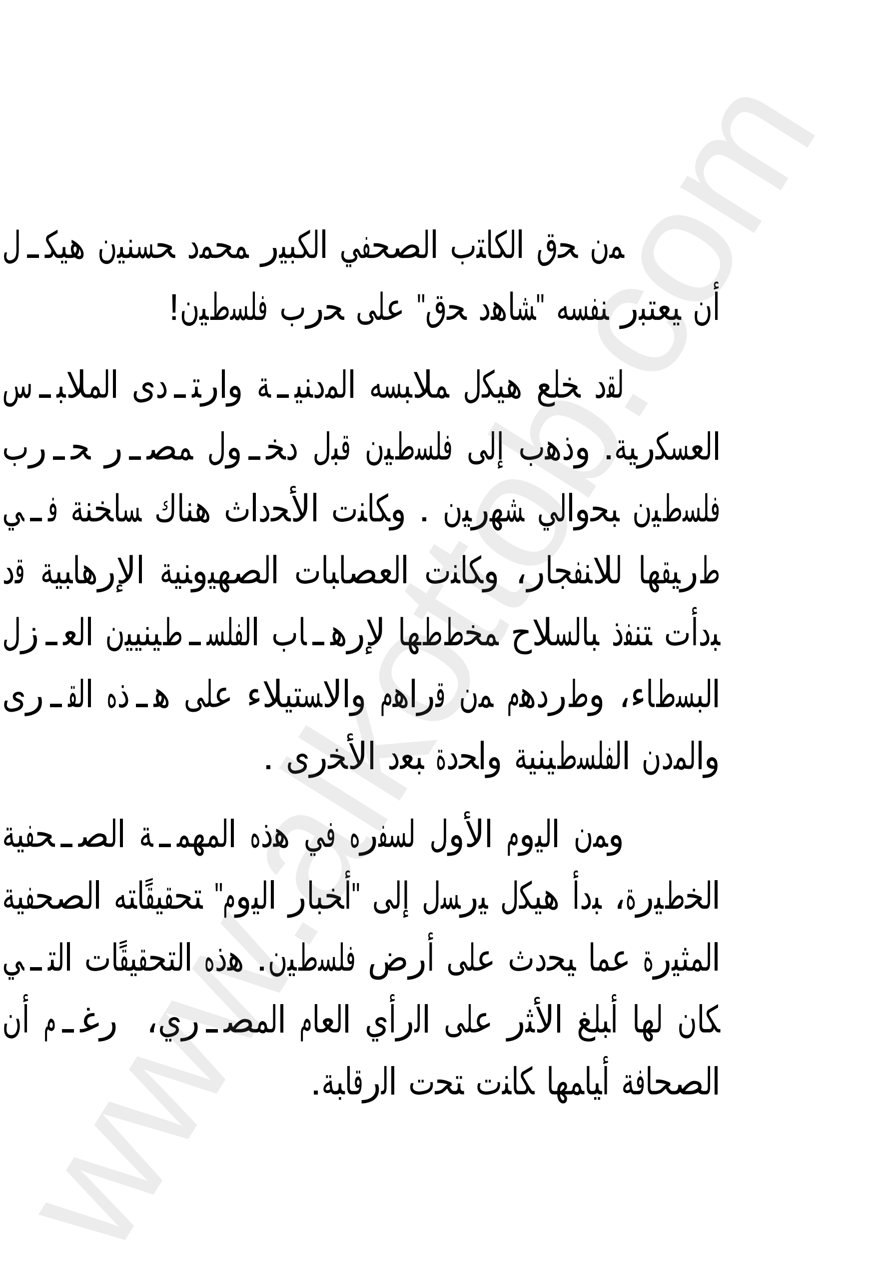
ومقدمة جمال عبد الناصر ..

فماذا قال هيكل في يومياته ..

وقال جمال عبد الناصر .. في مذكراته؟

الفصل الثاني

هيكل يراهن يهوديا .. إن مصر لن تدخل حرب فلسطين!



من حق الكاتب الصحفي الكبير محمد حسنين هيكـل أن يعتبر نفسه "شاهد حق" على حرب فلسطين!

لقد خلع هيكل ملابسه المدنيـة وارتـدى الملابـس العسكرية. وذهب إلى فلسطين قبل دخـول مصـر حـرب فلسطين بحوالي شهرين . وكانت الأحداث هناك ساخنة فـي طريقها للانفجار، وكانت العصابات الصهيونية الإرهابية قد بدأت تنفذ بالسلاح مخططها لإرهـاب الفلسـطينيين العـزل البسطاء، وطردهم من قراهم والاستيلاء على هـذه القـرى والمدن الفلسطينية واحدة بعد الأخرى .

ومن اليوم الأول لسفره في هذه المهمـة الصـحفية الخطيرة، بدأ هيكل يرسل إلى "أخبار اليوم" تحقيقًاته الصحفية المثيرة عما يحدث على أرض فلسطين. هذه التحقيقًات التـي كان لها أبلغ الأثر على الرأي العام المصـري، رغـم أن الصحافة أيامها كانت تحت الرقابة.

ولقد شهد جمال عبد الناصر فيما بعد بأنه كان يتابع ويقرأ تحقيقًات هيكل عن حرب فلسطين .. وتأثر بها كثيرا .

وبعد مرور خمس سنوات على حرب فلسطين ..

وبعد أن قامت ثورة يوليو ١٩٥٣ ..

وبعد أن رحل الملك فاروق عن مصر للأبد، وذهبت الملكية والأحزاب الفاسدة

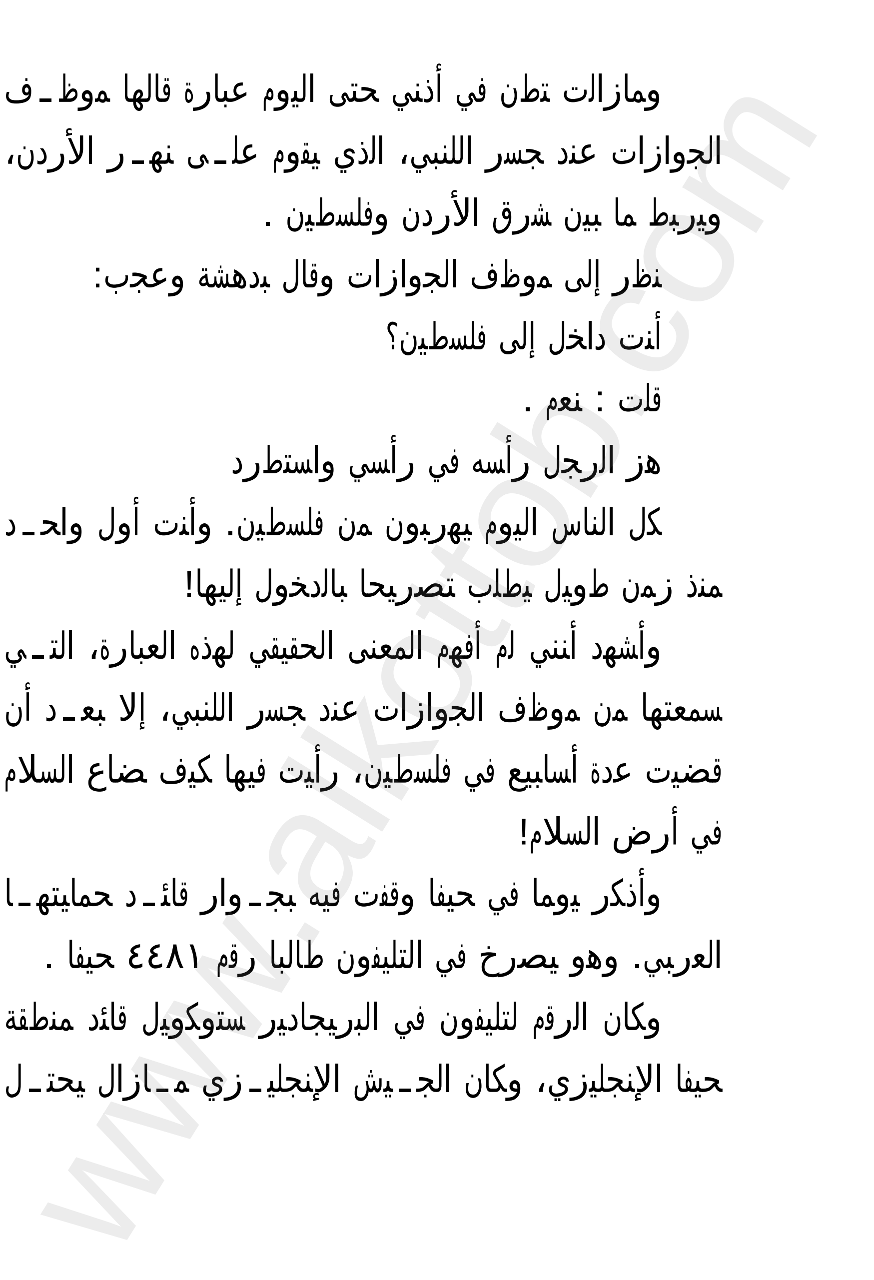
سجل هيكل من جديد يومياته عن حرب فلسـطين .. بلا رقيب أو رقابة !

***

قال هيكل في هذه اليوميات:

" أحاول الآن أن أتذكر . على ضـوء الصـور التـي مازالت حية في خيالي، وعلى ضوء الكلمات السريعة التـي خططتها في مذكراتي. وعلى ضوء الرسائل التي بعثت بهـا من ميدان الأحداث .. كيف بدت لي فلسطين في تلك الأيام"!

كان الموقف كما بدا لي في تلك الأيام .. كارثة مطلقة!



ومازالت تطن في أذني حتى اليوم عبارة قالها موظـف الجوازات عند جسر اللنبي، الذي يقوم علـى نهـر الأردن، ويربط ما بين شرق الأردن وفلسطين .

نظر إلى موظف الجوازات وقال بدهشة وعجب:

أنت داخل إلى فلسطين؟

قلت : نعم .

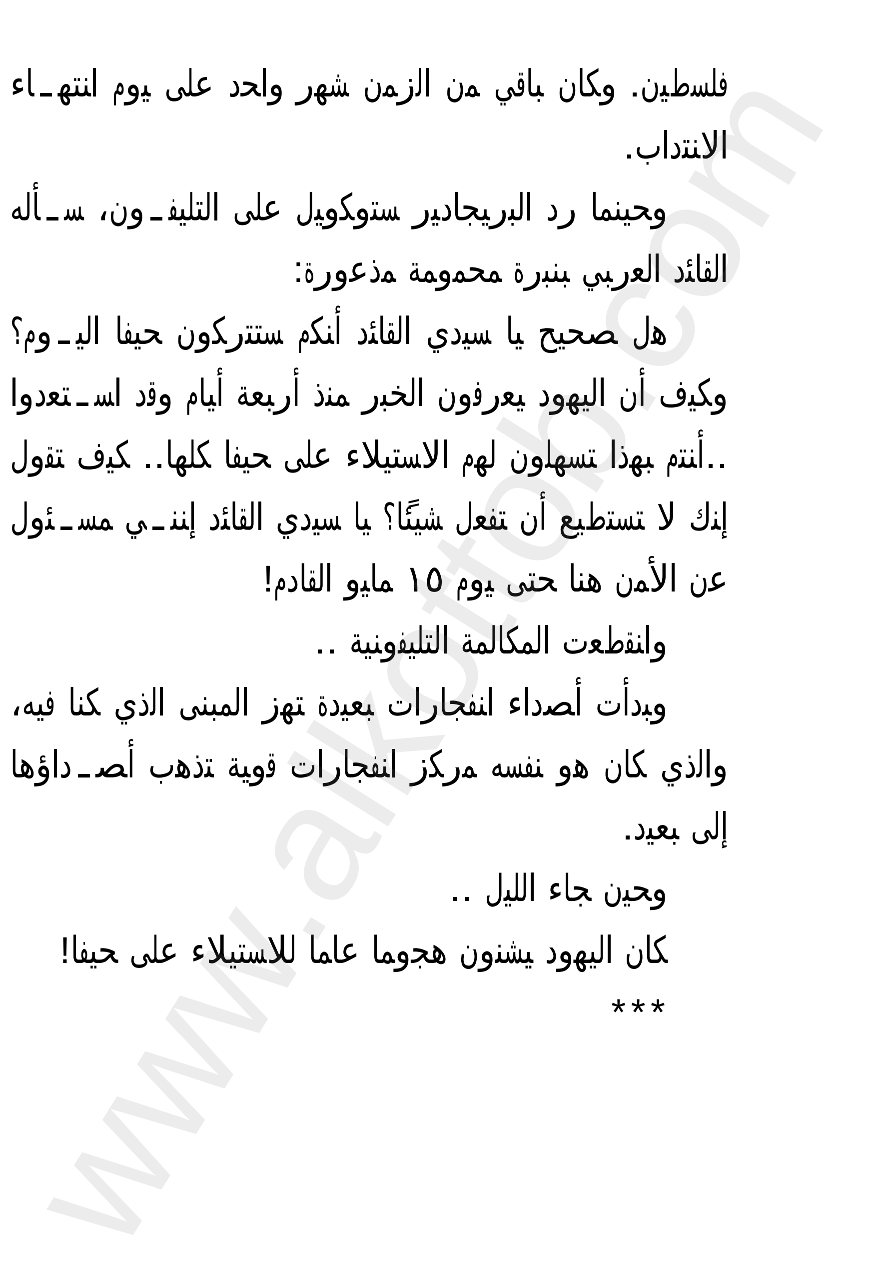
هز الرجل رأسه في رأسي واستطرد

كل الناس اليوم يهربون من فلسطين. وأنت أول واحـد منذ زمن طويل يطلب تصريحا بالدخول إليها!

وأشهد أنني لم أفهم المعنى الحقيقي لهذه العبارة، التـي سمعتها من موظف الجوازات عند جسر اللنبي، إلا بعـد أن قضيت عدة أسابيع في فلسطين، رأيت فيها كيف ضاع السلام في أرض السلام!

وأذكر يوما في حيفا وقفت فيه بجـوار قائـد حمايتهـا العربي. وهو يصرخ في التليفون طالبا رقم ٤٤٨١ حيفا .

وكان الرقم لتليفون في البريجادير ستوكويل قائد منطقة حيفا الإنجليزي، وكان الجـيش الإنجليـزي مـازال يحتـل



فلسطين. وكان باقي من الزمن شهر واحد على يوم انتهـاء الانتداب.

وحينما رد البريجادير ستوكويل على التليفـون، سـأله القائد العربي بنبرة محمومة مذعورة:

هل صحيح يا سيدي القائد أنكم ستتركون حيفا اليـوم؟ وكيف أن اليهود يعرفون الخبر منذ أربعة أيام وقد اسـتعدوا ..أنتم بهذا تسهلون لهم الاستيلاء على حيفا كلها.. كيف تقول إنك لا تستطيع أن تفعل شيئًا؟ يا سيدي القائد إننـي مسـئول عن الأمن هنا حتى يوم ١٥ مايو القادم!

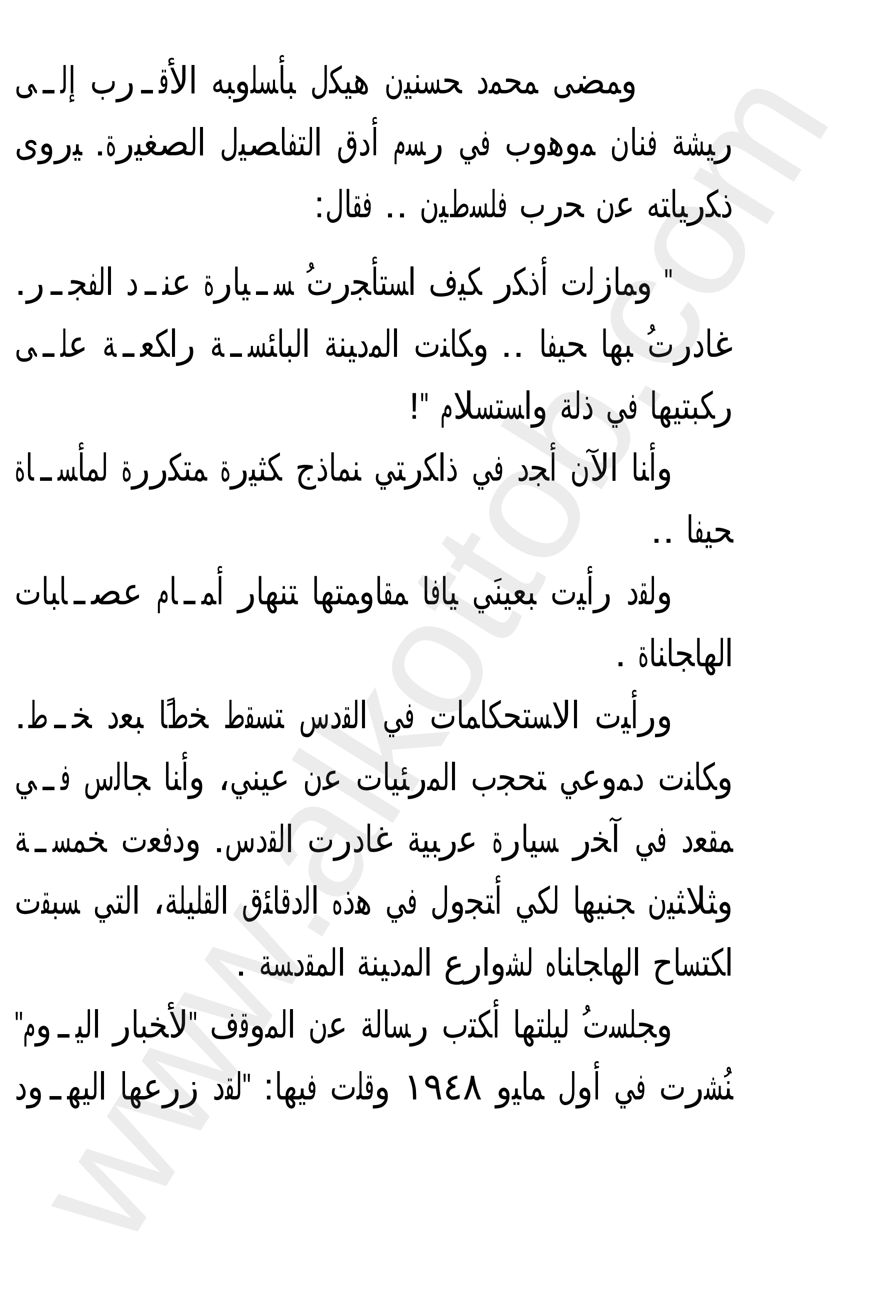
وانقطعت المكالمة التليفونية ..

وبدأت أصداء انفجارات بعيدة تهز المبنى الذي كنا فيه، والذي كان هو نفسه مركز انفجارات قوية تذهب أصـداؤها إلى بعيد.

وحين جاء الليل ..

كان اليهود يشنون هجوما عاما للاستيلاء على حيفا!

***



ومضى محمد حسنين هيكل بأسلوبه الأقـرب إلـى ريشة فنان موهوب في رسم أدق التفاصيل الصغيرة. يروى ذكرياته عن حرب فلسطين .. فقال:

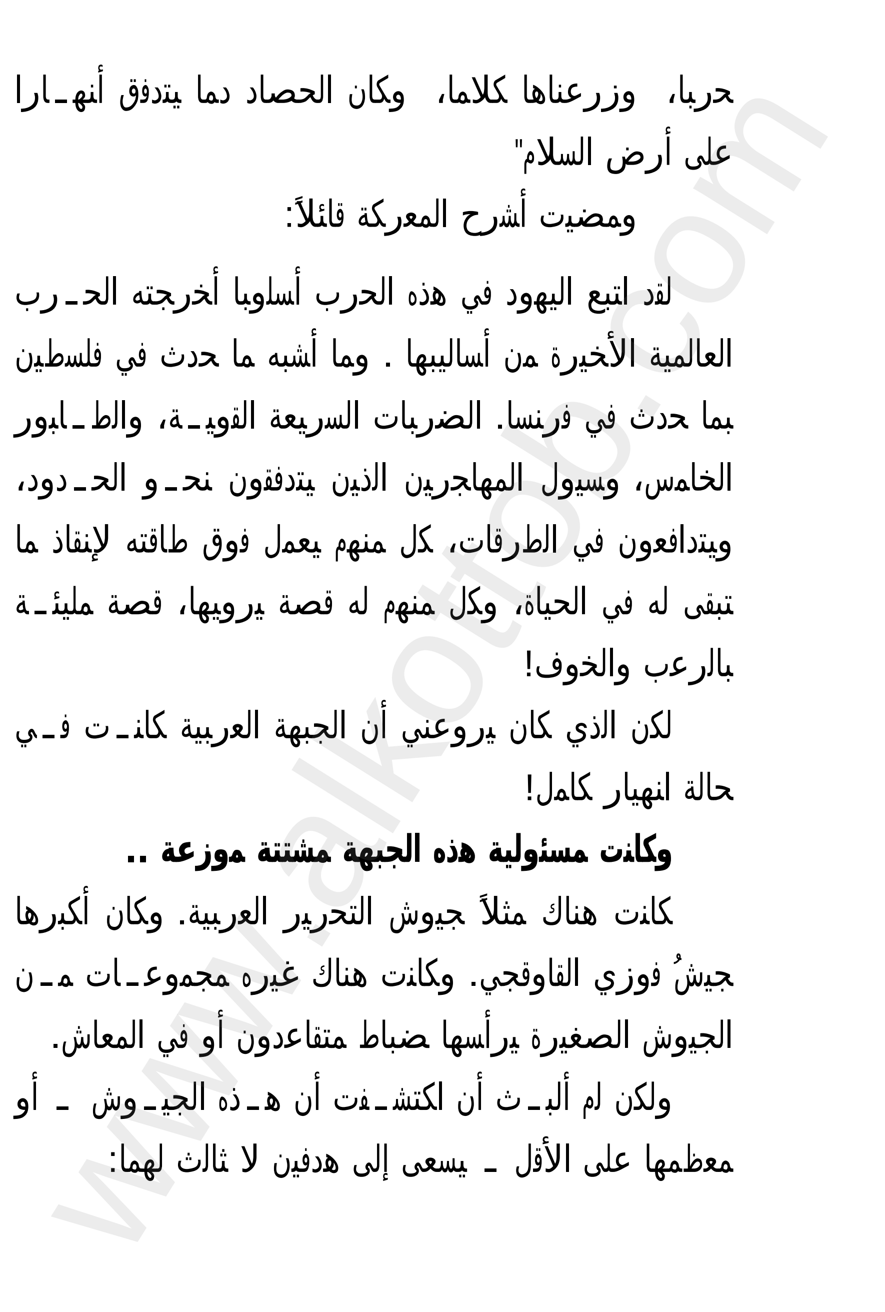
" ومازلت أذكر كيف استأجرتُ سـيارة عنـد الفجـر. غادرتُ بها حيفا .. وكانت المدينة البائسـة راكعـة علـى ركبتيها في ذلة واستسلام "!

وأنا الآن أجد في ذاكرتي نماذج كثيرة متكررة لمأسـاة حيفا ..

ولقد رأيت بعينَي يافا مقاومتها تنهار أمـام عصـابات الهاجاناة .

ورأيت الاستحكامات في القدس تسقط خطًا بعد خـط. وكانت دموعي تحجب المرئيات عن عيني، وأنا جالس فـي مقعد في آخر سيارة عربية غادرت القدس. ودفعت خمسـة وثلاثين جنيها لكي أتجول في هذه الدقائق القليلة، التي سبقت اكتساح الهاجاناه لشوارع المدينة المقدسة .

وجلستُ ليلتها أكتب رسالة عن الموقف "لأخبار اليـوم" نُشرت في أول مايو ١٩٤٨ وقلت فيها: "لقد زرعها اليهـود



حربا، وزرعناها كلاما، وكان الحصاد دما يتدفق أنهارا على أرض السلام"

ومضيت أشرح المعركة قائلاً:

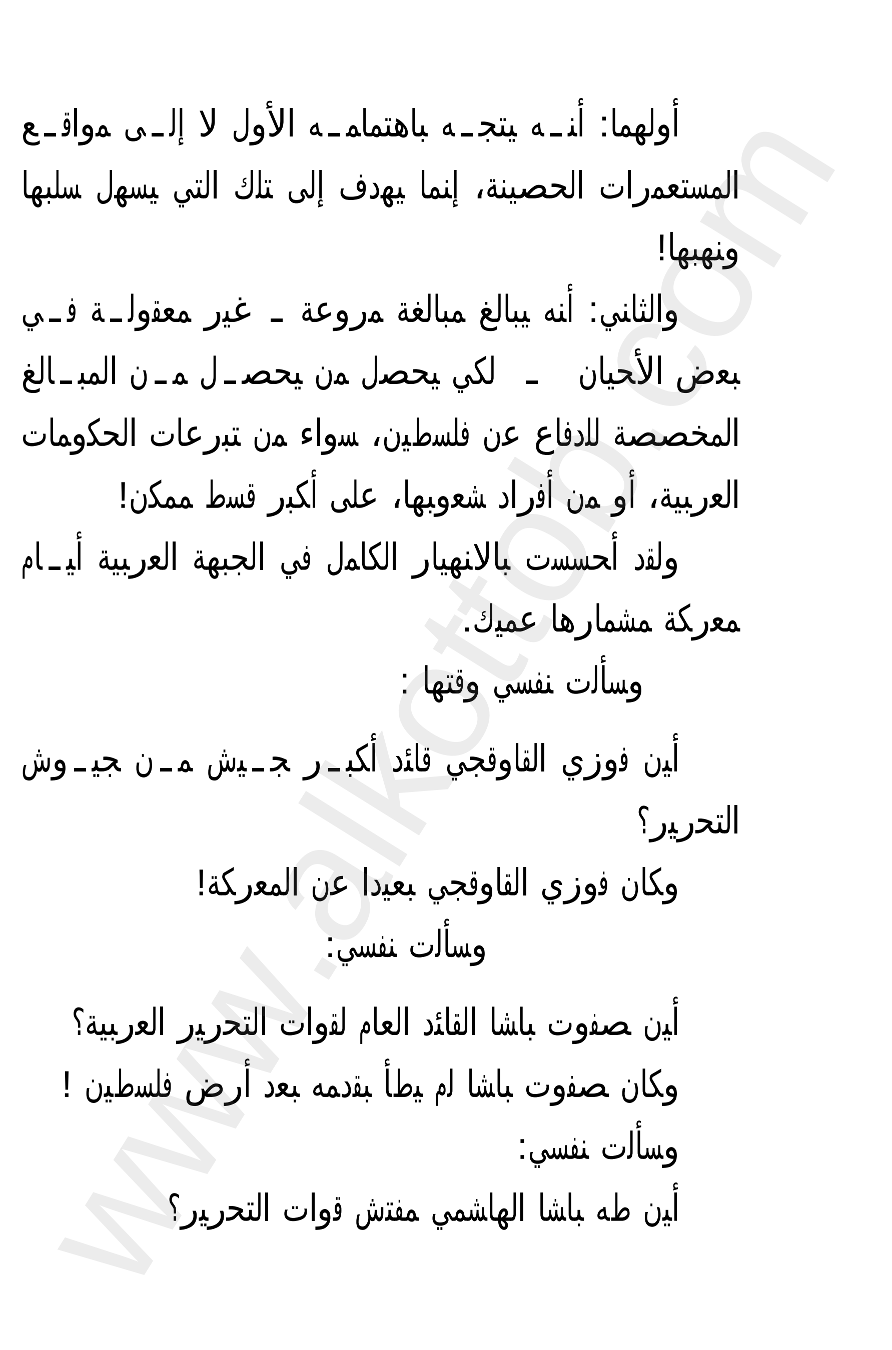
لقد اتبع اليهود في هذه الحرب أسلوبا أخرجته الحرب العالمية الأخيرة من أساليبها . وما أشبه ما حدث في فلسطين بما حدث في فرنسا. الضربات السريعة القوية، والطابور الخامس، وسيول المهاجرين الذين يتدفقون نحو الحدود، ويتدافعون في الطرقات، كل منهم يعمل فوق طاقته لإنقاذ ما تبقى له في الحياة، وكل منهم له قصة يرويها، قصة مليئة بالرعب والخوف!

لكن الذي كان يروعني أن الجبهة العربية كانت في حالة انهيار كامل!

وكانت مسئولية هذه الجبهة مشتتة موزعة ..

كانت هناك مثلاً جيوش التحرير العربية. وكان أكبرها جيشُ فوزي القاوقجي. وكانت هناك غيره مجموعات من الجيوش الصغيرة يرأسها ضباط متقاعدون أو في المعاش.

ولكن لم ألبث أن اكتشفت أن هذه الجيوش ـ أو معظمها على الأقل ـ يسعى إلى هدفين لا ثالث لهما:



أولهما: أنـه يتجـه باهتمامـه الأول لا إلـى مواقـع المستعمرات الحصينة، إنما يهدف إلى تلك التي يسهل سلبها ونهبها!

والثاني: أنه يبالغ مبالغة مروعة ـ غير معقولـة فـي بعض الأحيان ـ لكي يحصل من يحصـل مـن المبـالغ المخصصة للدفاع عن فلسطين، سواء من تبرعات الحكومات العربية، أو من أفراد شعوبها، على أكبر قسط ممكن!

ولقد أحسست بالانهيار الكامل في الجبهة العربية أيـام معركة مشمارها عميك.

وسألت نفسي وقتها :

أين فوزي القاوقجي قائد أكبـر جـيش مـن جيـوش التحرير؟

وكان فوزي القاوقجي بعيدا عن المعركة!

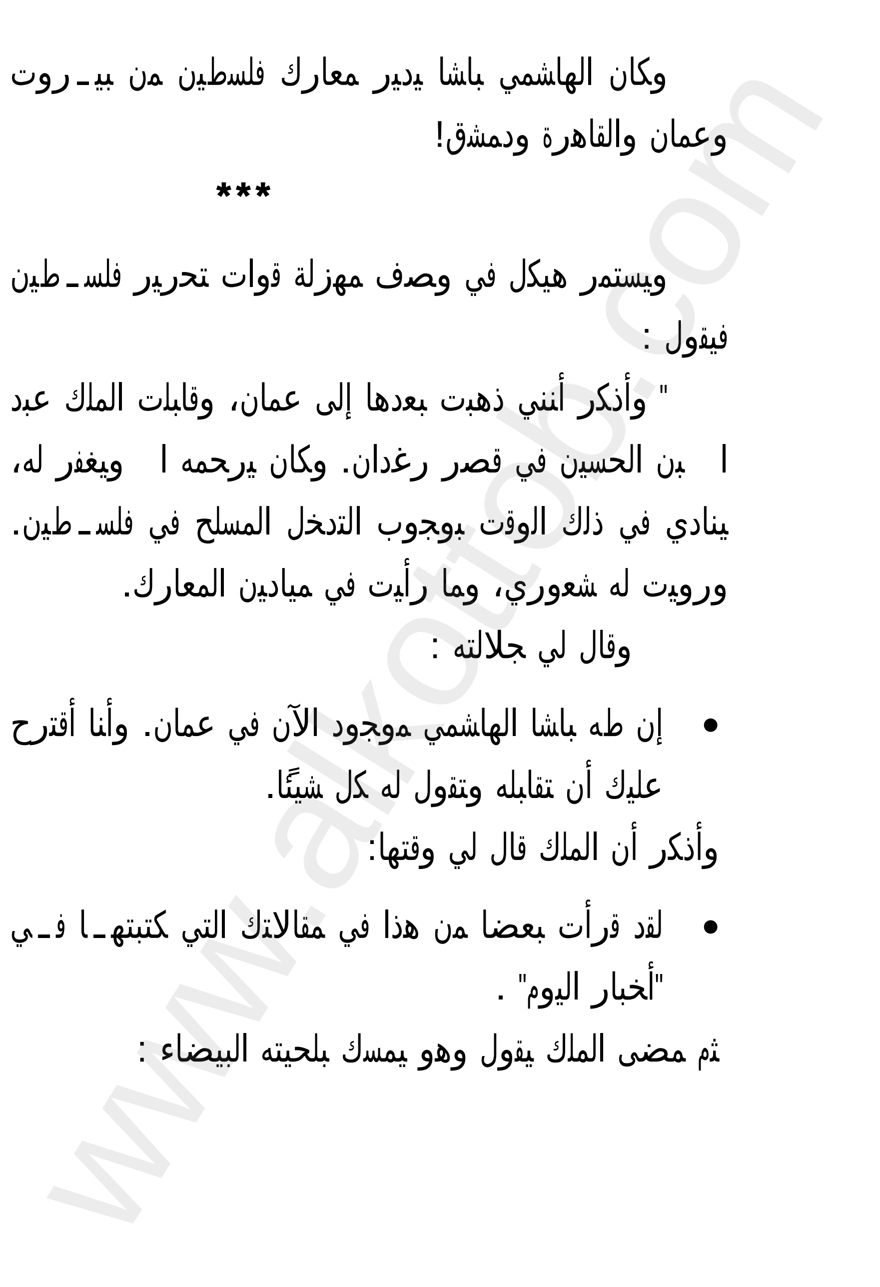
وسألت نفسي:

أين صفوت باشا القائد العام لقوات التحرير العربية؟

وكان صفوت باشا لم يطأ بقدمه بعد أرض فلسطين !

وسألت نفسي:

أين طه باشا الهاشمي مفتش قوات التحرير؟



وكان الهاشمي باشا يدير معارك فلسطين من بيـروت وعمان والقاهرة ودمشق!

***

ويستمر هيكل في وصف مهزلة قوات تحرير فلسـطين فيقول :

" وأذكر أنني ذهبت بعدها إلى عمان، وقابلت الملك عبد ا بن الحسين في قصر رغدان. وكان يرحمه ا ويغفر له، ينادي في ذلك الوقت بوجوب التدخل المسلح في فلسـطين. ورويت له شعوري، وما رأيت في ميادين المعارك.

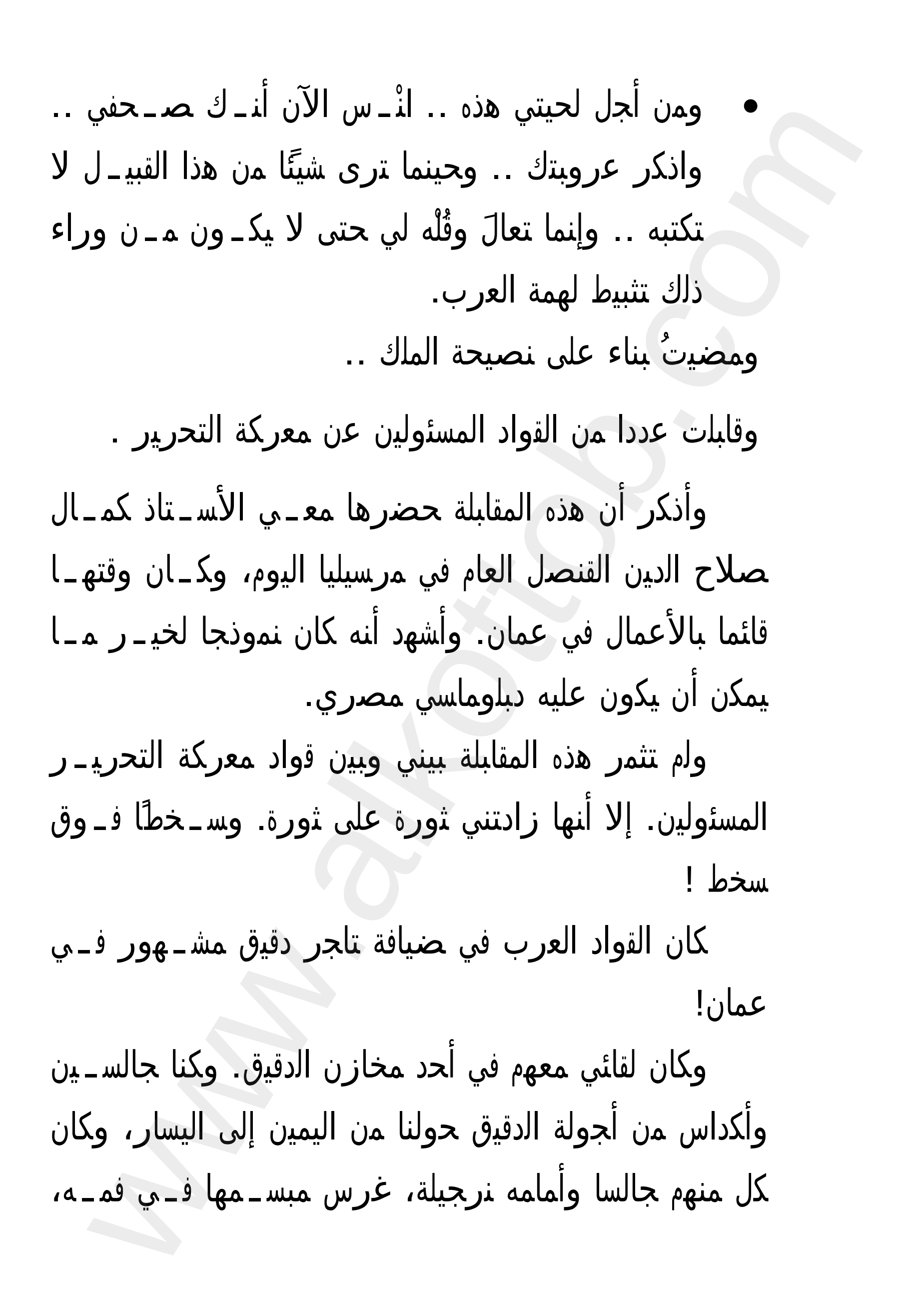
وقال لي جلالته :

- إن طه باشا الهاشمي موجود الآن في عمان. وأنا أقترح عليك أن تقابله وتقول له كل شيئًا.

وأذكر أن الملك قال لي وقتها:

- لقد قرأت بعضا من هذا في مقالاتك التي كتبتهـا فـي "أخبار اليوم" .

ثم مضى الملك يقول وهو يمسك بلحيته البيضاء :



- ومن أجل لحيتي هذه .. انْس الآن أنك صحفي .. واذكر عروبتك .. وحينما ترى شيئًا من هذا القبيل لا تكتبه .. وإنما تعالَ وقُلْه لي حتى لا يكون من وراء ذلك تثبيط لهمة العرب.

ومضيتُ بناء على نصيحة الملك ..

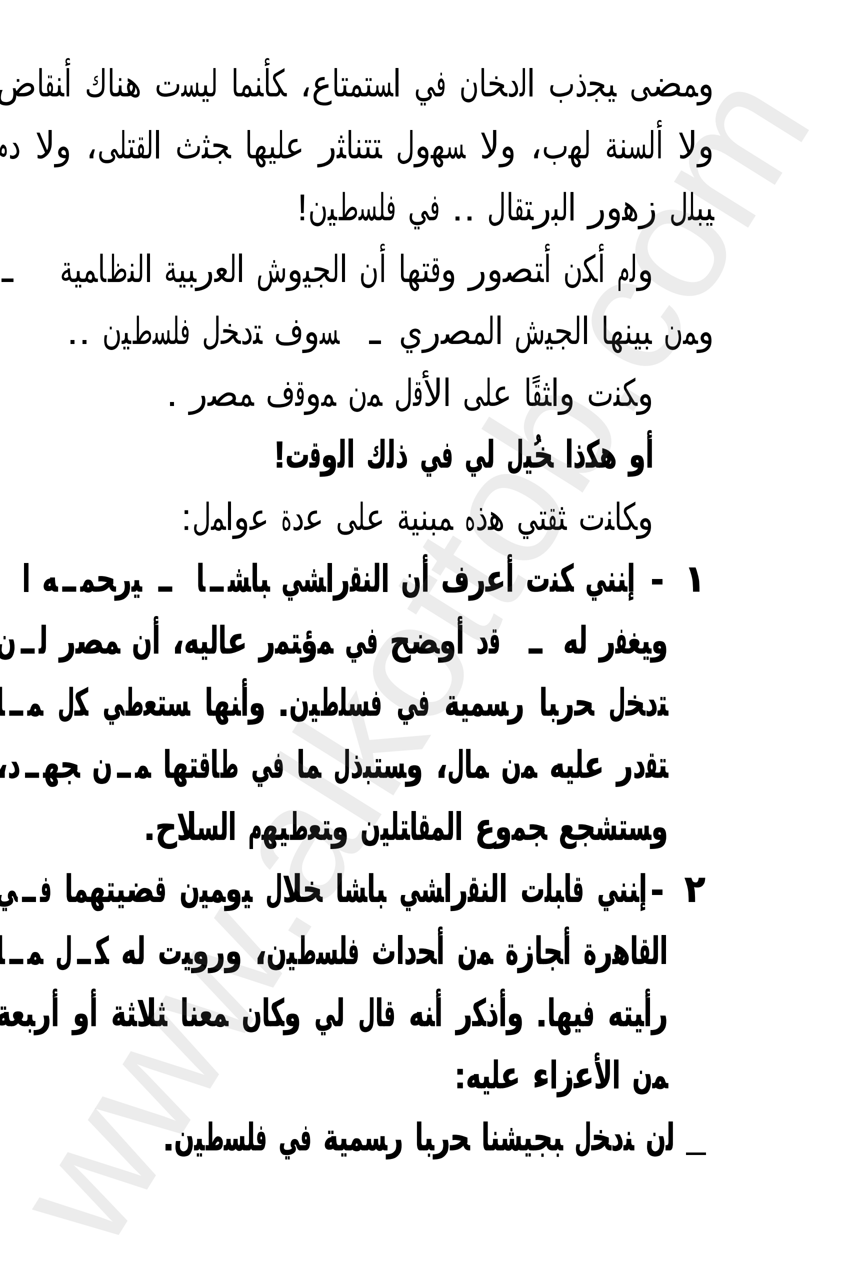
وقابلت عددا من القواد المسئولين عن معركة التحرير .

وأذكر أن هذه المقابلة حضرها معي الأستاذ كمال صلاح الدين القنصل العام في مرسيليا اليوم، وكان وقتها قائما بالأعمال في عمان. وأشهد أنه كان نموذجا لخير ما يمكن أن يكون عليه دبلوماسي مصري.

ولم تثمر هذه المقابلة بيني وبين قواد معركة التحرير المسئولين. إلا أنها زادتني ثورة على ثورة. وسخطًا فوق سخط !

كان القواد العرب في ضيافة تاجر دقيق مشهور في عمان!

وكان لقائي معهم في أحد مخازن الدقيق. وكنا جالسين وأكداس من أجولة الدقيق حولنا من اليمين إلى اليسار، وكان كل منهم جالسا وأمامه نرجيلة، غرس مبسمها في فمه،



ومضى يجذب الدخان في استمتاع، كأنما ليست هناك أنقاض ولا ألسنة لهب، ولا سهول تتناثر عليها جثث القتلى، ولا دم يبلل زهور البرتقال .. في فلسطين!

ولم أكن أتصور وقتها أن الجيوش العربية النظامية - ومن بينها الجيش المصري - سوف تدخل فلسطين ..

وكنت واثقًا على الأقل من موقف مصر .

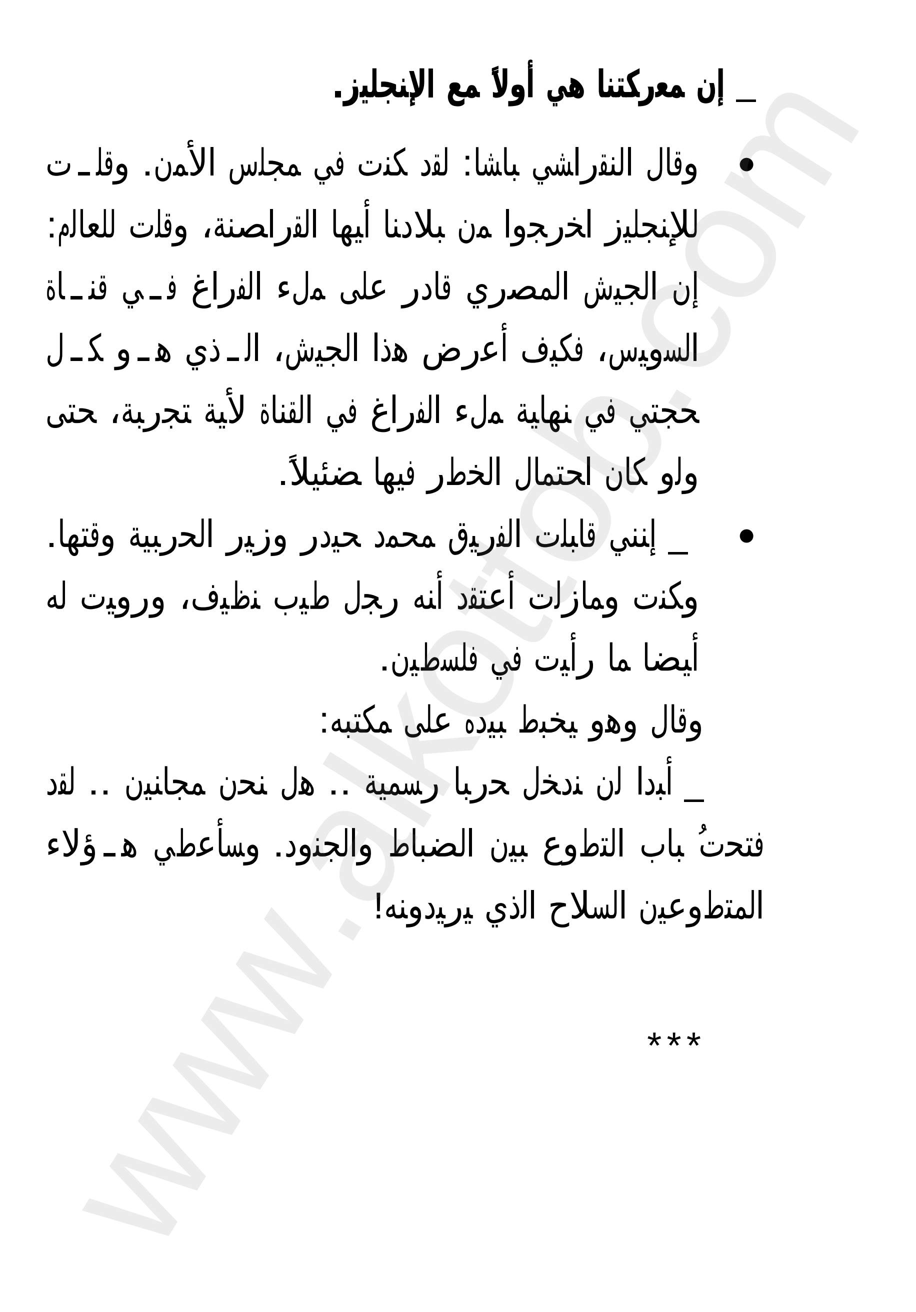
أو هكذا خُيل لي في ذلك الوقت!

وكانت ثقتي هذه مبنية على عدة عوامل:

١ - إنني كنت أعرف أن النقراشي باشا - يرحمه ا ويغفر له - قد أوضح في مؤتمر عاليه، أن مصر لن تدخل حربا رسمية في فسلطين. وأنها ستعطي كل ما تقدر عليه من مال، وستبذل ما في طاقتها من جهد، وستشجع جموع المقاتلين وتعطيهم السلاح.

٢ -إنني قابلت النقراشي باشا خلال يومين قضيتهما في القاهرة أجازة من أحداث فلسطين، ورويت له كل ما رأيته فيها. وأذكر أنه قال لي وكان معنا ثلاثة أو أربعة من الأعزاء عليه:

_ لن ندخل بجيشنا حربا رسمية في فلسطين.



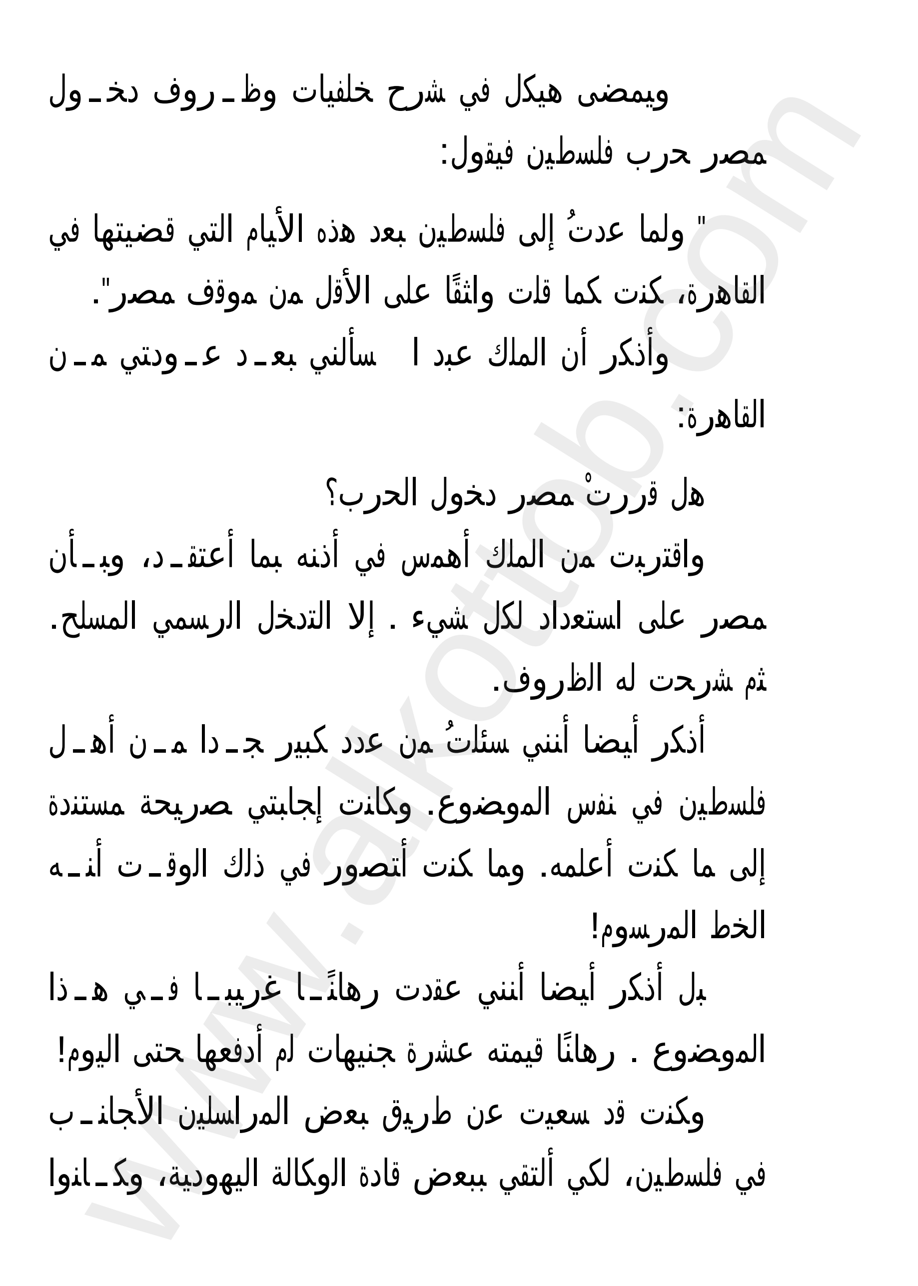
_ إن معركتنا هي أولاً مع الإنجليز.

- وقال النقراشي باشا: لقد كنت في مجلس الأمن. وقلـت للإنجليز اخرجوا من بلادنا أيها القراصنة، وقلت للعالم: إن الجيش المصري قادر على ملء الفراغ فـي قنـاة السويس، فكيف أعرض هذا الجيش، الـذي هـو كـل حجتي في نهاية ملء الفراغ في القناة لأية تجربة، حتى ولو كان احتمال الخطر فيها ضئيلاً.
- _ إنني قابلت الفريق محمد حيدر وزير الحربية وقتها. وكنت ومازلت أعتقد أنه رجل طيب نظيف، ورويت له أيضا ما رأيت في فلسطين.

وقال وهو يخبط بيده على مكتبه:

_ أبدا لن ندخل حربا رسمية .. هل نحن مجانين .. لقد فتحتُ باب التطوع بين الضباط والجنود. وسأعطي هـؤلاء المتطوعين السلاح الذي يريدونه!

***



ويمضى هيكل في شرح خلفيات وظـروف دخـول مصر حرب فلسطين فيقول:

" ولما عدتُ إلى فلسطين بعد هذه الأيام التي قضيتها في القاهرة، كنت كما قلت واثقًا على الأقل من موقف مصر".

وأذكر أن الملك عبد ا سألني بعـد عـودتي مـن القاهرة:

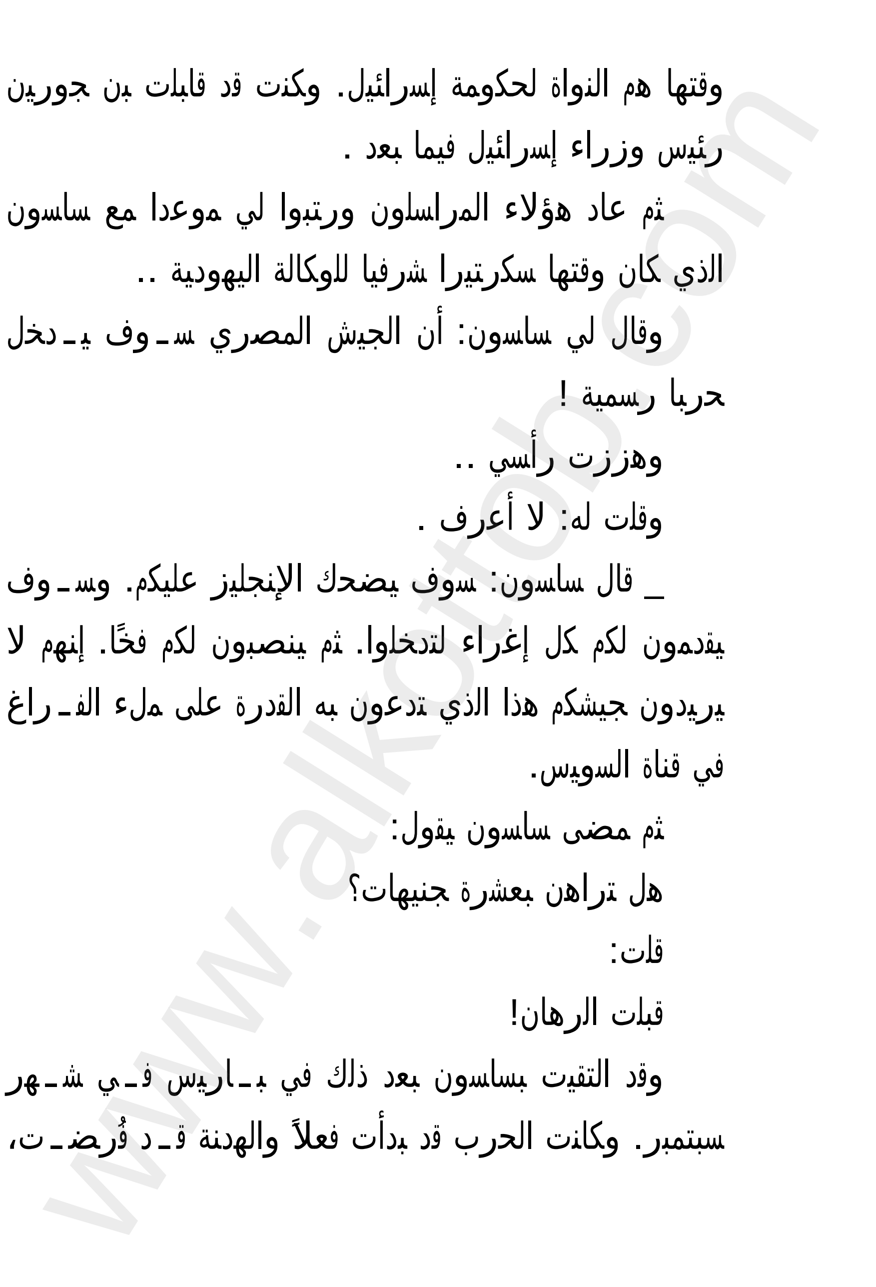
هل قررتْ مصر دخول الحرب؟

واقتربت من الملك أهمس في أذنه بما أعتقـد، وبـأن مصر على استعداد لكل شيء . إلا التدخل الرسمي المسلح. ثم شرحت له الظروف.

أذكر أيضا أنني سئلتُ من عدد كبير جـدا مـن أهـل فلسطين في نفس الموضوع. وكانت إجابتي صريحة مستندة إلى ما كنت أعلمه. وما كنت أتصور في ذلك الوقـت أنـه الخط المرسوم!

بل أذكر أيضا أنني عقدت رهانًـا غريبـا فـي هـذا الموضوع . رهانًا قيمته عشرة جنيهات لم أدفعها حتى اليوم!

وكنت قد سعيت عن طريق بعض المراسلين الأجانـب في فلسطين، لكي ألتقي ببعض قادة الوكالة اليهودية، وكـانوا



وقتها هم النواة لحكومة إسرائيل. وكنت قد قابلت بن جورين رئيس وزراء إسرائيل فيما بعد .

ثم عاد هؤلاء المراسلون ورتبوا لي موعدا مع ساسون الذي كان وقتها سكرتيرا شرفيا للوكالة اليهودية ..

وقال لي ساسون: أن الجيش المصري سـوف يـدخل حربا رسمية !

وهززت رأسي ..

وقلت له: لا أعرف .

_ قال ساسون: سوف يضحك الإنجليز عليكم. وسـوف يقدمون لكم كل إغراء لتدخلوا. ثم ينصبون لكم فخًا. إنهم لا يريدون جيشكم هذا الذي تدعون به القدرة على ملء الفـراغ في قناة السويس.

ثم مضى ساسون يقول:

هل تراهن بعشرة جنيهات؟

قلت:

قبلت الرهان!

وقد التقيت بساسون بعد ذلك في بـاريس فـي شـهر سبتمبر. وكانت الحرب قد بدأت فعلاً والهدنة قـد فُرضـت،



وفي مجلس الأمن كانت مناقشات حـول الهدنـة وظـروف الاعتداء عليها.

ووجدت ساسون فجأة أمام قاعة اجتماع اللجنة السياسية في قصر شايو،

يقول لي :

ـ هل رأيت .. ألا تريد دفع الرهان؟!

وبعدها في شهر فبراير سنة ١٩٤٩ ..

وفي استنبول في مطعم عبـد ا المشـهور ـ وكـان ساسون قد عين سفيرا لإسرائيل في تركيا ـ أقبل أحد خـدم المطعم يحمل له ورقة صغيرة كتب عليها :

- **ألا تريد أن تدفع رهانك؟!**

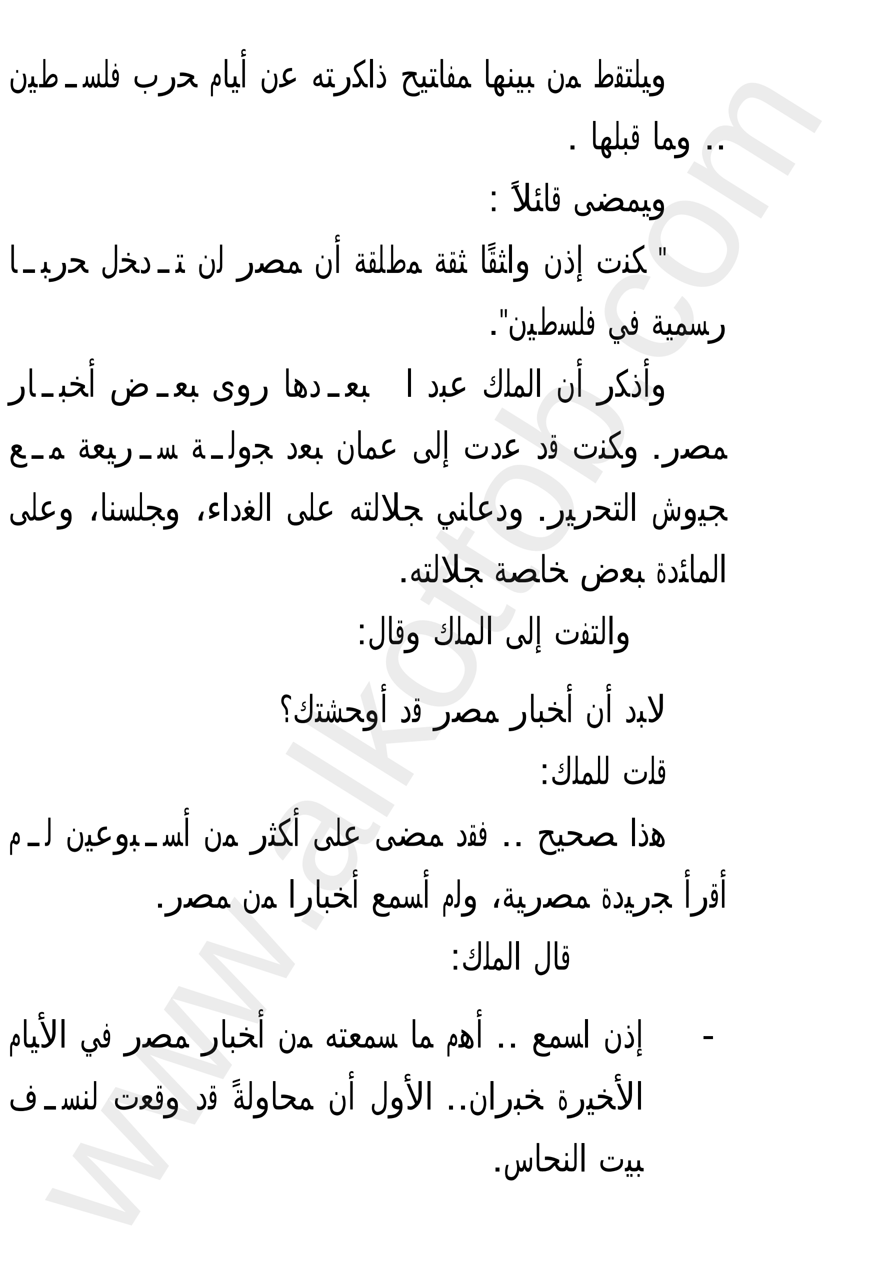
وقال لي الخادم : السيد الجالس هناك بعث بهذه الورقة إليك!

ورفعت رأسي في الاتجاه الذي أشار إليه ..

ووجدت ساسون بنفسه ينظر إلي .. ويبتسم!

***

ويغوص هيكل أكثر في يومياته ..



ويلتقط من بينها مفاتيح ذاكرته عن أيام حرب فلسـطين .. وما قبلها .

ويمضى قائلاً :

" كنت إذن واثقًا ثقة مطلقة أن مصر لن تـدخل حربـا رسمية في فلسطين".

وأذكر أن الملك عبد ا بعـدها روى بعـض أخبـار مصر. وكنت قد عدت إلى عمان بعد جولـة سـريعة مـع جيوش التحرير. ودعاني جلالته على الغداء، وجلسنا، وعلى المائدة بعض خاصة جلالته.

والتفت إلى الملك وقال:

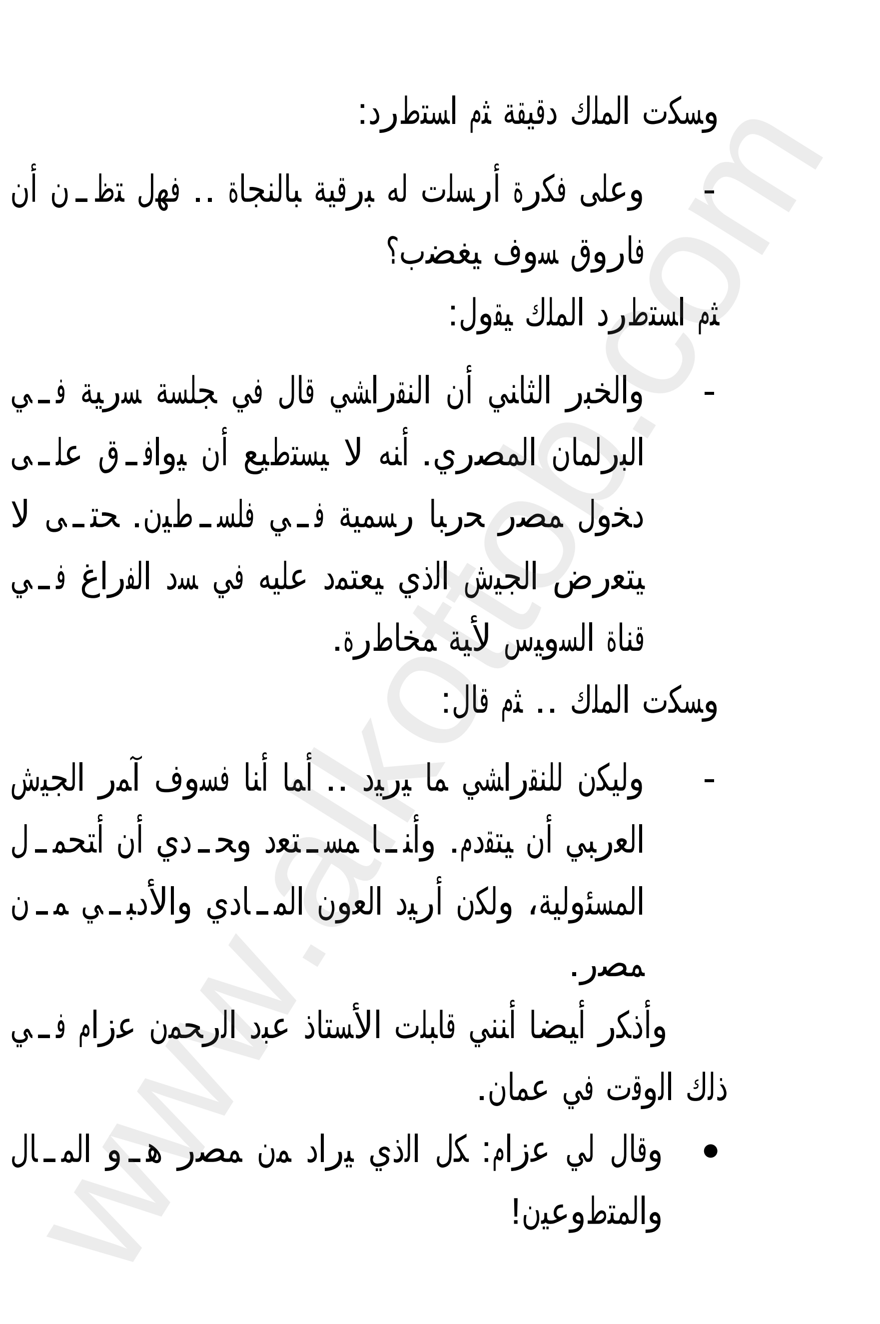
لابد أن أخبار مصر قد أوحشتك؟

قلت للملك:

هذا صحيح .. فقد مضى على أكثر من أسـبوعين لـم أقرأ جريدة مصرية، ولم أسمع أخبارا من مصر.

قال الملك:

- إذن اسمع .. أهم ما سمعته من أخبار مصر في الأيام الأخيرة خبران.. الأول أن محاولةً قد وقعت لنسـف بيت النحاس.



وسكت الملك دقيقة ثم استطرد:

- وعلى فكرة أرسلت له برقية بالنجاة .. فهل تظـن أن فاروق سوف يغضب؟

ثم استطرد الملك يقول:

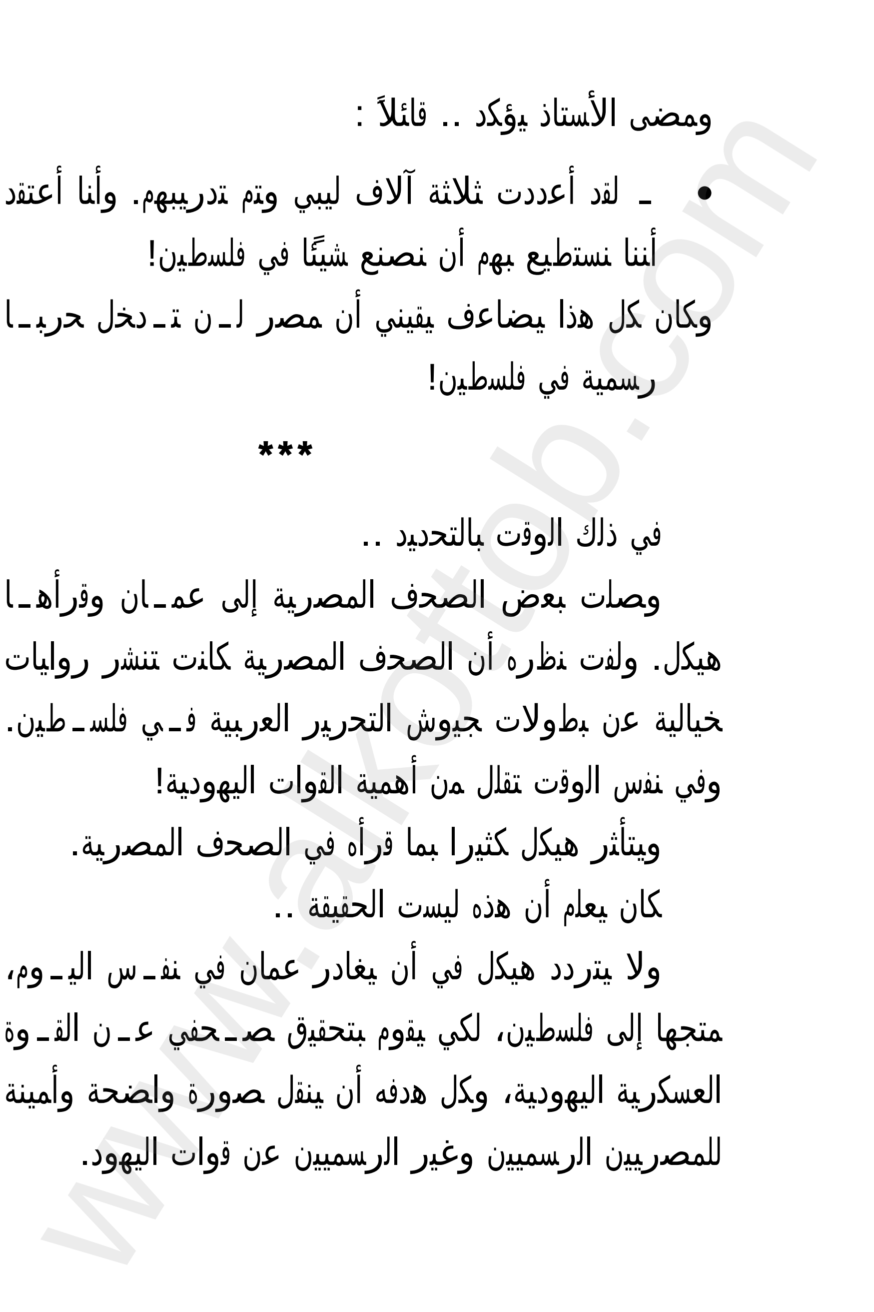
- والخبر الثاني أن النقراشي قال في جلسة سرية فـي البرلمان المصري. أنه لا يستطيع أن يوافـق علـى دخول مصر حربا رسمية فـي فلسـطين. حتـى لا يتعرض الجيش الذي يعتمد عليه في سد الفراغ فـي قناة السويس لأية مخاطرة.

وسكت الملك .. ثم قال:

- وليكن للنقراشي ما يريد .. أما أنا فسوف آمر الجيش العربي أن يتقدم. وأنـا مسـتعد وحـدي أن أتحمـل المسئولية، ولكن أريد العون المـادي والأدبـي مـن مصر.

وأذكر أيضا أنني قابلت الأستاذ عبد الرحمن عزام فـي ذلك الوقت في عمان.

- وقال لي عزام: كل الذي يراد من مصر هـو المـال والمتطوعين!



ومضى الأستاذ يؤكد .. قائلاً :

- ـ لقد أعددت ثلاثة آلاف ليبي وتم تدريبهم. وأنا أعتقد أننا نستطيع بهم أن نصنع شيئًا في فلسطين!

وكان كل هذا يضاعف يقيني أن مصر لـن تـدخل حربـا رسمية في فلسطين!

***

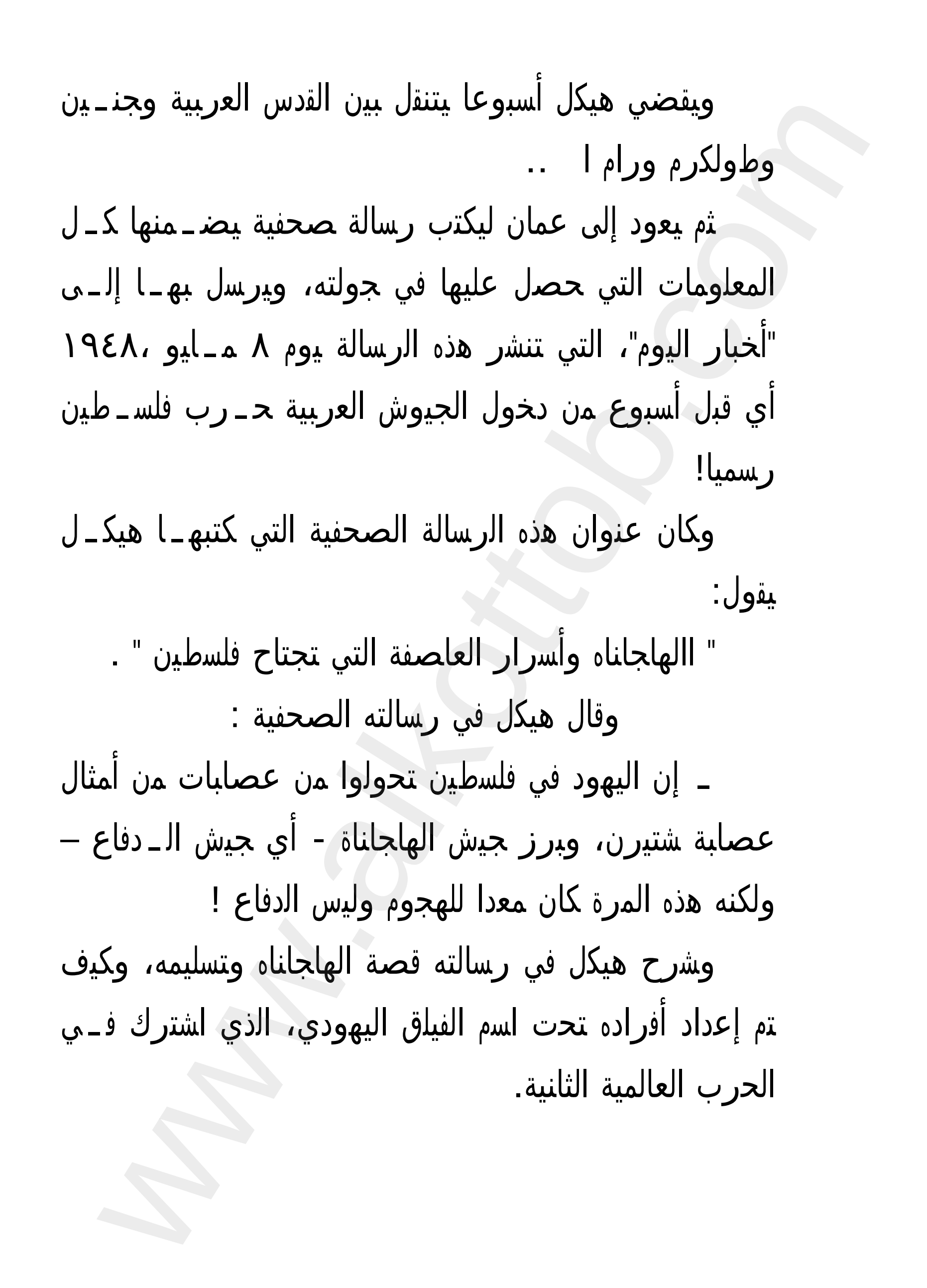
في ذلك الوقت بالتحديد ..

وصلت بعض الصحف المصرية إلى عمـان وقرأهـا هيكل. ولفت نظره أن الصحف المصرية كانت تنشر روايات خيالية عن بطولات جيوش التحرير العربية فـي فلسـطين. وفي نفس الوقت تقلل من أهمية القوات اليهودية!

ويتأثر هيكل كثيرا بما قرأه في الصحف المصرية.

كان يعلم أن هذه ليست الحقيقة ..

ولا يتردد هيكل في أن يغادر عمان في نفـس اليـوم، متجها إلى فلسطين، لكي يقوم بتحقيق صـحفي عـن القـوة العسكرية اليهودية، وكل هدفه أن ينقل صورة واضحة وأمينة للمصريين الرسميين وغير الرسميين عن قوات اليهود.



ويقضي هيكل أسبوعا يتنقل بين القدس العربية وجنـين وطولكرم ورام ا ..

ثم يعود إلى عمان ليكتب رسالة صحفية يضـمنها كـل المعلومات التي حصل عليها في جولته، ويرسل بهـا إلـى "أخبار اليوم"، التي تنشر هذه الرسالة يوم ٨ مـايو ١٩٤٨، أي قبل أسبوع من دخول الجيوش العربية حـرب فلسـطين رسميا!

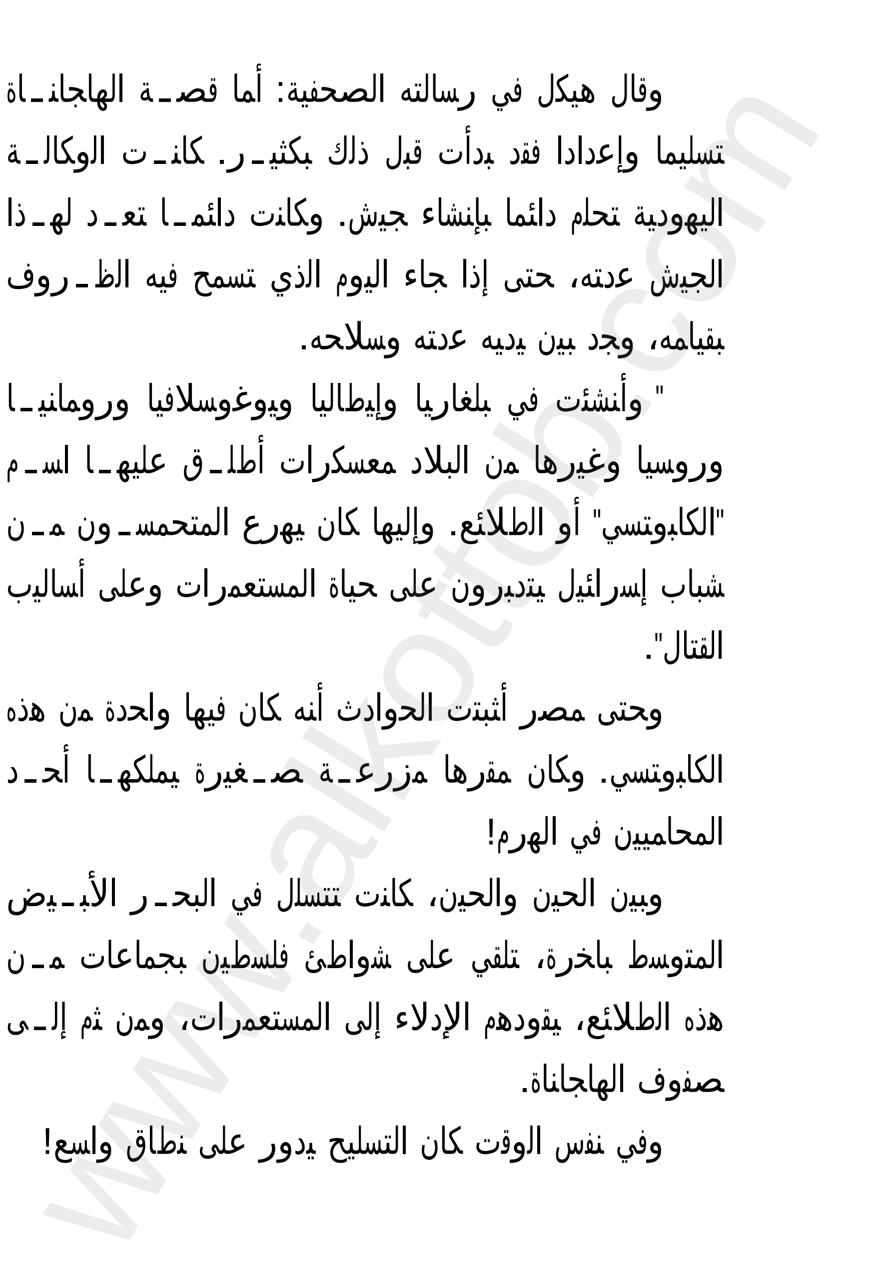
وكان عنوان هذه الرسالة الصحفية التي كتبهـا هيكـل يقول:

" االهاجاناه وأسرار العاصفة التي تجتاح فلسطين " .

وقال هيكل في رسالته الصحفية :

ـ إن اليهود في فلسطين تحولوا من عصابات من أمثال عصابة شتيرن، وبرز جيش الهاجاناة - أي جيش الـدفاع – ولكنه هذه المرة كان معدا للهجوم وليس الدفاع !

وشرح هيكل في رسالته قصة الهاجاناه وتسليمه، وكيف تم إعداد أفراده تحت اسم الفيلق اليهودي، الذي اشترك فـي الحرب العالمية الثانية.



وقال هيكل في رسالته الصحفية: أما قصـة الهاجنـاة تسليما وإعدادا فقد بدأت قبل ذلك بكثيـر. كانـت الوكالـة اليهودية تحلم دائما بإنشاء جيش. وكانت دائمـا تعـد لهـذا الجيش عدته، حتى إذا جاء اليوم الذي تسمح فيه الظـروف بقيامه، وجد بين يديه عدته وسلاحه.

" وأنشئت في بلغاريا وإيطاليا ويوغوسلافيا ورومانيـا وروسيا وغيرها من البلاد معسكرات أطلـق عليهـا اسـم "الكابوتسي" أو الطلائع. وإليها كان يهرع المتحمسـون مـن شباب إسرائيل يتدبرون على حياة المستعمرات وعلى أساليب القتال".

وحتى مصر أثبتت الحوادث أنه كان فيها واحدة من هذه الكابوتسي. وكان مقرها مزرعـة صـغيرة يملكهـا أحـد المحاميين في الهرم!

وبين الحين والحين، كانت تتسلل في البحـر الأبـيض المتوسط باخرة، تلقي على شواطئ فلسطين بجماعات مـن هذه الطلائع، يقودهم الإدلاء إلى المستعمرات، ومن ثم إلـى صفوف الهاجاناة.

وفي نفس الوقت كان التسليح يدور على نطاق واسع!

وتم شراء ٣٨ طائرة دفعة واحدة من أمريكا!

وتم شراء ٢٤ طائرة من إنجلترا، قامت عليها ضجة في مجلس العموم البريطاني، ولكن اليهود استطاعوا أن يخنقوا الضجة.

وتم استيراد شحنات من المسدسات الضخمة من طراز مونشاير.

وتم استيراد مصانع ذخيرة أنشئت في مستعمرة بات جليم.

وسجلت تقارير تلقاها أحد الملحقين الحربيين في القدس، أن اليهود حشدوا في مستعمرة " قضاء الأخضيرة" ٣٦ دبابة كبيرة من طراز تشرشل!

وقبل ستة أسابيع من سقوط حسين - وكان اليوم الموعود قد لاح في الأفق ـ وصل إلى حيفا على ظهر الباخرة على أنها جرارات زراعية ومحاريث!

ولم تقيد هذه الشحنة لحساب الوكالة اليهودية كباقي ما كانت تحمله باخرة " السهم الطائر"، بل قيدت "تحت الطلب"، حتى يسهل للوكالة اليهودية التخلص من تبعة استيرادها إذا انكشف أمرها في الميناء!

***

وفي نهاية رسالته الصحفية قال هيكل:

" ويقول الملحقون الحربيون، والصـحفيون الأجانـب، وغيرهم من الباحثين عن السر والحقيقة لكل من يقابلونه من المسئولين العرب":

استعدوا ليوم ١٥ مايو..

في مطارات أوروبا الجنوبية وفي موانيهـا طـائرات مستعدة، وبواخر محملة بالرجال .. وهـي تنتظـر اليـوم الموعود، لتهبط فجأة على الأرض المقدسة، أو تظهر فجـأة أمام موانيها.

يومئذٍ سيكون الغزو الحقيقي .. فاستعدوا لها.

وليس هذا فقط ..

بل أن بعضهم يقول همسا ـ وقد تكرر الهمس في أكثر من مرة ـ في أذن أكثر من عربي مسئول:

أنتم تعرفون أن هذه هي المعركة الأخيرة للصهيونيين. إن انتصروا فيها فلهم فلسطين. ومن يـدري أيضـا ، وإن انهزموا فليس هناك سوى البحر، وهم يدركون هذا. ويعلمون

أن المعركة القادمة أملهم الوحيد ، ولهذا فإنهم سوف يقدمون على أي شيء .

ثم يضغط الهامسون على ألفاظهم ويقولون:

استعدوا.

ثم يهمس أحدهم همسات مرتجفة ويقول:

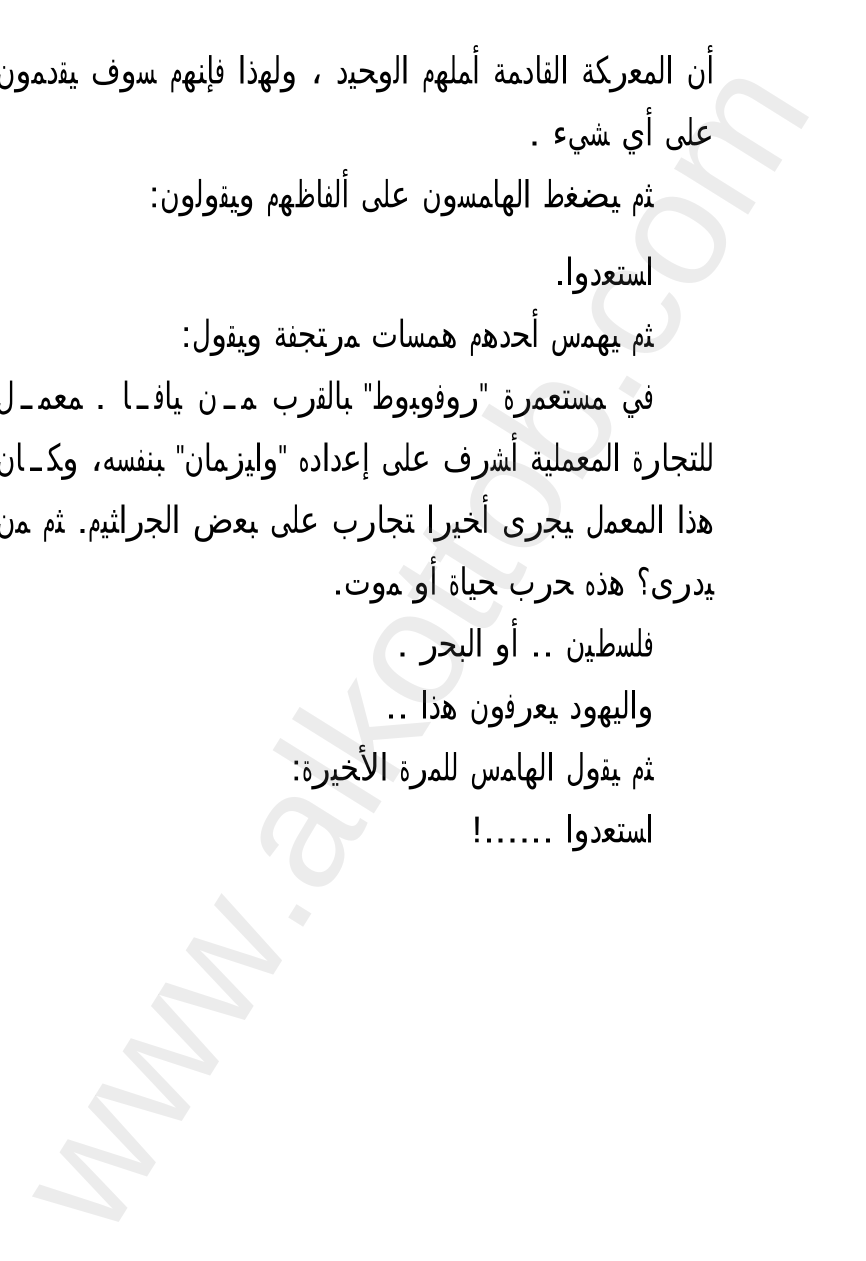
في مستعمرة "روفوبوط" بالقرب مـن يافـا . معمـل للتجارة المعملية أشرف على إعداده "وايزمان" بنفسه، وكـان هذا المعمل يجرى أخيرا تجارب على بعض الجراثيم. ثم من يدرى؟ هذه حرب حياة أو موت.

فلسطين .. أو البحر .

واليهود يعرفون هذا ..

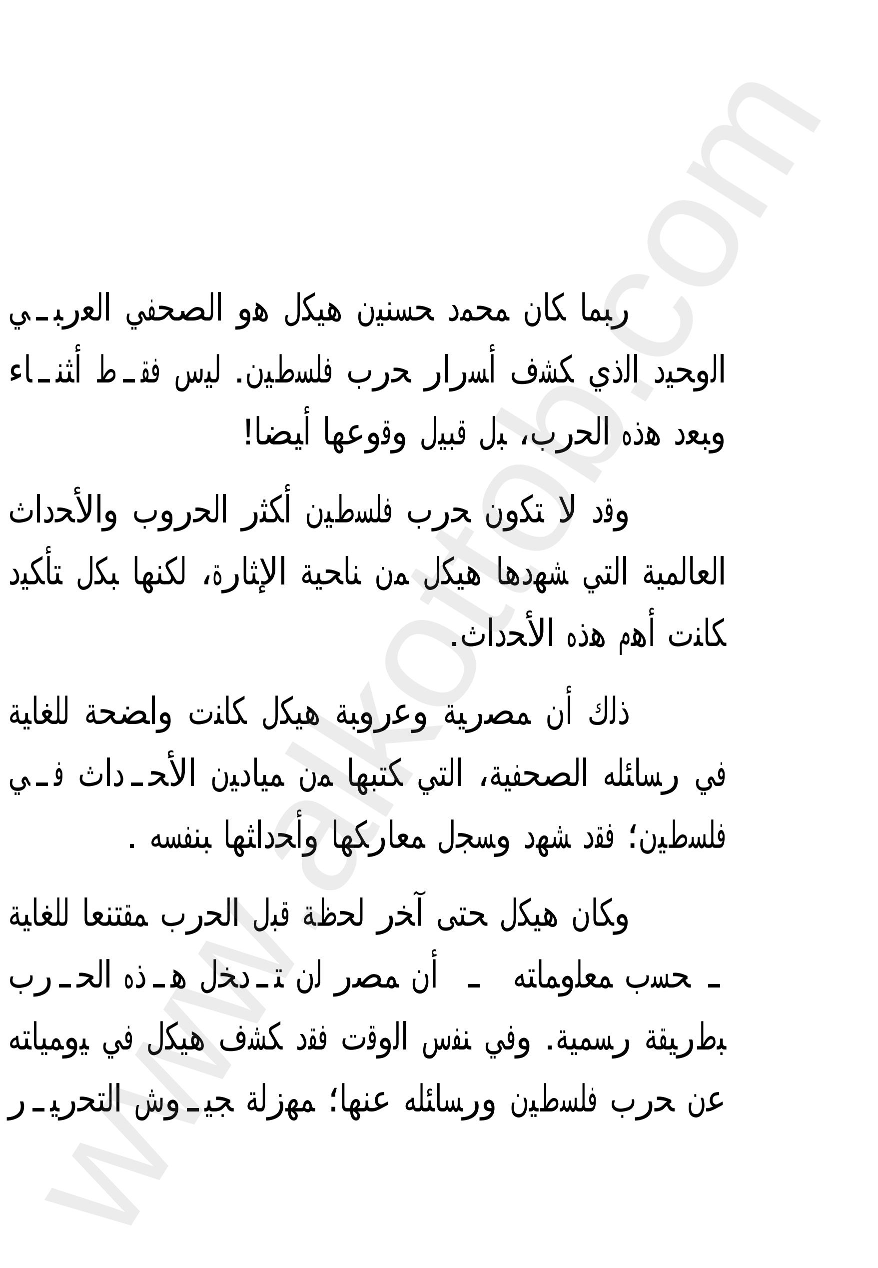
ثم يقول الهامس للمرة الأخيرة:

استعدوا ......!



الفصل الثالث

الجيش .. للجنازات وقمع المظاهرات!

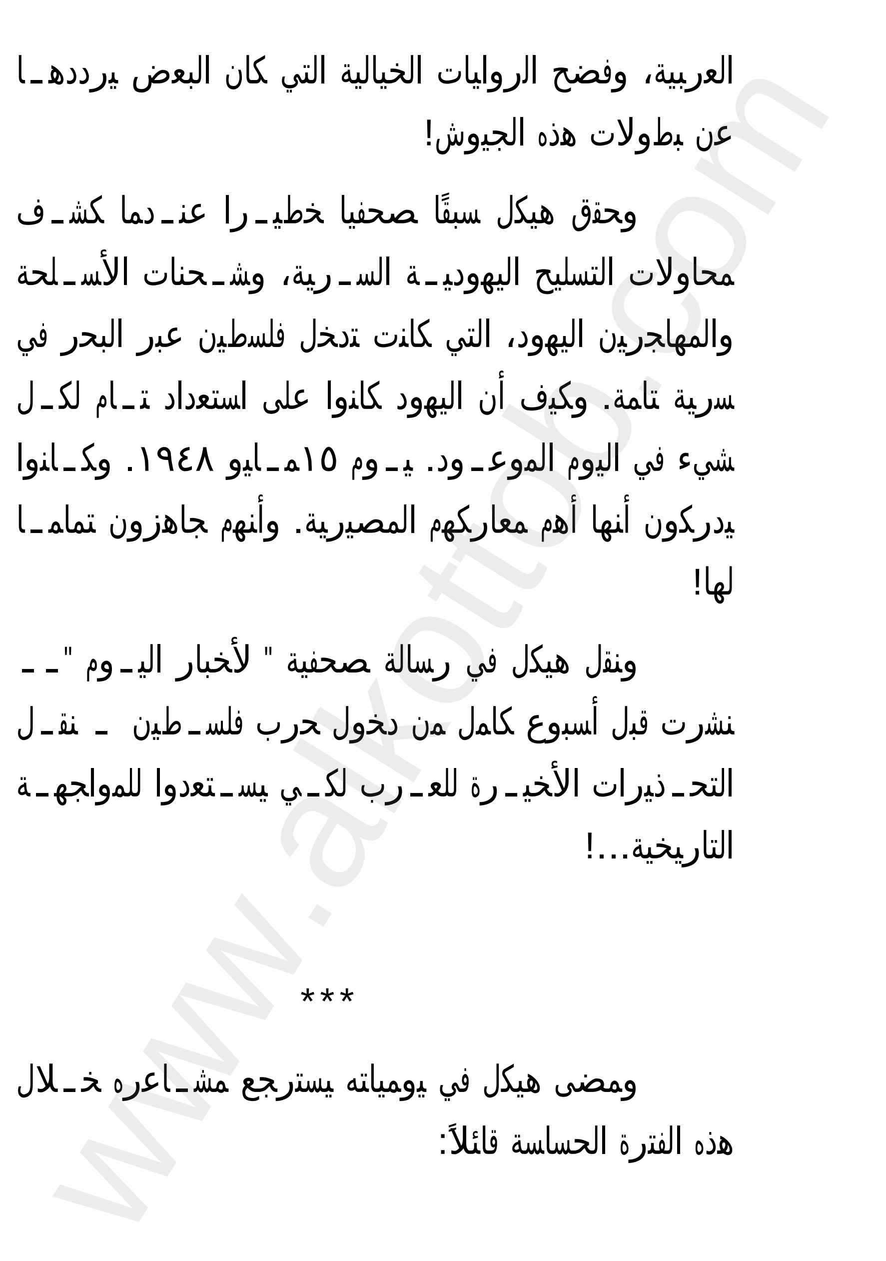


ربما كان محمد حسنين هيكل هو الصحفي العربـي الوحيد الذي كشف أسرار حرب فلسطين. ليس فقـط أثنـاء وبعد هذه الحرب، بل قبيل وقوعها أيضا!

وقد لا تكون حرب فلسطين أكثر الحروب والأحداث العالمية التي شهدها هيكل من ناحية الإثارة، لكنها بكل تأكيد كانت أهم هذه الأحداث.

ذلك أن مصرية وعروبة هيكل كانت واضحة للغاية في رسائله الصحفية، التي كتبها من ميادين الأحـداث فـي فلسطين؛ فقد شهد وسجل معاركها وأحداثها بنفسه .

وكان هيكل حتى آخر لحظة قبل الحرب مقتنعا للغاية ـ حسب معلوماته ـ أن مصر لن تـدخل هـذه الحـرب بطريقة رسمية. وفي نفس الوقت فقد كشف هيكل في يومياته عن حرب فلسطين ورسائله عنها؛ مهزلة جيـوش التحريـر



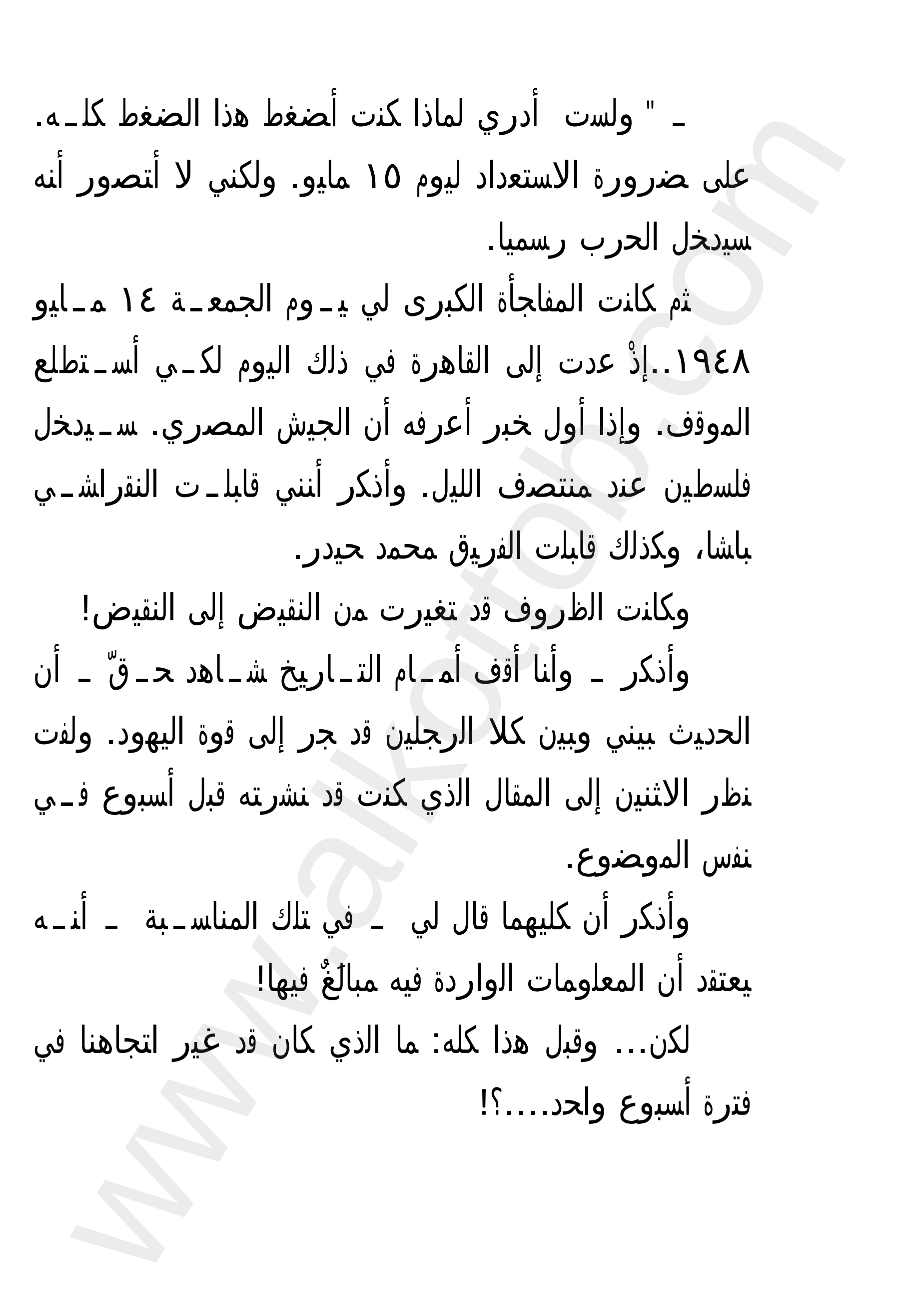
العربية، وفضح الروايات الخيالية التي كان البعض يرددهـا عن بطولات هذه الجيوش!

وحقق هيكل سبقًا صحفيا خطيـرا عنـدما كشـف محاولات التسليح اليهوديـة السـرية، وشـحنات الأسـلحة والمهاجرين اليهود، التي كانت تدخل فلسطين عبر البحر في سرية تامة. وكيف أن اليهود كانوا على استعداد تـام لكـل شيء في اليوم الموعـود. يـوم ١٥مـايو ١٩٤٨. وكـانوا يدركون أنها أهم معاركهم المصيرية. وأنهم جاهزون تمامـا لها!

ونقل هيكل في رسالة صحفية " لأخبار اليـوم "ـ ـ نشرت قبل أسبوع كامل من دخول حرب فلسـطين ـ نقـل التحـذيرات الأخيـرة للعـرب لكـي يسـتعدوا للمواجهـة التاريخية...!

***

ومضى هيكل في يومياته يسترجع مشـاعره خـلال هذه الفترة الحساسة قائلاً:



ـ " ولست أدري لماذا كنت أضغط هذا الضغط كلـه. على ضرورة الاستعداد ليوم ١٥ مايو. ولكني لا أتصور أنه سيدخل الحرب رسميا.

ثم كانت المفاجأة الكبرى لي يـوم الجمعـة ١٤ مـايو ١٩٤٨..إذْ عدت إلى القاهرة في ذلك اليوم لكـي أسـتطلع الموقف. وإذا أول خبر أعرفه أن الجيش المصري. سـيدخل فلسطين عند منتصف الليل. وأذكر أنني قابلـت النقراشـي باشا، وكذلك قابلت الفريق محمد حيدر.

وكانت الظروف قد تغيرت من النقيض إلى النقيض!

وأذكر ـ وأنا أقف أمـام التـاريخ شـاهد حـقّ ـ أن الحديث بيني وبين كلا الرجلين قد جر إلى قوة اليهود. ولفت نظر الاثنين إلى المقال الذي كنت قد نشرته قبل أسبوع فـي نفس الموضوع.

وأذكر أن كليهما قال لي ـ في تلك المناسـبة ـ أنـه يعتقد أن المعلومات الواردة فيه مبالَغٌ فيها!

لكن... وقبل هذا كله: ما الذي كان قد غير اتجاهنا في فترة أسبوع واحد....؟!

لقد كان رئيس وزراء مصر ـ قبل أسـبوع واحـد ـ يصر على أنه لن يعرض الجيش المصري، الذي يعتمد عليه في نظرية ملء الفراغ من قناة السويس، لأية مخاطرة؟!

لماذا تغير الاتجاه .. وماذا حدث؟

هل وثقنا أن الأمر ليس مخاطرة؟

هل أعددنا للأمر عدته؟

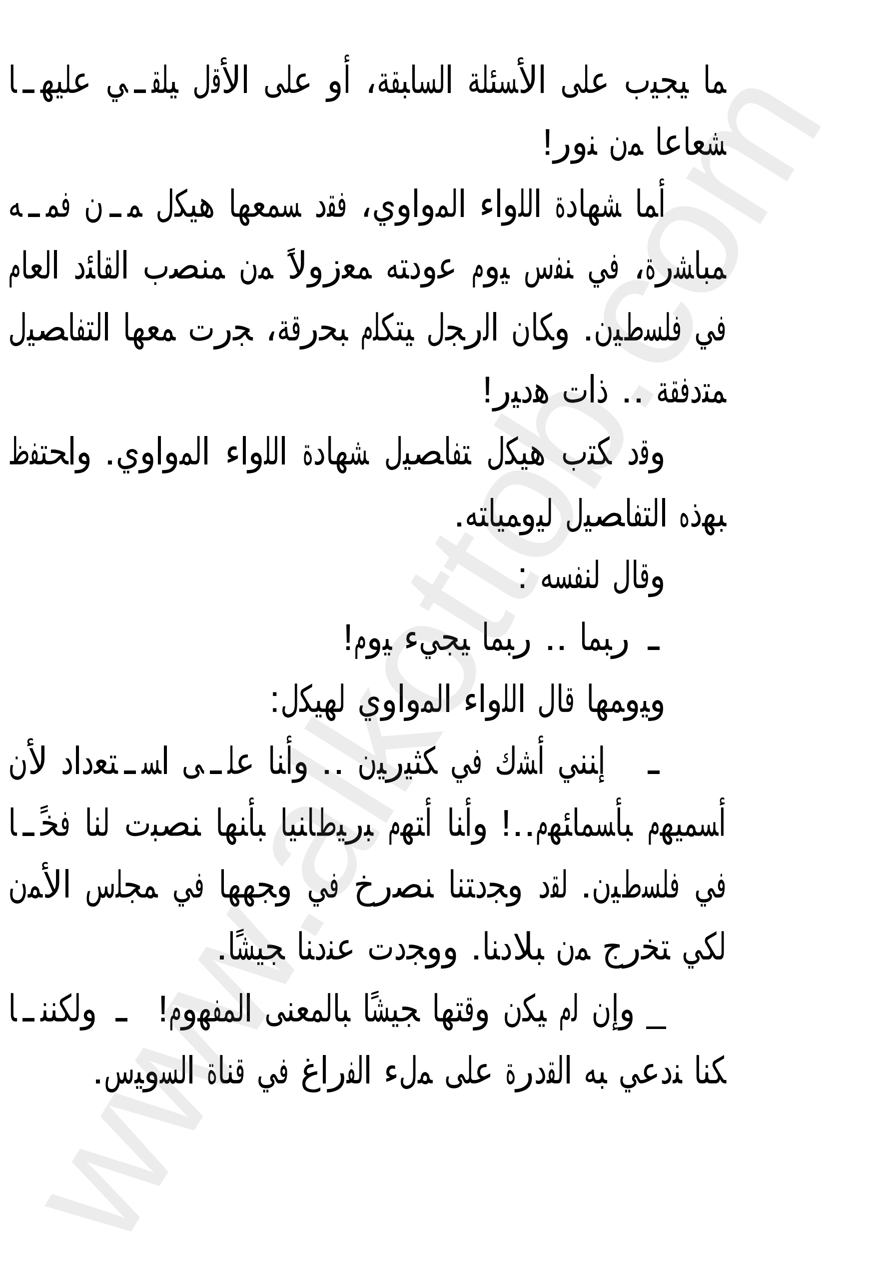
هل دخلنا الحرب متأهبين لكل احتمالاتها؟

ما الذي جرى؟

وهنا أترك مكاني .. مكان شاهد الحق أمـام التـاريخ لشاهدٍ آخر، يستطيع أن يتكلم عن ثقة وعن تجربة. والشاهد هو اللواء أحمد محمد المواوي. أول قائد مصـري لحملـة فلسطين!

***

ويعترف هيكل في يومياته بأنه لم يكن يهمه الدور الذي قام به اللواء المواوي في معركة فلسطين؛ وإنما كانت تهمـه شهادته عن فترة ما قبل المعركة مباشرة، لأن في هذه الفترة



ما يجيب على الأسئلة السابقة، أو على الأقل يلقـي عليهـا شعاعا من نور!

أما شهادة اللواء المواوي، فقد سمعها هيكل مـن فمـه مباشرة، في نفس يوم عودته معزولاً من منصب القائد العام في فلسطين. وكان الرجل يتكلم بحرقة، جرت معها التفاصيل متدفقة .. ذات هدير!

وقد كتب هيكل تفاصيل شهادة اللواء المواوي. واحتفظ بهذه التفاصيل ليومياته.

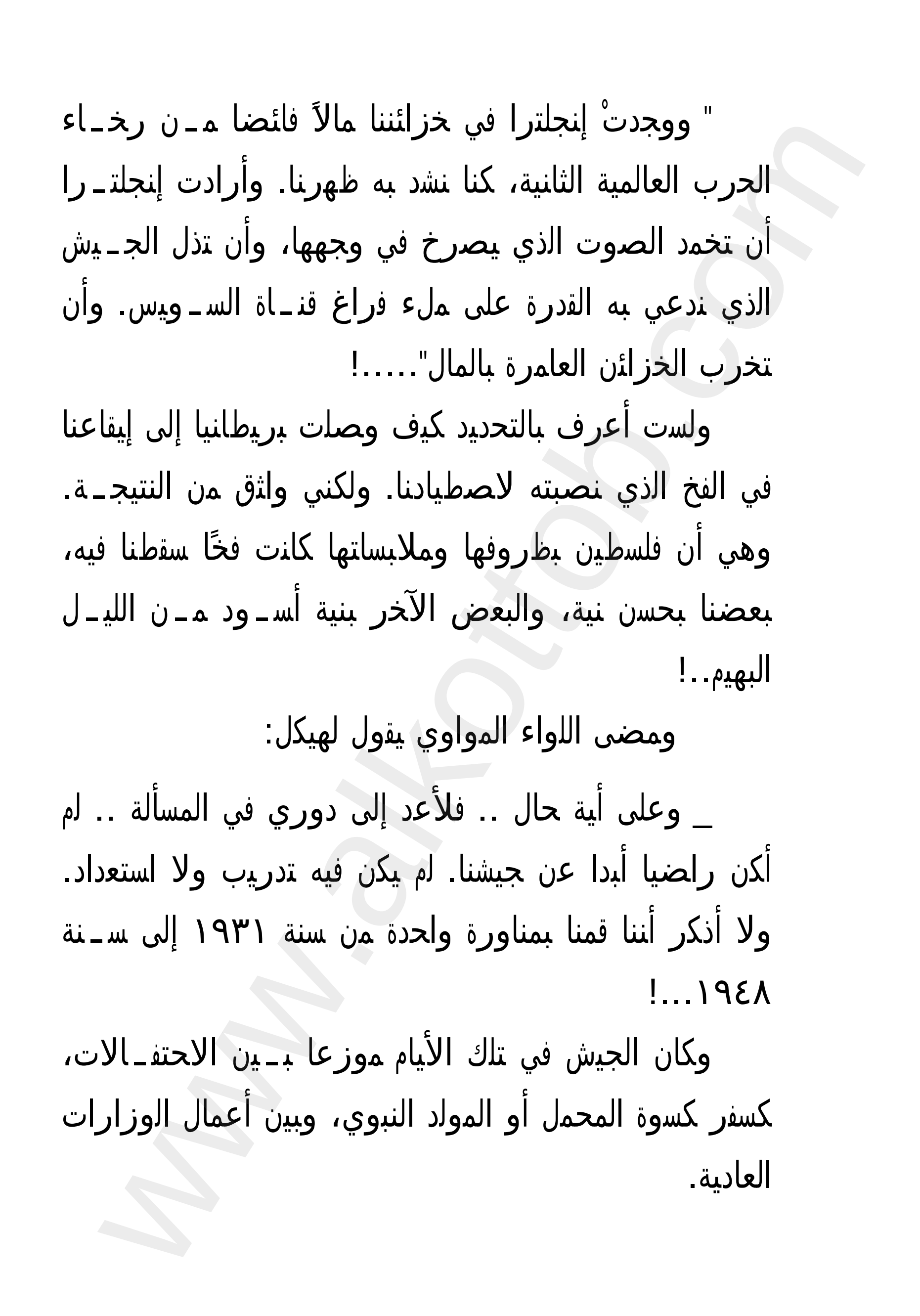
وقال لنفسه :

ـ ربما .. ربما يجيء يوم!

ويومها قال اللواء المواوي لهيكل:

ـ إنني أشك في كثيرين .. وأنا علـى اسـتعداد لأن أسميهم بأسمائهم..! وأنا أتهم بريطانيا بأنها نصبت لنا فخًـا في فلسطين. لقد وجدتنا نصرخ في وجهها في مجلس الأمن لكي تخرج من بلادنا. ووجدت عندنا جيشًا.

_ وإن لم يكن وقتها جيشًا بالمعنى المفهوم! ـ ولكننـا كنا ندعي به القدرة على ملء الفراغ في قناة السويس.



" ووجدتْ إنجلترا في خزائننا مالاً فائضا مـن رخـاء الحرب العالمية الثانية، كنا نشد به ظهرنا. وأرادت إنجلتـرا أن تخمد الصوت الذي يصرخ في وجهها، وأن تذل الجـيش الذي ندعي به القدرة على ملء فراغ قنـاة السـويس. وأن تخرب الخزائن العامرة بالمال".....!

ولست أعرف بالتحديد كيف وصلت بريطانيا إلى إيقاعنا في الفخ الذي نصبته لاصطيادنا. ولكني واثق من النتيجـة. وهي أن فلسطين بظروفها وملابساتها كانت فخًا سقطنا فيه، بعضنا بحسن نية، والبعض الآخر بنية أسـود مـن الليـل البهيم..!

ومضى اللواء المواوي يقول لهيكل:

_ وعلى أية حال .. فلأعد إلى دوري في المسألة .. لم أكن راضيا أبدا عن جيشنا. لم يكن فيه تدريب ولا استعداد. ولا أذكر أننا قمنا بمناورة واحدة من سنة ١٩٣١ إلى سـنة ١٩٤٨...!

وكان الجيش في تلك الأيام موزعا بـين الاحتفـالات، كسفر كسوة المحمل أو المولد النبوي، وبين أعمال الوزارات العادية.

وزارة المالية مثلاً كانت تستعير مـن الجـيش فرقـة للحراسة..! ووزارة الصحة تستعير بعض أفـراد فرقـة لمقاومة الفيضانات...!

ووزارة الصحة تستعير بعض فرق الجـيش لمكافحـة الجراد...!

ووزارة الصحة كانت تستعير فرقًا مـن الجـيش فـي الحرب ضد الأوبئة مثل الكوليرا ...!

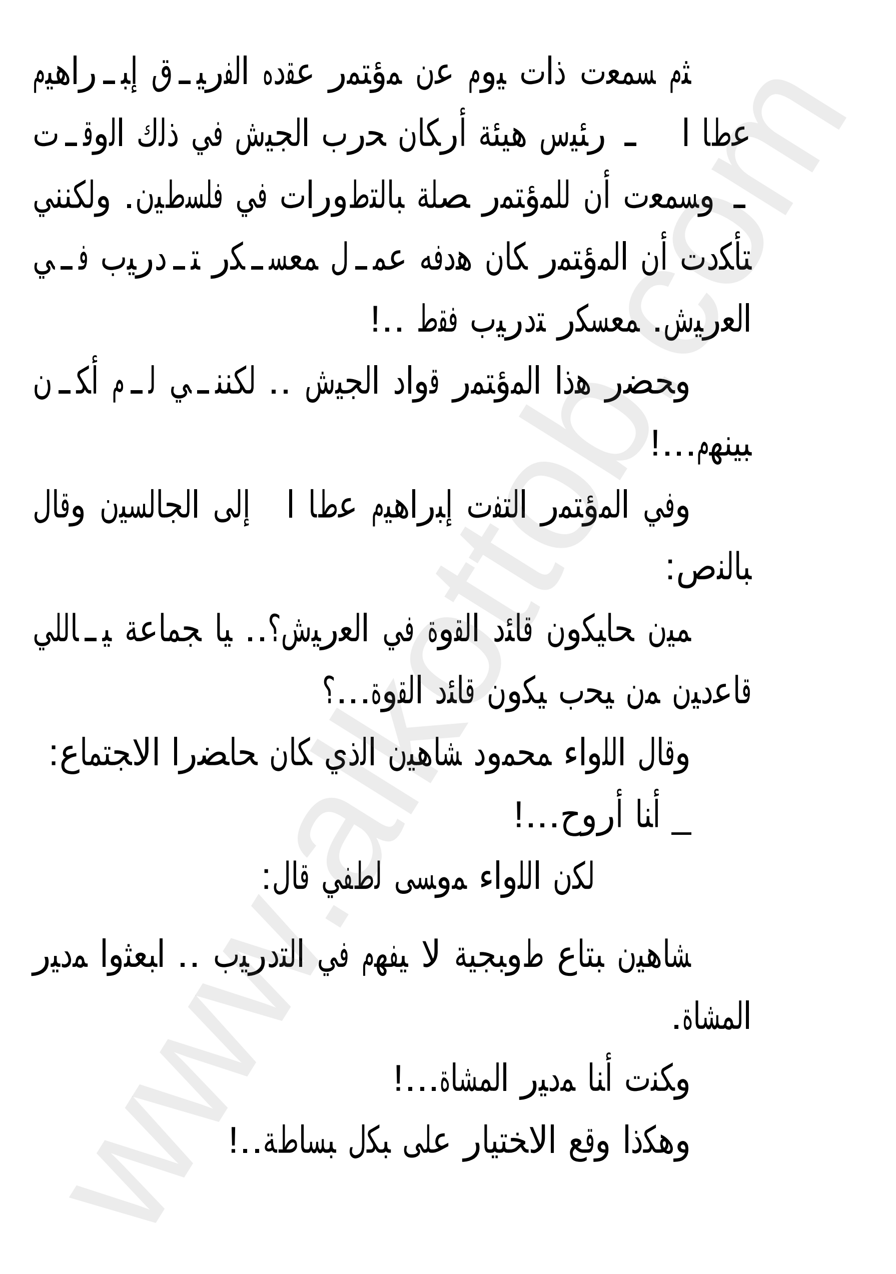
ووزارة الداخلية كانت تستعير بعض فرق الجيش لحفظ النظام وقمع المظاهرات .....!

هكذا تحول الجيش إلى أداة مدنية...!

وكاد يفقد تماما الروح العسكرية...!

وفي سبتمبر ١٩٤٧ قرأت في الصحف عن المناقشـات الدائرة حول التقسيم. وسمعت كلاما كثيرا عن استعداد الدول العربية وجهودها ضد التقسيم ولو بالقوة..!

لكن لم أتخيل أن الظروف قد تتطور إلى ما تطـورت إليه فعلاً. ولم أدرك أيضا أنه سيكون لي أي دور في هـذه التطورات!



ثم سمعت ذات يوم عن مؤتمر عقده الفريـق إبـراهيم عطا الله ـ رئيس هيئة أركان حرب الجيش في ذلك الوقـت ـ وسمعت أن للمؤتمر صلة بالتطورات في فلسطين. ولكنني تأكدت أن المؤتمر كان هدفه عمـل معسـكر تـدريب فـي العريش. معسكر تدريب فقط ..!

وحضر هذا المؤتمر قواد الجيش .. لكننـي لـم أكـن بينهم...!

وفي المؤتمر التفت إبراهيم عطا الله إلى الجالسين وقال بالنص:

مين حايكون قائد القوة في العريش؟.. يا جماعة يـاللي قاعدين من يحب يكون قائد القوة...؟

وقال اللواء محمود شاهين الذي كان حاضرا الاجتماع:

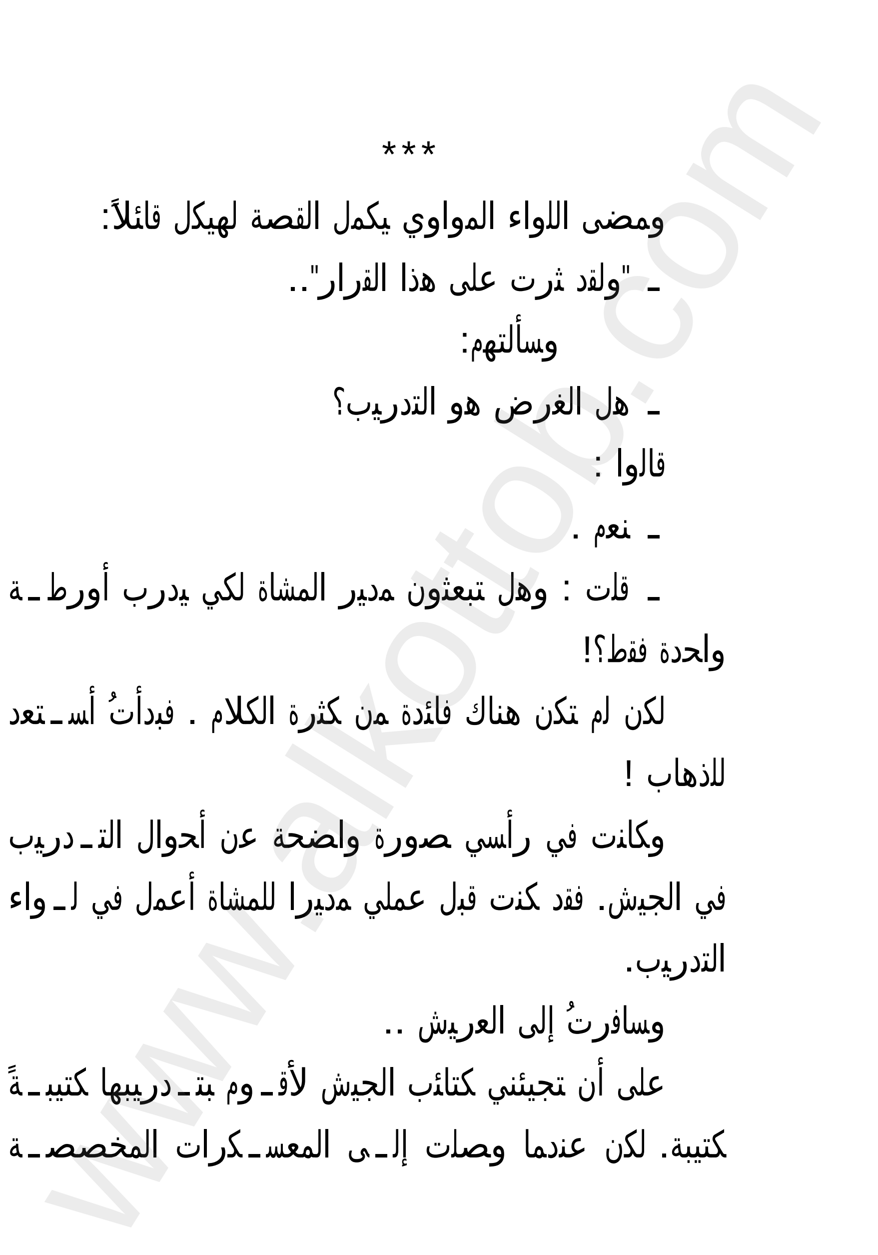
_ أنا أروح...!

لكن اللواء موسى لطفي قال:

شاهين بتاع طوبجية لا يفهم في التدريب .. ابعثوا مدير المشاة.

وكنت أنا مدير المشاة...!

وهكذا وقع الاختيار على بكل بساطة..!



***

ومضى اللواء المواوي يكمل القصة لهيكل قائلاً:

ـ "ولقد ثرت على هذا القرار"..

وسألتهم:

ـ هل الغرض هو التدريب؟

قالوا :

ـ نعم .

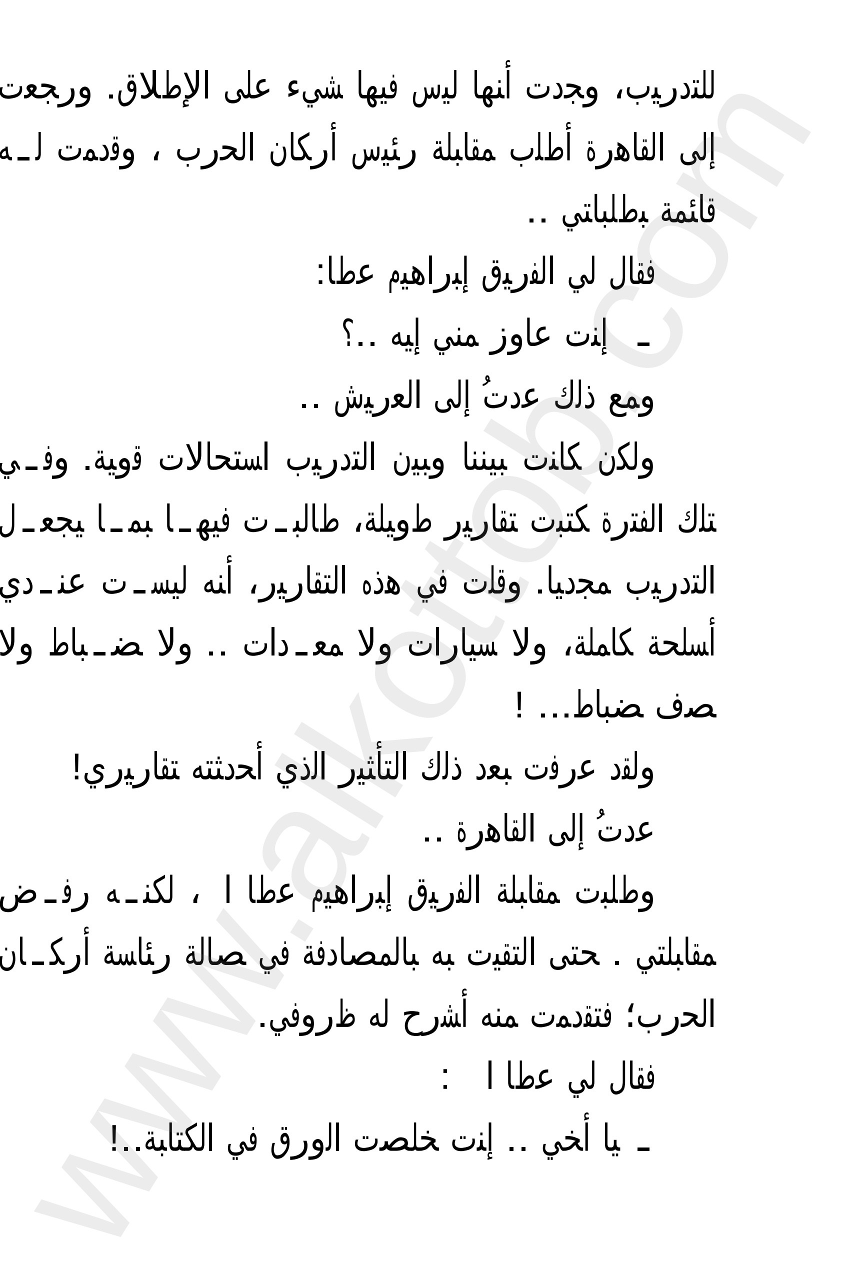
ـ قلت : وهل تبعثون مدير المشاة لكي يدرب أورطـة واحدة فقط؟!

لكن لم تكن هناك فائدة من كثرة الكلام . فبدأتُ أسـتعد للذهاب !

وكانت في رأسي صورة واضحة عن أحوال التـدريب في الجيش. فقد كنت قبل عملي مديرا للمشاة أعمل في لـواء التدريب.

وسافرتُ إلى العريش ..

على أن تجيئني كتائب الجيش لأقـوم بتـدريبها كتيبـةً كتيبة. لكن عندما وصلت إلـى المعسـكرات المخصصـة



للتدريب، وجدت أنها ليس فيها شيء على الإطلاق. ورجعت إلى القاهرة أطلب مقابلة رئيس أركان الحرب ، وقدمت لـه قائمة بطلباتي ..

فقال لي الفريق إبراهيم عطا:

- إنت عاوز مني إيه ..؟

ومع ذلك عدتُ إلى العريش ..

ولكن كانت بيننا وبين التدريب استحالات قوية. وفـي تلك الفترة كتبت تقارير طويلة، طالبـت فيهـا بمـا يجعـل التدريب مجديا. وقلت في هذه التقارير، أنه ليسـت عنـدي أسلحة كاملة، ولا سيارات ولا معـدات .. ولا ضـباط ولا صف ضباط... !

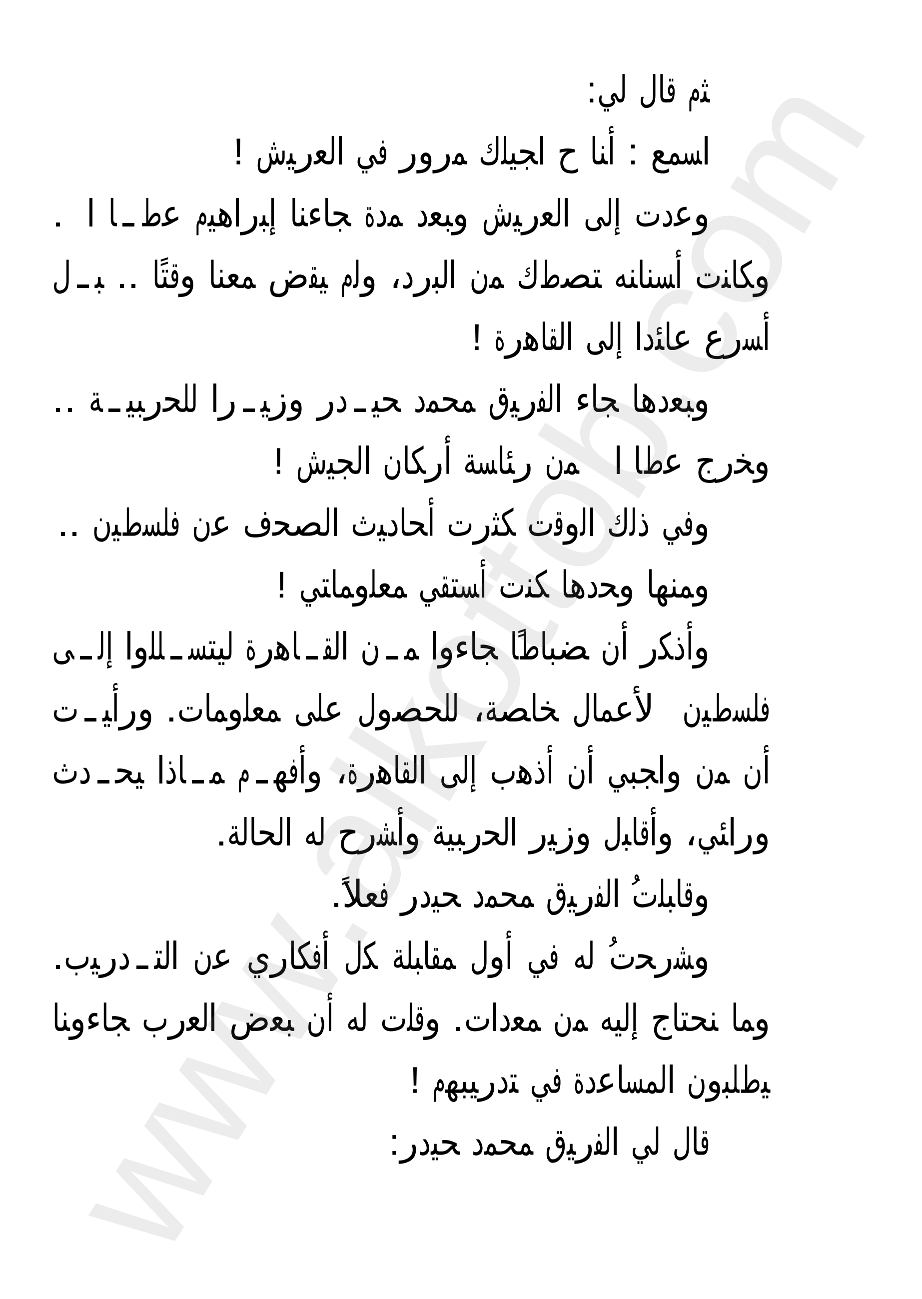
ولقد عرفت بعد ذلك التأثير الذي أحدثته تقاريري!

عدتُ إلى القاهرة ..

وطلبت مقابلة الفريق إبراهيم عطا ا ، لكنـه رفـض مقابلتي . حتى التقيت به بالمصادفة في صالة رئاسة أركـان الحرب؛ فتقدمت منه أشرح له ظروفي.

فقال لي عطا ا :

- يا أخي .. إنت خلصت الورق في الكتابة..!



ثم قال لي:

اسمع : أنا ح اجيلك مرور في العريش !

وعدت إلى العريش وبعد مدة جاءنا إبراهيم عطـا ا .

وكانت أسنانه تصطك من البرد، ولم يقض معنا وقتًا .. بـل أسرع عائدا إلى القاهرة !

وبعدها جاء الفريق محمد حيـدر وزيـرا للحربيـة .. وخرج عطا ا من رئاسة أركان الجيش !

وفي ذلك الوقت كثرت أحاديث الصحف عن فلسطين ..

ومنها وحدها كنت أستقي معلوماتي !

وأذكر أن ضباطًا جاءوا مـن القـاهرة ليتسـللوا إلـى فلسطين لأعمال خاصة، للحصول على معلومات. ورأيـت أن من واجبي أن أذهب إلى القاهرة، وأفهـم مـاذا يحـدث ورائي، وأقابل وزير الحربية وأشرح له الحالة.

وقابلتُ الفريق محمد حيدر فعلاً.

وشرحتُ له في أول مقابلة كل أفكاري عن التـدريب. وما نحتاج إليه من معدات. وقلت له أن بعض العرب جاءونا يطلبون المساعدة في تدريبهم !

قال لي الفريق محمد حيدر:

بعدين أقول لك!

***

وواصل اللواء المواوي حكايته المؤسفة أمام هيكـل قائلاً:

" وبعدها زارنا حيدر في العريش. وبدأ يحاول تكملـة النقص عندنا. وفي ذلك الوقت اصطدمت بمشـكلة أخـرى. وهي مشكلة قواد الكتائب الذين لا يريدون أن يعملوا "!

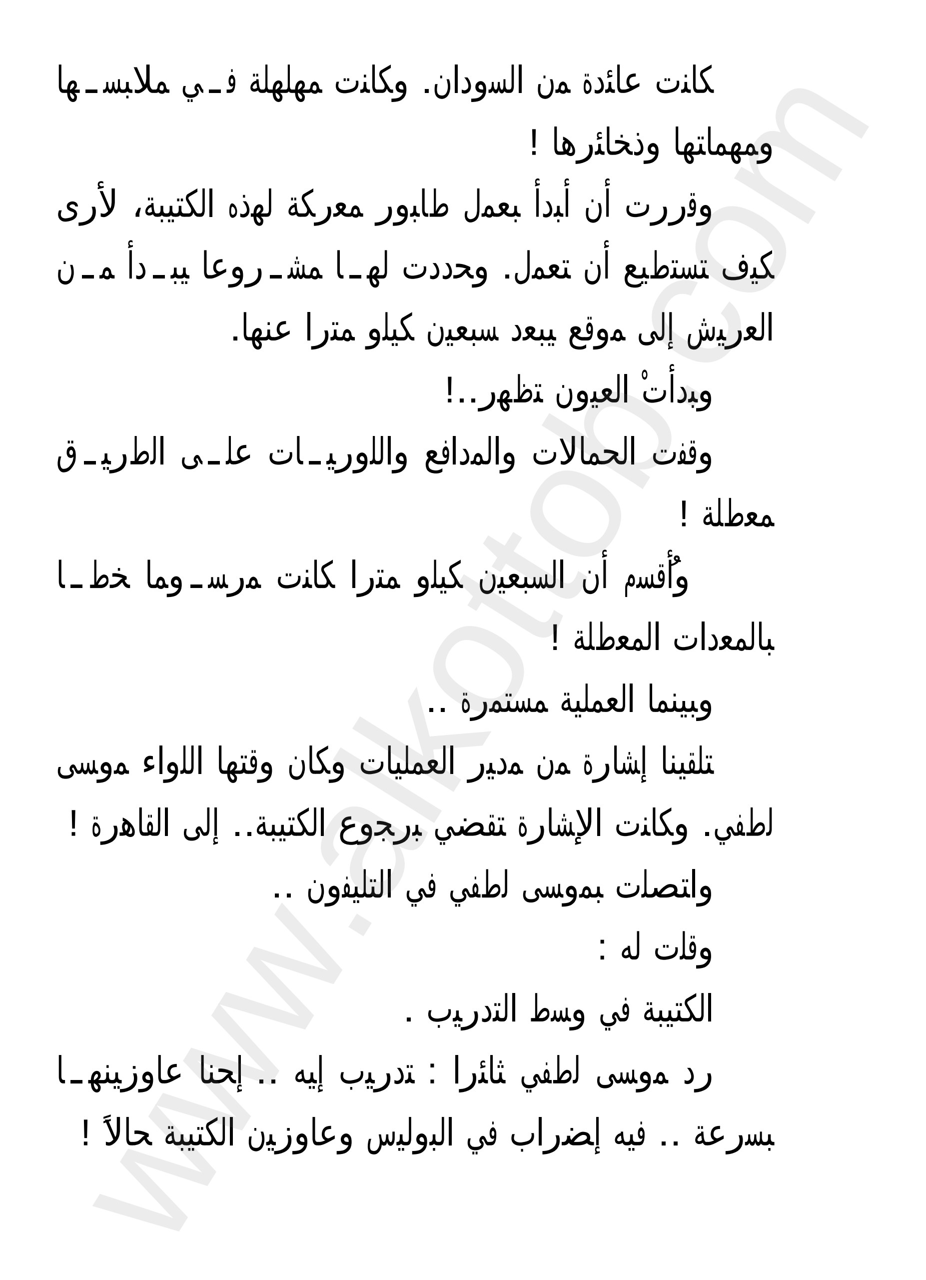
كان من رأيي أن تبقى كل كتيبة في معسكر التـدريب ستة شهور. ولكن قواد الكتائب لم يعجبهم أن يبقـى الواحـد منهم ستة شهور متصلة في العريش...!

وأذكر أنه في ذلك الوقت جاءتني الكتيبة التاسـعة. أول كتيبة كان على تدريبها. ولم تقض الكتيبة فـي التـدريب إلا ثلاثة شهور فقط ثم نُقلت عائدة إلى مصر..!

ثم علمت بعد ذلك أن هذه الكتيبة أصبحت كتيبـة أمـن عام. وأنها وضعت في "هايكستيب" .. لمقاومة مظـاهرات الطلبة..!

ثم جاءتني الكتيبة السادسة ..

وكانت في حالة يرثى لها..!



كانت عائدة من السودان. وكانت مهلهلة فـي ملابسـها ومهماتها وذخائرها !

وقررت أن أبدأ بعمل طابور معركة لهذه الكتيبة، لأرى كيف تستطيع أن تعمل. وحددت لهـا مشـروعا يبـدأ مـن العريش إلى موقع يبعد سبعين كيلو مترا عنها.

وبدأتْ العيون تظهر..!

وقفت الحمالات والمدافع واللوريـات علـى الطريـق معطلة !

وأُقسم أن السبعين كيلو مترا كانت مرسـوما خطـا بالمعدات المعطلة !

وبينما العملية مستمرة ..

تلقينا إشارة من مدير العمليات وكان وقتها اللواء موسى لطفي. وكانت الإشارة تقضي برجوع الكتيبة.. إلى القاهرة !

واتصلت بموسى لطفي في التليفون ..

وقلت له :

الكتيبة في وسط التدريب .

رد موسى لطفي ثائرا : تدريب إيه .. إحنا عاوزينهـا بسرعة .. فيه إضراب في البوليس وعاوزين الكتيبة حالاً !

استعدتْ الكتيبة للعودة إلى القاهرة بسرعة ..

وبينما هي في الطريـق .. انتهـت أزمـة إضـراب البوليس.. !

وهكذا ..

وجدتُ أنه لا عمل لي في معسكر التدريب، فعدتُ إلـى القاهرة أحاول أن أفهم ما يجري!

وكتبت أكثر من مائة خطاب سرى أسأل فيه مـا هـو الغرض؟

- قالوا لي : التدريب !

- قلت : هذا كلام غير معقول .

- أخيرا قالوا لي : سوف نسأل الجهات المختصة !

ثم عقد بعد ذلك مؤتمر .

- وقالوا لي فيه :

ـ إيه طلباتك؟

قلت : لا أستطيع أن أحدد طلباتي .. إلا إذا قلتم لي مـا هو طلبكم؟

وبعد مناقشات ومداورات ..

قالوا لي :

ـ هل تذكر تقريرك السابق؟ لقد كنت تطلب المعـدات لتدريب كتيبة . سوف تنفذ لك طلباتك في هذا التقرير !

***

هكذا شرح اللواء المواوي لهيكل مهزلة حـال الجـيش المصري قبل أيام، أو أسابيع، من دخوله حرب فلسطين ..

ومضى ينهي قصته قائلاً:

"وجاء يوم ١٠ مايو ١٩٤٨"..

كنت في العريش وتلقيت برقية تطلب حضوري بسرعة إلى القاهرة. ودعيتُ لمقابلة الفريق محمد حيدر

الذي سألني :

ـ إيه الحالة عندك؟

قلت : سيئة للغاية !

قال : سوف نضطر لدخول حرب في فلسطين !

قلت له : الوحدات غير مدربة .

فقد كنت مسئولاً عن التدريب فـي الجـيش وأن أعلـم حاله. وكنت قائدا لسلاح المشاة وأنا أعلم أننا غير مسـتعدين إطلاقًا.

وسكتَ حيدر بعض الوقت ..

ثم قال لي:

ـ اسمع يا مواوى .. دولة النقراشي باشـا جـاي يحضر اجتماع في رياسة الجيش. تعالَ معي وقل له هذا الكلام.

وذهبت إلى الاجتماع ..

وجلست أمام النقراشي أروى له معلوماتي بصراحة.

وقال لي النقراشي :

ـ موقفنا بين الدول العربية يحتم علينا الدخول !

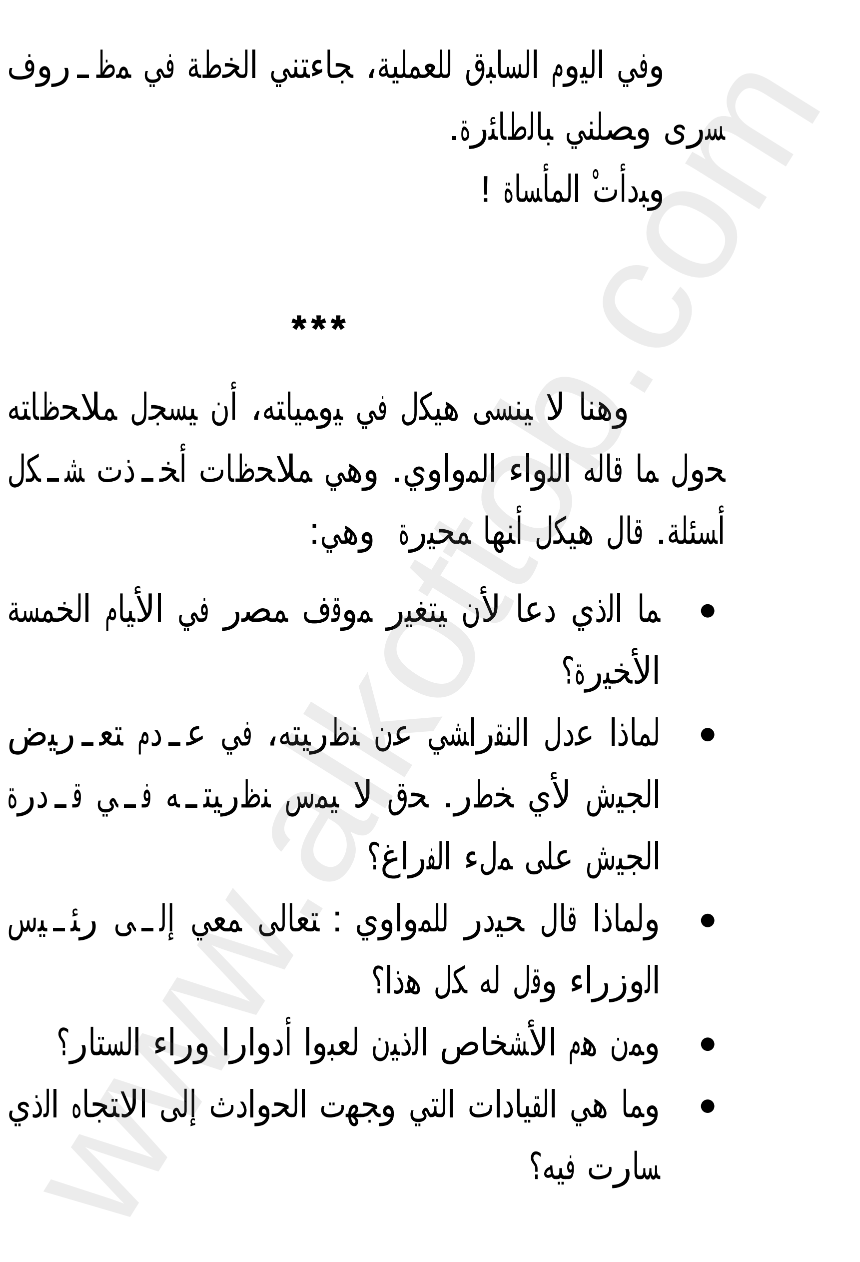
ثم تكلم طويلاً ....

وكان أبرز ما قاله، أنه رحمه ا تصور أنني خـائف من العملية. وقال إنه يعتقد أن المسألة سوف تسوى سياسـيا بسرعة. وأن الأمم المتحدة سوف تتدخل. وأن الاشـتباكات ستكون مجرد مظاهرة سياسية. وليست عملاً حربيا !

وكتبتُ تقريرا رسميا بكل آرائي ..

ثم أطعتُ الأوامر الصادرة لي بالسفر ..

وركبتُ الطائرة إلى العريش.



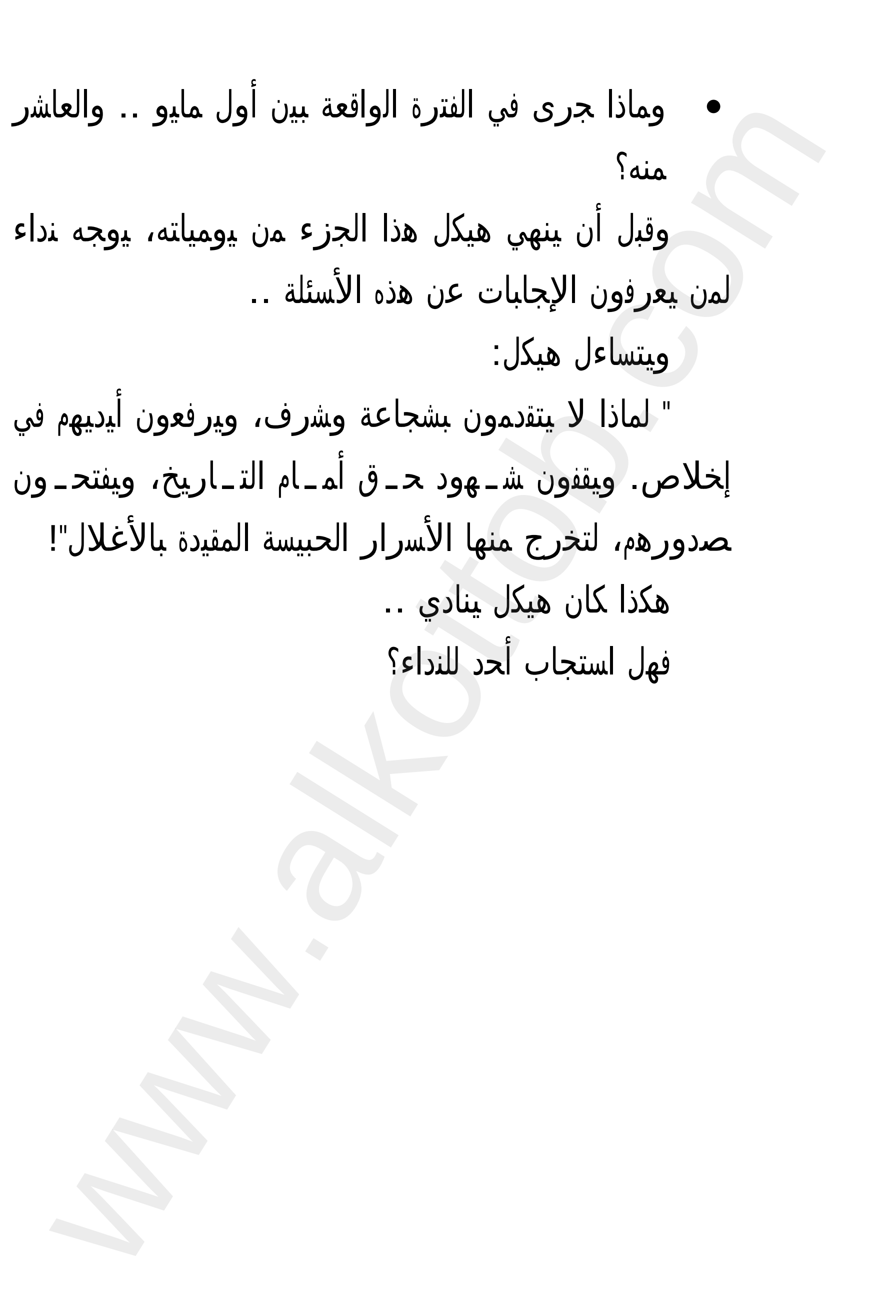
وفي اليوم السابق للعملية، جاءتني الخطة في مظـروف سرى وصلني بالطائرة.

وبدأتْ المأساة !

***

وهنا لا ينسى هيكل في يومياته، أن يسجل ملاحظاته حول ما قاله اللواء المواوي. وهي ملاحظات أخـذت شـكل أسئلة. قال هيكل أنها محيرة وهي:

- ما الذي دعا لأن يتغير موقف مصر في الأيام الخمسة الأخيرة؟
- لماذا عدل النقراشي عن نظريته، في عـدم تعـريض الجيش لأي خطر. حق لا يمس نظريتـه فـي قـدرة الجيش على ملء الفراغ؟
- ولماذا قال حيدر للمواوي : تعالى معي إلـى رئـيس الوزراء وقل له كل هذا؟
- ومن هم الأشخاص الذين لعبوا أدوارا وراء الستار؟
- وما هي القيادات التي وجهت الحوادث إلى الاتجاه الذي سارت فيه؟



- ومـاذا جرى في الفترة الواقعة بين أول مايو .. والعاشر منه؟

وقبل أن ينهي هيكل هذا الجزء من يومياته، يوجه نداء لمن يعرفون الإجابات عن هذه الأسئلة ..

ويتساءل هيكل:

" لماذا لا يتقدمون بشجاعة وشرف، ويرفعون أيديهم في إخلاص. ويقفون شـهود حـق أمـام التـاريخ، ويفتحـون صدورهم، لتخرج منها الأسرار الحبيسة المقيدة بالأغلال"!

هكذا كان هيكل ينادي ..

فهل استجاب أحد للنداء؟

الفصل الرابع

سلاح مصر إلى فلسطين .. سرقوه في الطريق!

لماذا عاد الكاتب الصحفي الكبير محمد حسنين هيكـل بعد مرور خمس سنوات على حرب فلسطين ١٩٤٨، ليكتب من جديد يوميات عنها. رغم أنه قبل وأثنـاء وبعـد هـذه الحرب، كان مراسلاً عسكريا "لأخبار اليوم"، وعاش تفاصيل الحرب، وكتب عنها رسائل صحفية تاريخية؟

في يومياته نفسها ..

يجيب هيكل على هذا السؤال ..

ويقول :

"كانت قد مضت خمس سنوات كاملـة علـى حـرب فلسطين .. خمس سنوات طويلـة .. حافلـة .. مثيـرة .. وظهرت أسرار كثيرة كانت غامضة .. وانطلقـت حقـائق رهيبة كانت مقيدة . وبانت جوانب مختلفة للصورة .. كانت الظلال تسقط عليها، فلا يبدو منها إلا الظلام !"

وقال هيكل في بداية يومياته:

" وأنا أشعر بعد هذا الزمن والأحداث، أنني أستطيع أن أقف شاهد حق أمام التاريخ ، لأروى القصة كمـا رأيتهـا،

وكما عشتها، وكما أحسست بها .. بلا رقابة وبلا قيـود ولا ظلمات !

وأشعر أنني الآن أستطيع أن أرويها، بعـد أن تخلـص عقلي من ظروف الزمان والمكان ، زمان فلسطين ومكانها".

"كيف عشت مشكلة فلسطين .. وكيف رأيـت المعاقـل العربية تسقط واحدة بعد الأخرى، وكيف انهارت المقاومـة العربية، وكيف كنت أعرف أن مصر لن تدخل حربا رسمية في فلسطين"..

.. وكيف استعد اليهود لليوم الفاصل !

***

وحين طالب هيكل في يومياته، بأن يتقدم شهود الحـق على هذه الحرب، للإدلاء بشهاداتهم أمـام التـاريخ، كـان بالتأكيد يعلم من هم شهود الحق هؤلاء، وكان أولهـم مـن وجهة نظر هيكل محمود فهمـي النقراشـي رئـيس وزراء مصر، والذي كان لديه السر الكبير. لماذا وكيف تغير موقف مصر من النقيض إلى النقيض؟!

لكن النقراشي .. كان قد مات ورحل عن الحياة !

يقول هيكل في يومياته:

" وأنا آسف على أن شاهد الحق الأول الذي كان يجب أن يقف أمام التاريخ، ويفتح صدره، ويطلعنا الأسرار الحبيسة فيه، لا يستطيع اليوم أن يتكلم"!

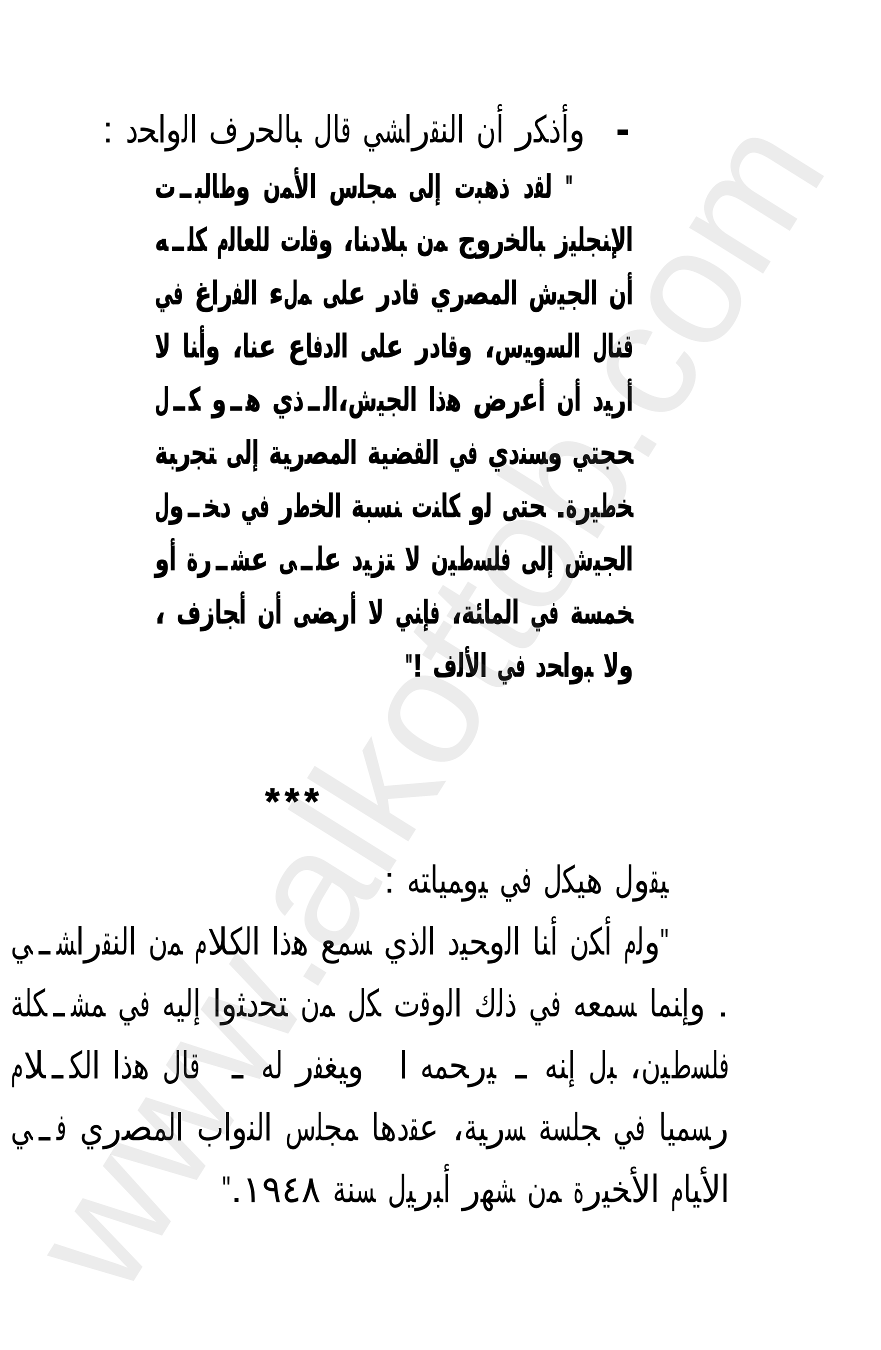
لقد ذهب الرجل الذي يستطيع - أكثر من غيره - أن يروى القصة كاملة، وأن يلقي بعض النور على الأحداث الرهيبة، التي وقعت في الأيام القليلة السابقة، على دخول الجيش المصري إلى حرب فلسطين...!

ولسوف يظل موقف هذا الرجل ـ محمود فهمي النقراشي ـ لغزا كبيرا ...!

ولن يجدي التاريخ ـ ولا النقراشي ـ حماسة المتحمسين للرجل.!

والعجيب أنه هو نفسه ـ قبل غيره ـ كان صاحب نظرية عدم دخول مصر حربا رسمية في فلسطين، وكانت حججه في ذلك واضحة قاطعة، تنم في صميمها عن اقتناع الرجل بها !

أذكر أنني سمعته يتكلم أكثر من مرة في هذا الموضوع ..



- وأذكر أن النقراشي قال بالحرف الواحد :

" لقد ذهبت إلى مجلس الأمن وطالبت الإنجليز بالخروج من بلادنا، وقلت للعالم كله أن الجيش المصري قادر على ملء الفراغ في قنال السويس، وقادر على الدفاع عنا، وأنا لا أريد أن أعرض هذا الجيش،الذي هو كل حجتي وسندي في القضية المصرية إلى تجربة خطيرة. حتى لو كانت نسبة الخطر في دخول الجيش إلى فلسطين لا تزيد على عشرة أو خمسة في المائة، فإني لا أرضى أن أجازف ، ولا بواحد في الألف !"

***

يقول هيكل في يومياته :

"ولم أكن أنا الوحيد الذي سمع هذا الكلام من النقراشي . وإنما سمعه في ذلك الوقت كل من تحدثوا إليه في مشكلة فلسطين، بل إنه ـ يرحمه ا ويغفر له ـ قال هذا الكلام رسميا في جلسة سرية، عقدها مجلس النواب المصري في الأيام الأخيرة من شهر أبريل سنة ١٩٤٨."

ومع ذلك فإن هذا الرجل نفسه، وبعد أيـام قليلـة مـن موقفه هذا، وقبل أيام قليلة من التاريخ الفاصـل (١٥ مـايو ١٩٤٨) قد غير اتجاهه!

من أقصى اليمين .. إلى أقصى اليسار..!

وأصبح فجأة متحمسا لدخول الجيش حربا رسمية فـي فلسطين، واقتنع فجأة بأن الأمر ليس فيه مجازفة، وأكثر من هذا مضى يدعو الناس إلى مشاركته في حماسته واقتناعه.

فما الذي حدث؟

إنني وأنا أقف شاهد حـق أمـام التـاريخ، أحـس أن النقراشي قد خُدع خديعة كبرى، وأنه ـ يرحمه ا ويغفر له ـ كان ضحية مؤامرة محبوكة الأطراف....!

ولكن... وأنا أقف شاهد حق أمام التاريخ ،لا أجد مفرا من أن أقول:

إن هذا كله لا يعفي النقراشي مـن المسـئولية أمـام التاريخ !

ولقد أصبحت أعتقد الآن، أن الصورة الحقيقية للموقف، لم تكن واضحة في خياله، بل إن بعض القوى والظروف ـ

وسوف أعود إلى ذلك بالتفصيل ـ قد تآمرتْ على أن تفرض صورة معينة على خيال الرجل...!

وهناك وثيقة هامة أحب أن أقف أمامها طويلاً. والوثيقة هي محضر دقيق للذي قاله النقراشي في الجلسة السرية لمجلس النواب. وهي الجلسة التي تحمس فيها النقراشي لدخول حرب فلسطين، ومضى يقنع النواب ويثبت في صدورهم حماسته.

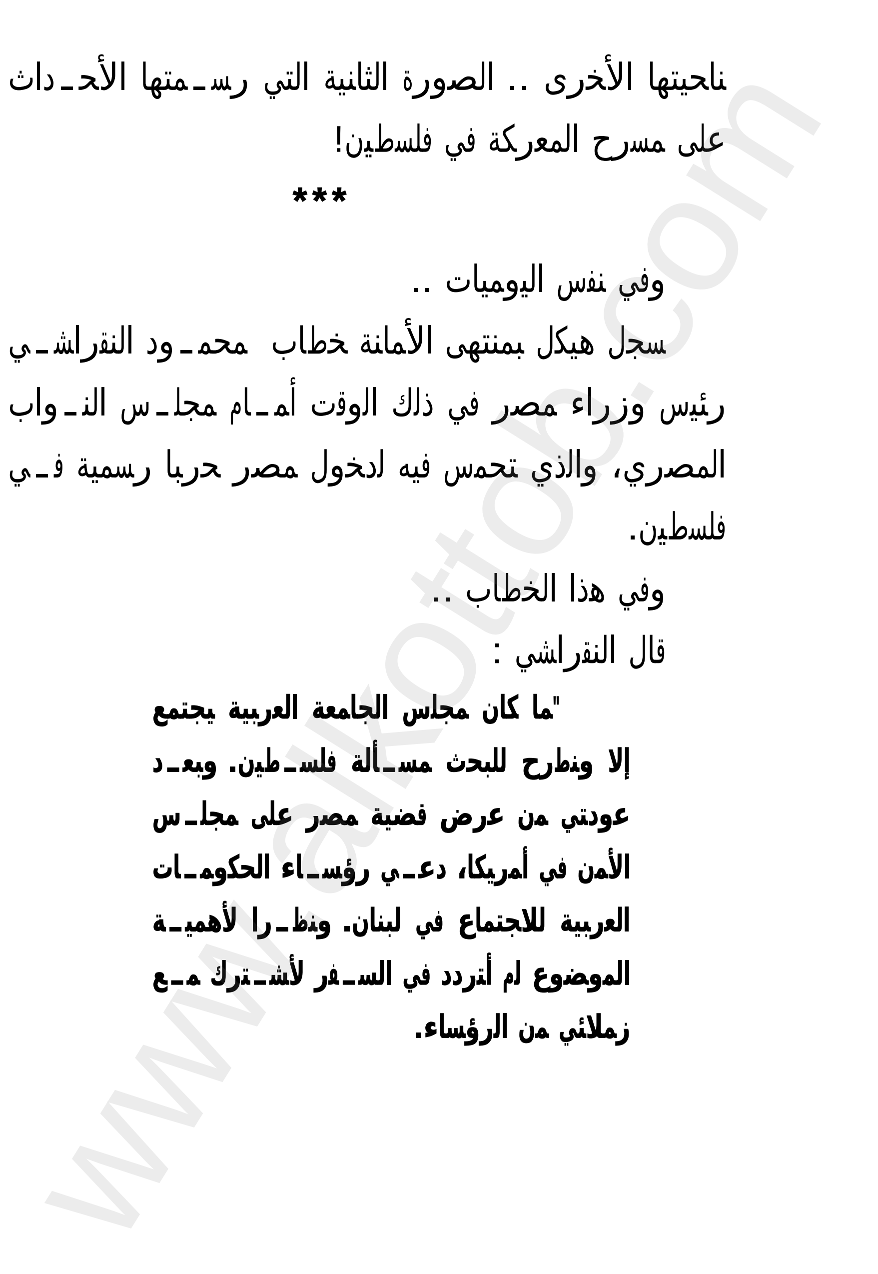
لقد رسم النقراشي بحديثه في هذه الجلسة صورة الموقف كما كان يتصوره، أو على الأصح كما صور له..!

وكان الفارق مروعا بين الصورة كما رسمها النقراشي في مجلس النواب، والصورة كما رسمتها الأحداث في فلسطين!

وسر حرب فلسطين الكبير هو هذا بالذات...!

هو هذا الفارق بين الصورة الحقيقية للموقف، وبين الصورة التي وضعت في خيال رئيس وزراء مصر في ذلك الحين.

ولسوف أستعرض خطاب النقراشي فقرةً فقرة، وأضع بعد كل صورة منه رسمها رئيس الوزراء النقراشي وفي



ناحيتها الأخرى .. الصورة الثانية التي رسـمتها الأحـداث على مسرح المعركة في فلسطين!

***

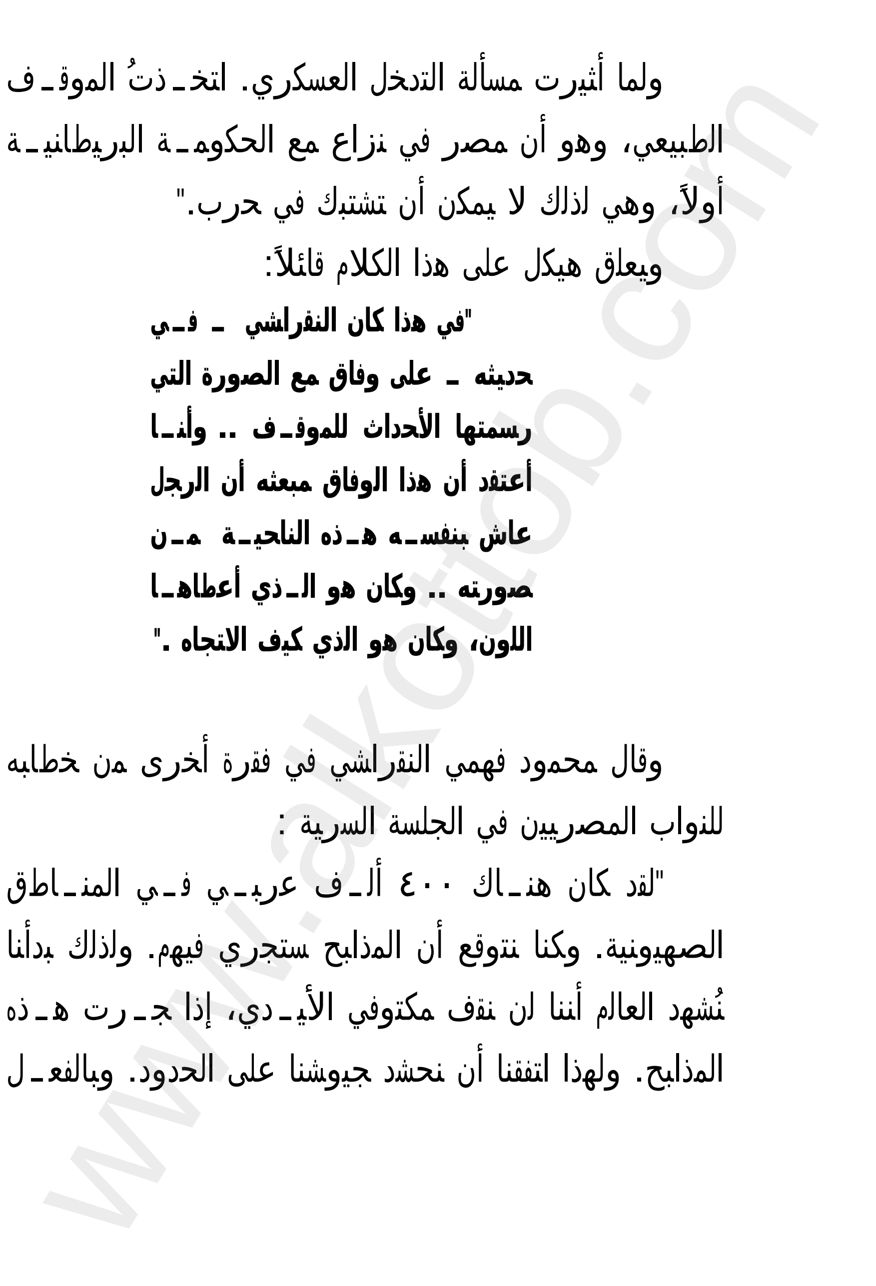
وفي نفس اليوميات ..

سجل هيكل بمنتهى الأمانة خطاب محمـود النقراشـي رئيس وزراء مصر في ذلك الوقت أمـام مجلـس النـواب المصري، والذي تحمس فيه لدخول مصر حربا رسمية فـي فلسطين.

وفي هذا الخطاب ..

قال النقراشي :

"ما كان مجلس الجامعة العربية يجتمع إلا وتطرح للبحث مسـألة فلسـطين. وبعـد عودتي من عرض قضية مصر على مجلـس الأمن في أمريكا، دعـي رؤسـاء الحكومـات العربية للاجتماع في لبنان. ونظـرا لأهميـة الموضوع لم أتردد في السـفر لأشـترك مـع زملائي من الرؤساء.



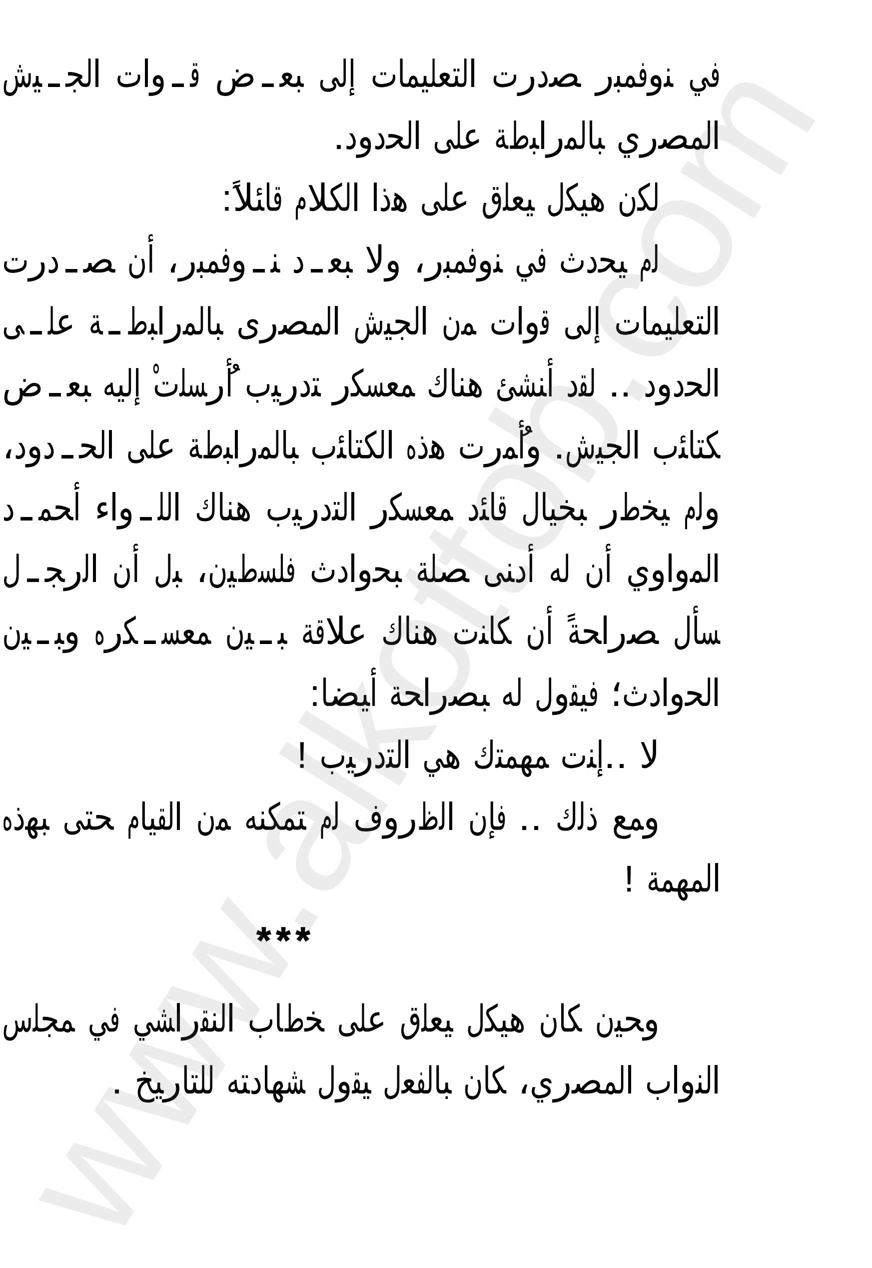
ولما أثيرت مسألة التدخل العسكري. اتخـذتُ الموقـف الطبيعي، وهو أن مصر في نزاع مع الحكومـة البريطانيـة أولاً، وهي لذلك لا يمكن أن تشتبك في حرب."

ويعلق هيكل على هذا الكلام قائلاً:

"في هذا كان النقراشي ـ فـي حديثه ـ على وفاق مع الصورة التي رسمتها الأحداث للموقـف .. وأنـا أعتقد أن هذا الوفاق مبعثه أن الرجل عاش بنفسـه هـذه الناحيـة مـن صورته .. وكان هو الـذي أعطاهـا اللون، وكان هو الذي كيف الاتجاه ."

وقال محمود فهمي النقراشي في فقرة أخرى من خطابه للنواب المصريين في الجلسة السرية :

"لقد كان هنـاك ٤٠٠ ألـف عربـي فـي المنـاطق الصهيونية. وكنا نتوقع أن المذابح ستجري فيهم. ولذلك بدأنا نُشهد العالم أننا لن نقف مكتوفي الأيـدي، إذا جـرت هـذه المذابح. ولهذا اتفقنا أن نحشد جيوشنا على الحدود. وبالفعـل



في نوفمبر صدرت التعليمات إلى بعض قوات الجيش المصري بالمرابطة على الحدود.

لكن هيكل يعلق على هذا الكلام قائلاً:

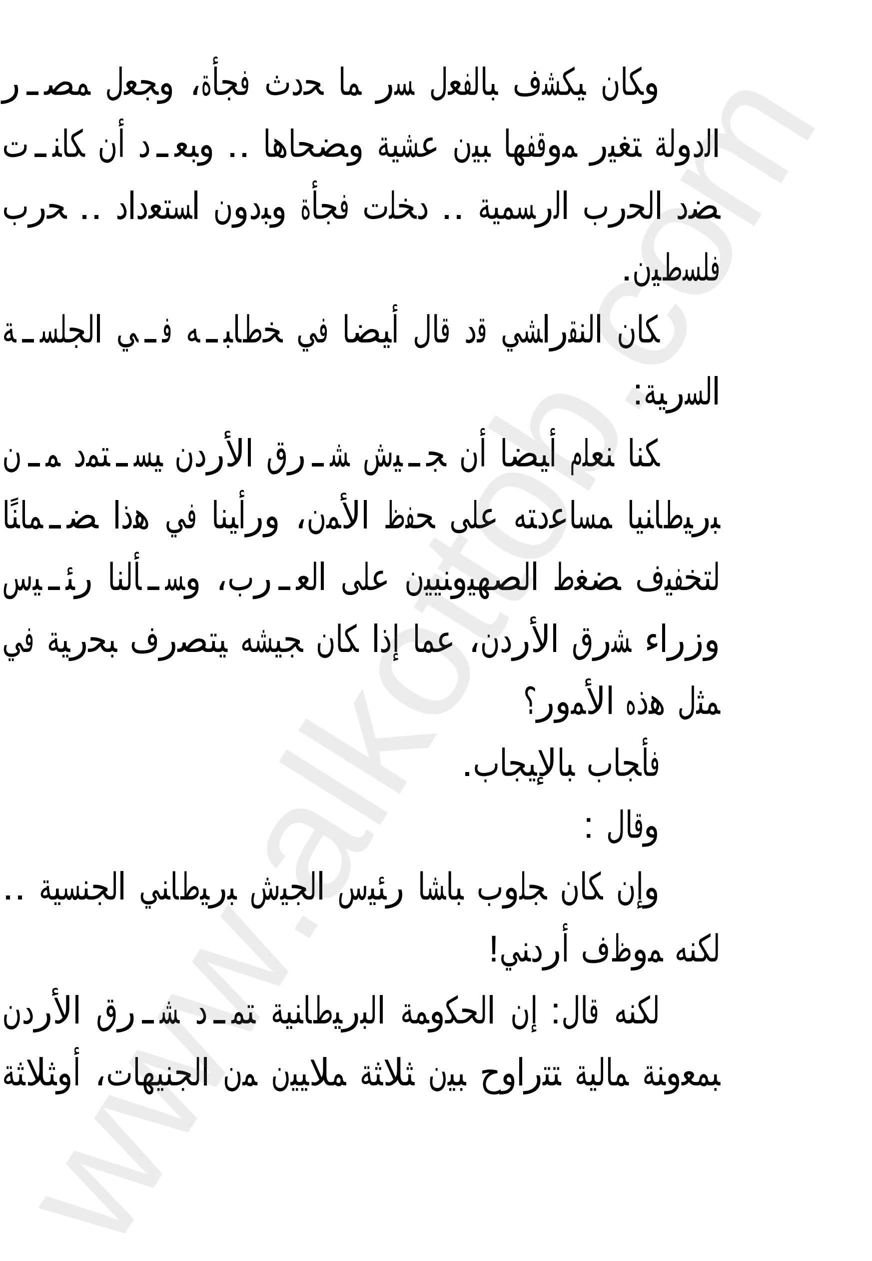
لم يحدث في نوفمبر، ولا بعد نوفمبر، أن صدرت التعليمات إلى قوات من الجيش المصرى بالمرابطة على الحدود .. لقد أنشئ هناك معسكر تدريب أُرسلتْ إليه بعض كتائب الجيش. وأُمرت هذه الكتائب بالمرابطة على الحدود، ولم يخطر بخيال قائد معسكر التدريب هناك اللواء أحمد المواوي أن له أدنى صلة بحوادث فلسطين، بل أن الرجل سأل صراحةً أن كانت هناك علاقة بين معسكره وبين الحوادث؛ فيقول له بصراحة أيضا:

لا ..إنت مهمتك هي التدريب !

ومع ذلك .. فإن الظروف لم تمكنه من القيام حتى بهذه المهمة !

***

وحين كان هيكل يعلق على خطاب النقراشي في مجلس النواب المصري، كان بالفعل يقول شهادته للتاريخ .



وكان يكشف بالفعل سر ما حدث فجأة، وجعل مصـر الدولة تغير موقفها بين عشية وضحاها .. وبعـد أن كانـت ضد الحرب الرسمية .. دخلت فجأة وبدون استعداد .. حرب فلسطين.

كان النقراشي قد قال أيضا في خطابـه فـي الجلسـة السرية:

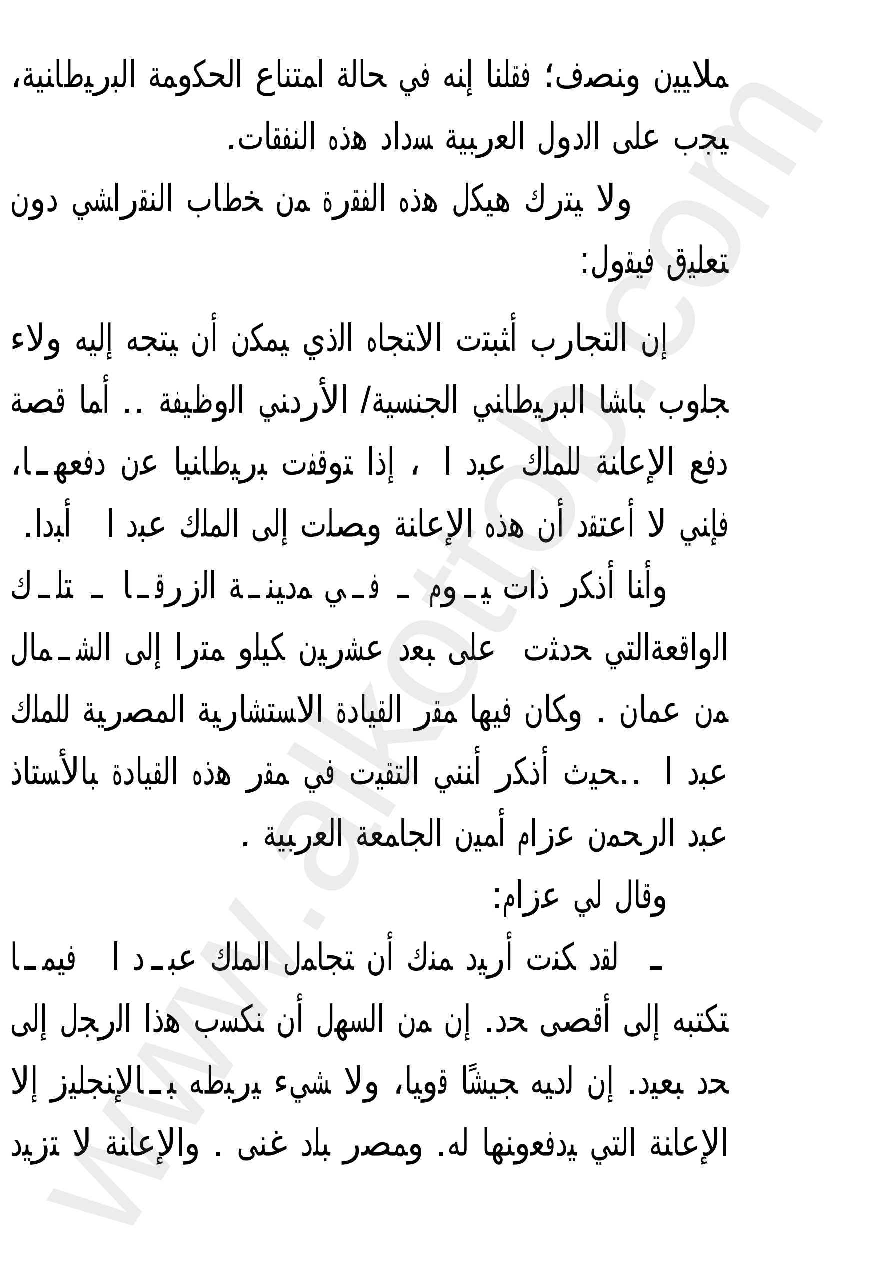
كنا نعلم أيضا أن جـيش شـرق الأردن يسـتمد مـن بريطانيا مساعدته على حفظ الأمن، ورأينا في هذا ضـمانًا لتخفيف ضغط الصهيونيين على العـرب، وسـألنا رئـيس وزراء شرق الأردن، عما إذا كان جيشه يتصرف بحرية في مثل هذه الأمور؟

فأجاب بالإيجاب.

وقال :

وإن كان جلوب باشا رئيس الجيش بريطاني الجنسية .. لكنه موظف أردني!

لكنه قال: إن الحكومة البريطانية تمـد شـرق الأردن بمعونة مالية تتراوح بين ثلاثة ملايين من الجنيهات، أوثلاثة



ملايين ونصف؛ فقلنا إنه في حالة امتناع الحكومة البريطانية، يجب على الدول العربية سداد هذه النفقات.

ولا يترك هيكل هذه الفقرة من خطاب النقراشي دون تعليق فيقول:

إن التجارب أثبتت الاتجاه الذي يمكن أن يتجه إليه ولاء جلوب باشا البريطاني الجنسية/ الأردني الوظيفة .. أما قصة دفع الإعانة للملك عبد ا ، إذا توقفت بريطانيا عن دفعهـا، فإني لا أعتقد أن هذه الإعانة وصلت إلى الملك عبد ا أبدا.

وأنا أذكر ذات يـوم ـ فـي مدينـة الزرقـا ـ تلـك الواقعةالتي حدثت على بعد عشرين كيلو مترا إلى الشـمال من عمان . وكان فيها مقر القيادة الاستشارية المصرية للملك عبد ا ..حيث أذكر أنني التقيت في مقر هذه القيادة بالأستاذ عبد الرحمن عزام أمين الجامعة العربية .

وقال لي عزام:

ـ لقد كنت أريد منك أن تجامل الملك عبـد ا فيمـا تكتبه إلى أقصى حد. إن من السهل أن نكسب هذا الرجل إلى حد بعيد. إن لديه جيشًا قويا، ولا شيء يربطه بـالإنجليز إلا الإعانة التي يدفعونها له. ومصر بلد غنى . والإعانة لا تزيد

على ثلاثة ملايين من الجنيهات، ليسـت عبئـا تنـوء بـه.
ولنفرض أن هذا المبلغ تدفعه مصر إلى إيجـارا للجـيش..
خذوا الأمر حتى على هذا النحو، تجدوا أن استرضاء الرجل صفقة رابحة لمصر مهما كانت الأحوال.

وأذكر أنني مسست الموضوع مسا رقيقًا مع الملك عبد ا ـ ذات مساء بعد العشاء على مائدتـه ـ فـي قصـر الزعفران ، ووجدت أن الملك(وأنا أشهد أنه لم يكـن يخفـي سرا) لم يبد عليه ساعتها أنه يعرف عن هذه الفكرة كثيرا أو قليلاً !

***

نعود مرة أخرى إلى خطاب النقراشي ..

قال رئيس وزراء مصر، في الجلسة السـرية لمجلـس النواب المصري:

وانعقدت جلسات أخرى لجامعة الدول العربية. واتفقنـا على ما يجب أن تعمله كل دولة في هذه الظروف. وتذكرون حضرات النواب أنكم وافقتم على صرف ٤٢٠ ألـف جنيـه مرة. ثم وافقتم على صرف ٤٢٠ ألف جنيه مـرة أخـرى.

وكنا قد اعتمدنا للقضية مليون جنيه، ثم مليونًا أخرى. وكانت حصة مصر بنسبة حصتها في نفقات الجامعة العربية وهـي ٤٢%.

وكان ما قامت به مصر من المساعدات الأخرى أخطر من هذه المبالغ ، وقد وضعنا كـل مـوارد مصـر تحـت تصرفهم. وأقول أكثر من ذلك أن السلاح الذي ورد كان عن طريق مصر.

لكن هيكل لا يترك هذه الفقرة أيضـا مـن خطـاب النقراشي الخطير دون تعليق فيقول :

أما المبالغ التي صرفت .. فبودي لو أعرف أين ذهبتْ؟ الذي لاشك فيه أن مصر دفعت، ولكن إلى أين ذهب المـال الذي دفعته مصر؟

أما السلاح الذي وردته مصر. فأني أعرف إلـى أيـن ذهب...!

أما الملحق العسكري لمصر في القدس وقتهـا، وهـو البكباشي عصام المصري. مندوب مصـر الآن فـي لجنـة مقاطعة إسرائيل، تلقى أكثر من شكوى، وهو في القدس، من الأسلحة التي أُرسلت من مصر...!

وطلب عصام المصري وقتها أن يـرى بنفسـه هـذه الأسلحة، وما كاد يراها.........

- حتى قال بفجيعة :
- ليست هذه هي الأسلحة التي أرسلناها **إليكم.....!!!**

وظهر أن معظم هذه الأسلحة قد استُبدل في الطريـق. وذهبت البنادق القوية التي أرسلتها مصر. لتظهر في السوق السوداء في الطريق. ووضعت بـدلاً منهـا بنـادق هزيلـة مريضة.. ينطلق منها سعال مبحوح.....!

- وقال النقراشي في خطابه :

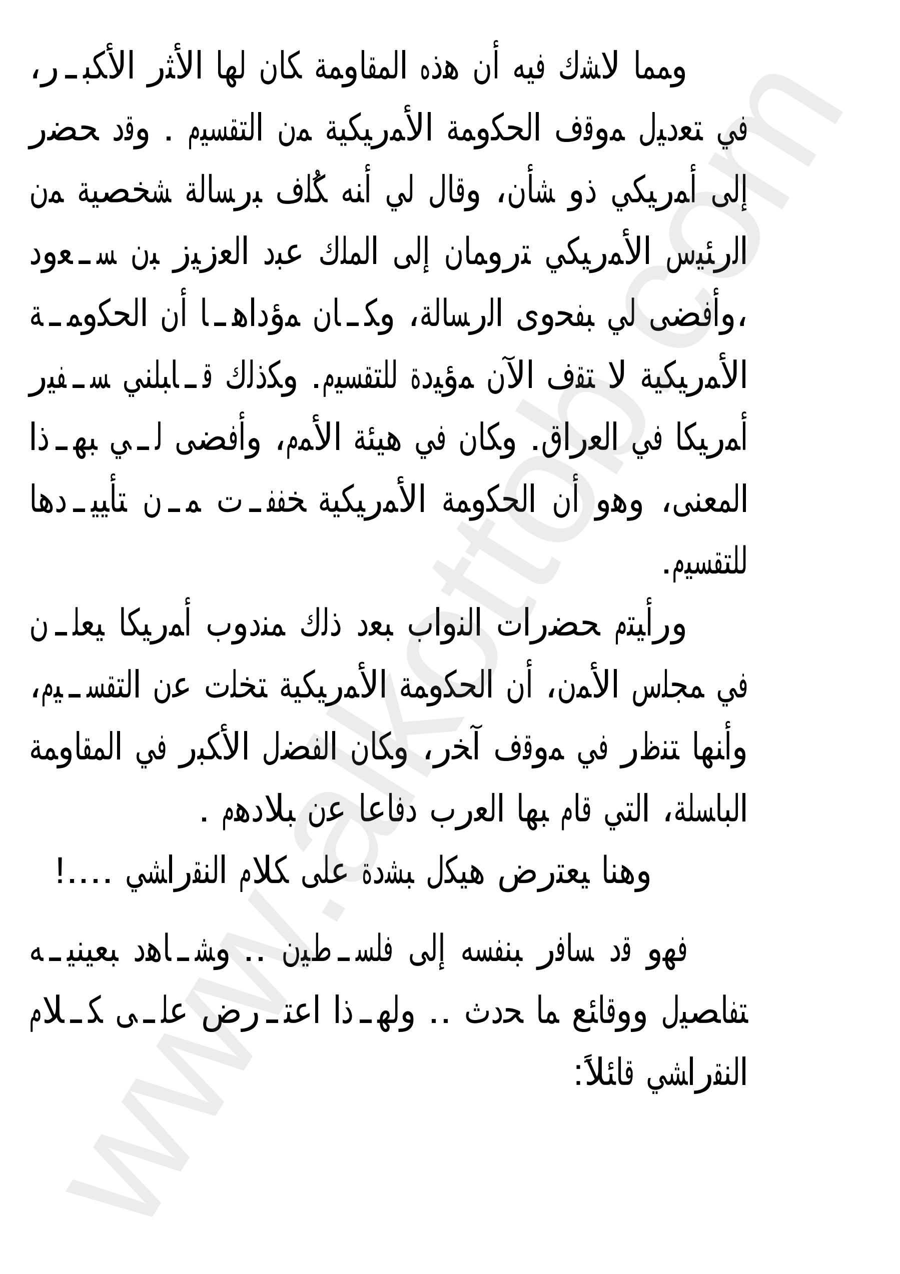
ولقد قام أهالي فلسطين بمقاومة نبيلـة باسلة. وكان لهذه المقاومة الفضل كل الفضل، أنها لفتت الأنظـار إلـى أن العـرب كـانوا جادين،عندما قالوا أنهـم لا يوافقـون علـى التقسيم، وقد بذلوا كـل أرواحهـم وحيـاتهم لمقاومة هذا الضغط الصهيوني.

وكانت المقاومة مستمرة وناجحة ونبيلة ..

فقد كالوا للصهيونيين الصاع صاعين ..

ولفتوا أنظار العالم ..

ولفتوا نظر الحكومة الأمريكية ..



ومما لاشك فيه أن هذه المقاومة كان لها الأثر الأكبـر، في تعديل موقف الحكومة الأمريكية من التقسيم . وقد حضر إلى أمريكي ذو شأن، وقال لي أنه كُلف برسالة شخصية من الرئيس الأمريكي ترومان إلى الملك عبد العزيز بن سـعود ،وأفضى لي بفحوى الرسالة، وكـان مؤداهـا أن الحكومـة الأمريكية لا تقف الآن مؤيدة للتقسيم. وكذلك قـابلني سـفير أمريكا في العراق. وكان في هيئة الأمم، وأفضى لـي بهـذا المعنى، وهو أن الحكومة الأمريكية خففـت مـن تأييـدها للتقسيم.

ورأيتم حضرات النواب بعد ذلك مندوب أمريكا يعلـن في مجلس الأمن، أن الحكومة الأمريكية تخلت عن التقسـيم، وأنها تنظر في موقف آخر، وكان الفضل الأكبر في المقاومة الباسلة، التي قام بها العرب دفاعا عن بلادهم .

وهنا يعترض هيكل بشدة على كلام النقراشي ....!

فهو قد سافر بنفسه إلى فلسـطين .. وشـاهد بعينيـه تفاصيل ووقائع ما حدث .. ولهـذا اعتـرض علـى كـلام النقراشي قائلاً:

آسف على أن هذه المقاومة الباسلة لم تكن في فلسـطين نفسها، بنفس الحرارة التي بدت بها على صفحات الجرائد في العواصم العربية .. لقـد كانـت هنـاك مقاومـة .. هـذا صحيح...!

ولكن هذه المقاومة لم تصل أبدا إلى مرحلـة المجهـود المنظم.

ولم يكن لهذه المقاومة مع الأسف أثر في موقف أمريكا، ولم تتخل أمريكا ، ولم يتخل ترومان بالـذات عـن تأييـد التقسيم. والدليل أنه اعترف بقيام إسرائيل، قبـل أن ينتهـي الانتداب البريطاني على فلسطين ببضع ساعات..!

أما أن أمريكا خففت في وقت من الأوقات من غلوائهـا في تأييد التقسيم، فقد كان لذلك سبب واحد، هو أبعد ما يكون للأسف عن تأثير المقاومة العربية في فلسطين.

وكان السبب .. هو شركات البترول الأمريكية !

لقد تألقت شركات البترول الأمريكية، وهي في الشـرق الأوسط تمثل ١٧% من مجموع الاسـتثمارات الأمريكيـة، خارج الولايات الأمريكية المتحدة. إن مصالحها في خطر إذا فرض التقسيم بالقوة.

وجاء وقت اضطر فيه الرئيس الأمريكي لأن يصـغي لطلبات هذه الشركات . صاحبة النفوذ القوي.

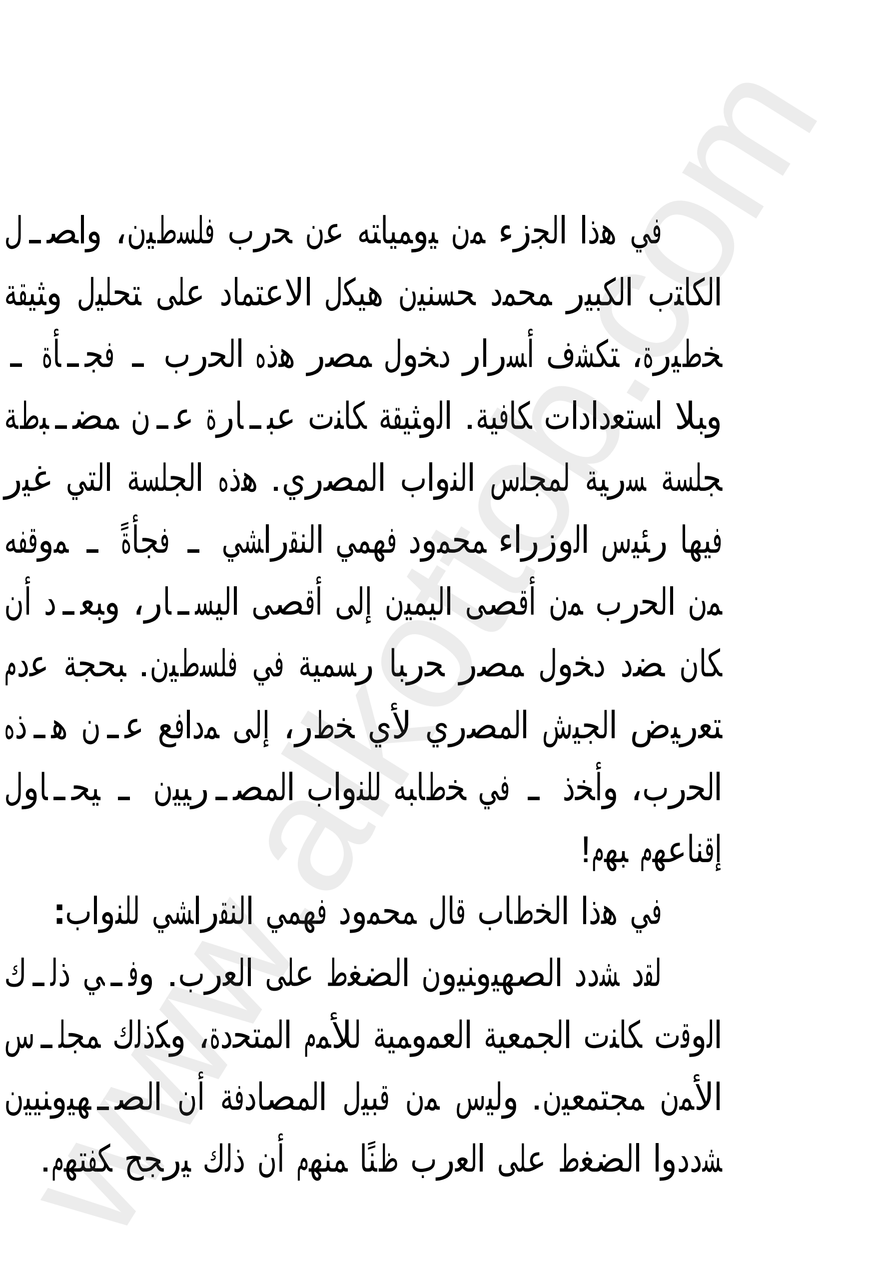
والدليل على ذلك أن رسالة الرئيس الأمريكي ترومـان لم تكن لأي واحد من رؤساء الدول العربية .

إلا للملك عبد العزيز آل سعود ..

وبالذات فقط ....!

الفصل الخامس

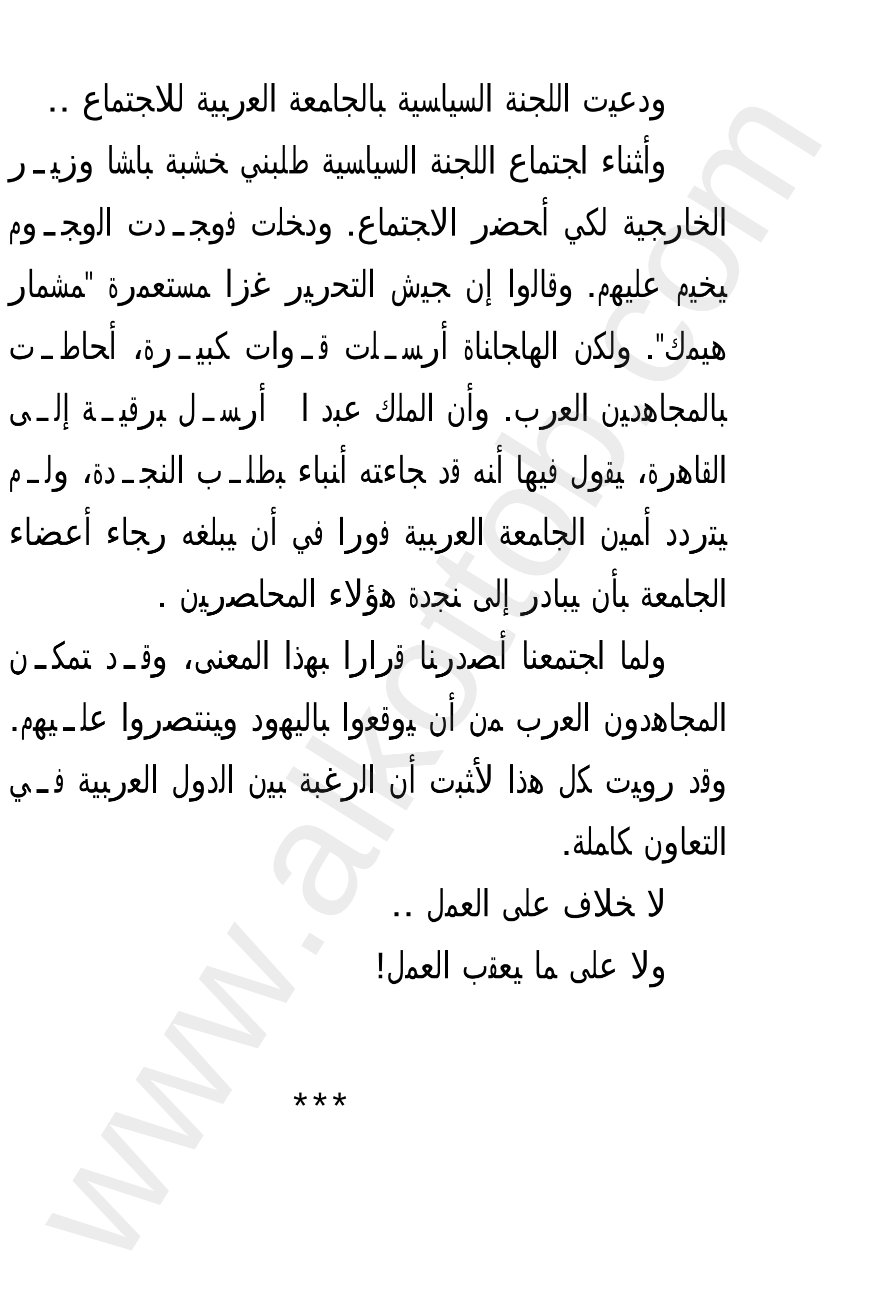
كل ما جاء .. في الجلسة السرية!



في هذا الجزء من يومياته عن حرب فلسطين، واصل الكاتب الكبير محمد حسنين هيكل الاعتماد على تحليل وثيقة خطيرة، تكشف أسرار دخول مصر هذه الحرب ـ فجأة ـ وبلا استعدادات كافية. الوثيقة كانت عبارة عن مضبطة جلسة سرية لمجلس النواب المصري. هذه الجلسة التي غير فيها رئيس الوزراء محمود فهمي النقراشي ـ فجأةً ـ موقفه من الحرب من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار، وبعد أن كان ضد دخول مصر حربا رسمية في فلسطين. بحجة عدم تعريض الجيش المصري لأي خطر، إلى مدافع عن هذه الحرب، وأخذ ـ في خطابه للنواب المصريين ـ يحاول إقناعهم بهم!

في هذا الخطاب قال محمود فهمي النقراشي للنواب:

لقد شدد الصهيونيون الضغط على العرب. وفي ذلك الوقت كانت الجمعية العمومية للأمم المتحدة، وكذلك مجلس الأمن مجتمعين. وليس من قبيل المصادفة أن الصهيونيين شددوا الضغط على العرب ظنًا منهم أن ذلك يرجح كفتهم.



ودعيت اللجنة السياسية بالجامعة العربية للاجتماع ..

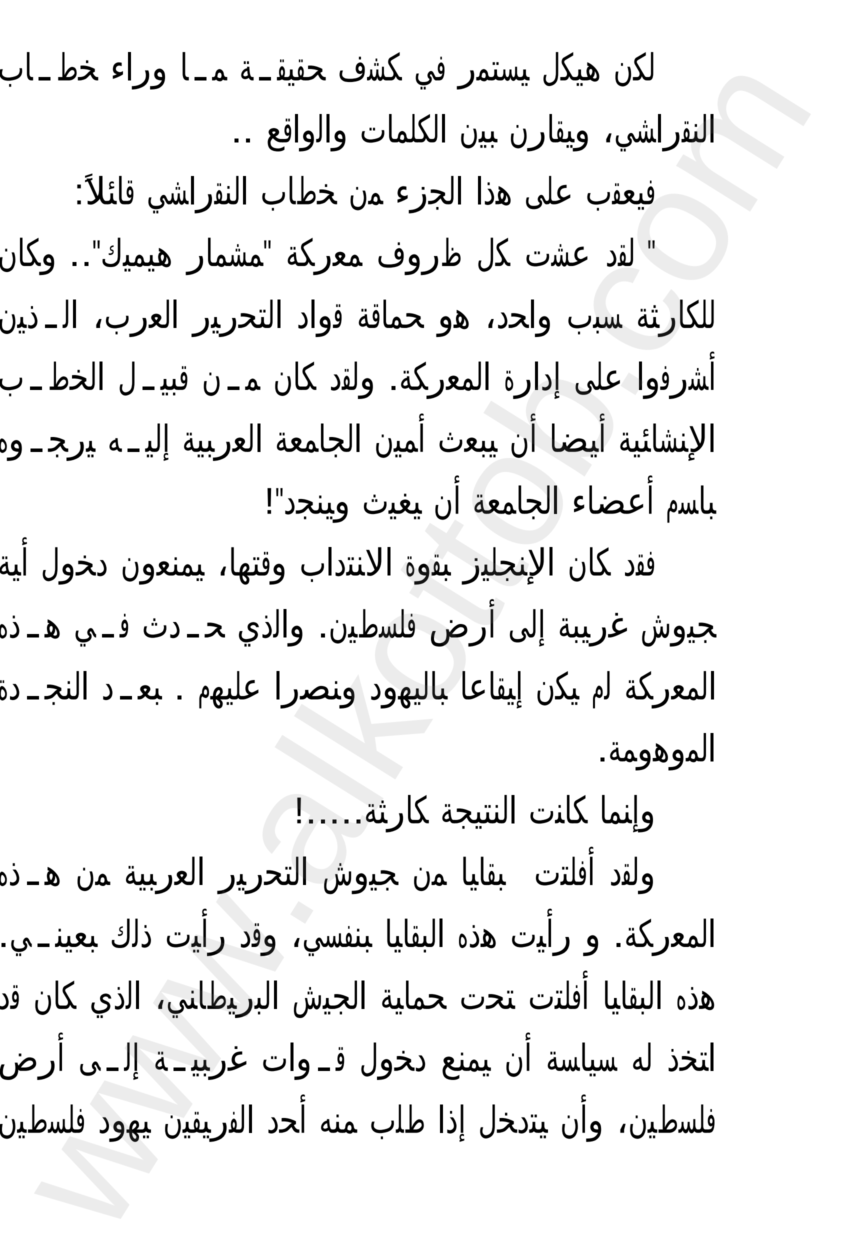
وأثناء اجتماع اللجنة السياسية طلبني خشبة باشا وزير الخارجية لكي أحضر الاجتماع. ودخلت فوجدت الوجوم يخيم عليهم. وقالوا إن جيش التحرير غزا مستعمرة "مشمار هيمك". ولكن الهاجاناة أرسلت قوات كبيرة، أحاطت بالمجاهدين العرب. وأن الملك عبد ا أرسل برقية إلى القاهرة، يقول فيها أنه قد جاءته أنباء بطلب النجدة، ولم يتردد أمين الجامعة العربية فورا في أن يبلغه رجاء أعضاء الجامعة بأن يبادر إلى نجدة هؤلاء المحاصرين .

ولما اجتمعنا أصدرنا قرارا بهذا المعنى، وقد تمكن المجاهدون العرب من أن يوقعوا باليهود وينتصروا عليهم. وقد رويت كل هذا لأثبت أن الرغبة بين الدول العربية في التعاون كاملة.

لا خلاف على العمل ..

ولا على ما يعقب العمل!

***



لكن هيكل يستمر في كشف حقيقة ما وراء خطاب النقراشي، ويقارن بين الكلمات والواقع ..

فيعقب على هذا الجزء من خطاب النقراشي قائلاً:

" لقد عشت كل ظروف معركة "مشمار هيميك".. وكان للكارثة سبب واحد، هو حماقة قواد التحرير العرب، الذين أشرفوا على إدارة المعركة. ولقد كان من قبيل الخطب الإنشائية أيضا أن يبعث أمين الجامعة العربية إليه يرجوه باسم أعضاء الجامعة أن يغيث وينجد"!

فقد كان الإنجليز بقوة الانتداب وقتها، يمنعون دخول أية جيوش غريبة إلى أرض فلسطين. والذي حدث في هذه المعركة لم يكن إيقاعا باليهود ونصرا عليهم . بعد النجدة الموهومة.

وإنما كانت النتيجة كارثة.....!

ولقد أفلتت بقايا من جيوش التحرير العربية من هذه المعركة. و رأيت هذه البقايا بنفسي، وقد رأيت ذلك بعيني. هذه البقايا أفلتت تحت حماية الجيش البريطاني، الذي كان قد اتخذ له سياسة أن يمنع دخول قوات غريبة إلى أرض فلسطين، وأن يتدخل إذا طلب منه أحد الفريقين يهود فلسطين

أو عرب فلسطين النجدة بصفته القوة المكلفة بصيانة الأمـن حتى انتهاء الانتداب....!

أما الرغبة في التعاون بين الدول العربية، فلم تكن فـي حقيقتها سرا خافيا على أحد.!

وأنا أذكر أن الملك عبد ا أطلعني على مجموعة مـن البرقيات، كان قد تلقاها في هذه الفترة بالذات، مـن شـكوى القوتلي رئيس جمهورية سوريا في ذلك الوقت.

وكانت البرقيات بين الملك العربي ورئيس الجمهوريـة العربي. تكاد تصل إلى درجة الشتم وتبادل السباب..!

وأذكر أنني سمعت في ذلك الوقت من الملـك عبـد ا الآراء التالية في عدد من رؤساء الدول العرب:

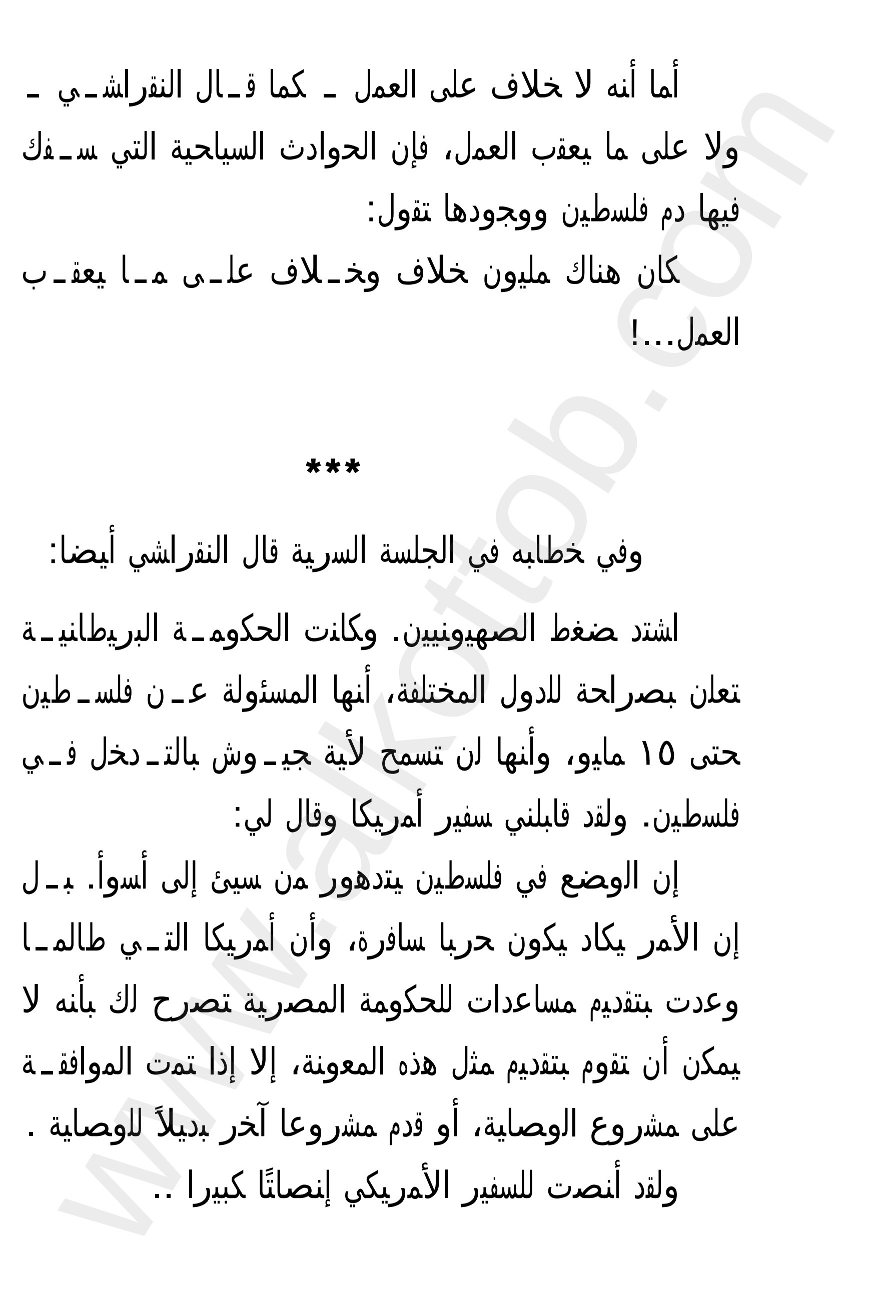
كلب..!

خائن..!

لص..!

ولن أقول من هو الكلب. ولا من هو الخائن. ولا مـن هو اللص...!

والذي أستطيع أن أُقسم عليه أن الثلاثة كانوا من رؤساء الدول والوزارات على الأقل!



أما أنه لا خلاف على العمل - كما قال النقراشي - ولا على ما يعقب العمل، فإن الحوادث السياحية التي سفك فيها دم فلسطين ووجودها تقول:

كان هناك مليون خلاف وخلاف على ما يعقب العمل...!

***

وفي خطابه في الجلسة السرية قال النقراشي أيضا:

اشتد ضغط الصهيونيين. وكانت الحكومة البريطانية تعلن بصراحة للدول المختلفة، أنها المسئولة عن فلسطين حتى ١٥ مايو، وأنها لن تسمح لأية جيوش بالتدخل في فلسطين. ولقد قابلني سفير أمريكا وقال لي:

إن الوضع في فلسطين يتدهور من سيئ إلى أسوأ. بل إن الأمر يكاد يكون حربا سافرة، وأن أمريكا التي طالما وعدت بتقديم مساعدات للحكومة المصرية تصرح لك بأنه لا يمكن أن تقوم بتقديم مثل هذه المعونة، إلا إذا تمت الموافقة على مشروع الوصاية، أو قدم مشروعا آخر بديلاً للوصاية .

ولقد أنصت للسفير الأمريكي إنصاتًا كبيرا ..

وقلت له : إنك تحمل رسالة في غاية الخطورة !

وأعدت عليه الكلام الذي قاله ..

وقلت له :

ـ إنى أتفق معك في أن الموقف يتحول من سيئ إلـى أسوأ. ولكن هذا ليس بسببنا؛ فطالما حذرناكم ونبهناكم. ولا أظن أنكم تريدون إفساح الطريق للهاجاناة.. وعلى أية حـال لا يمكن أن نقف مكتوفي الأيدي، بينما العرب يذبحون.

قال لي السفير الأمريكي:

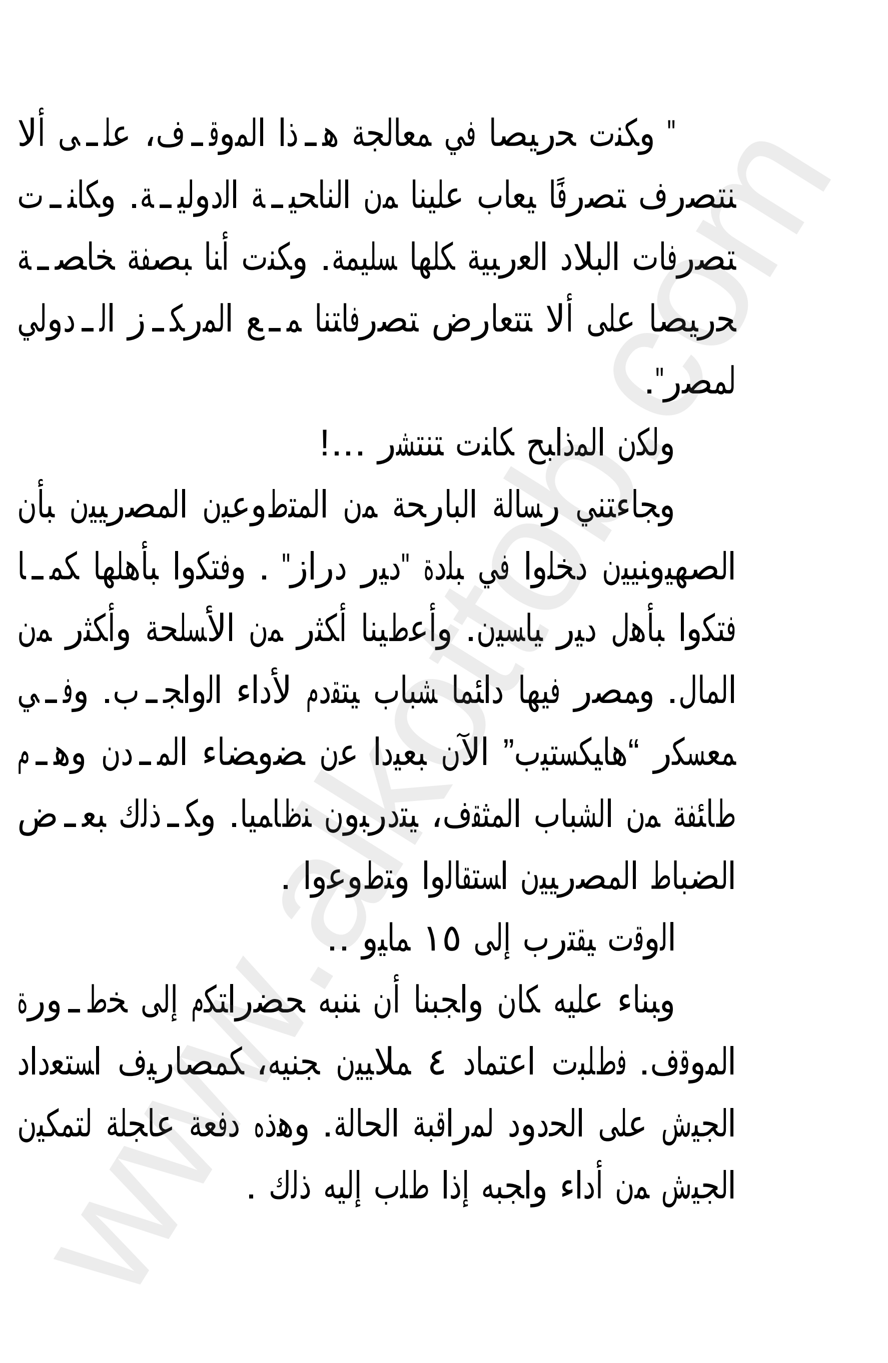
لا تأخذ الذي قلته لك على أنه تهديد .. إنه ليس كذلك.!

وهنا يعلق هيكل في يومياته على هذا الكلام قائلاً:

"إن هذه الرسالة التي قام بإبلاغها السـفير الأمريكـي لرئيس وزراء مصر، كانت تكفي وحدها لتدل على الاتجـاه الذي كان يسود واشنطن، عما يجب أن يكون عليه المستقبل في فلسطين"!

***

وقال محمود فهمي النقراشي في خطابه:



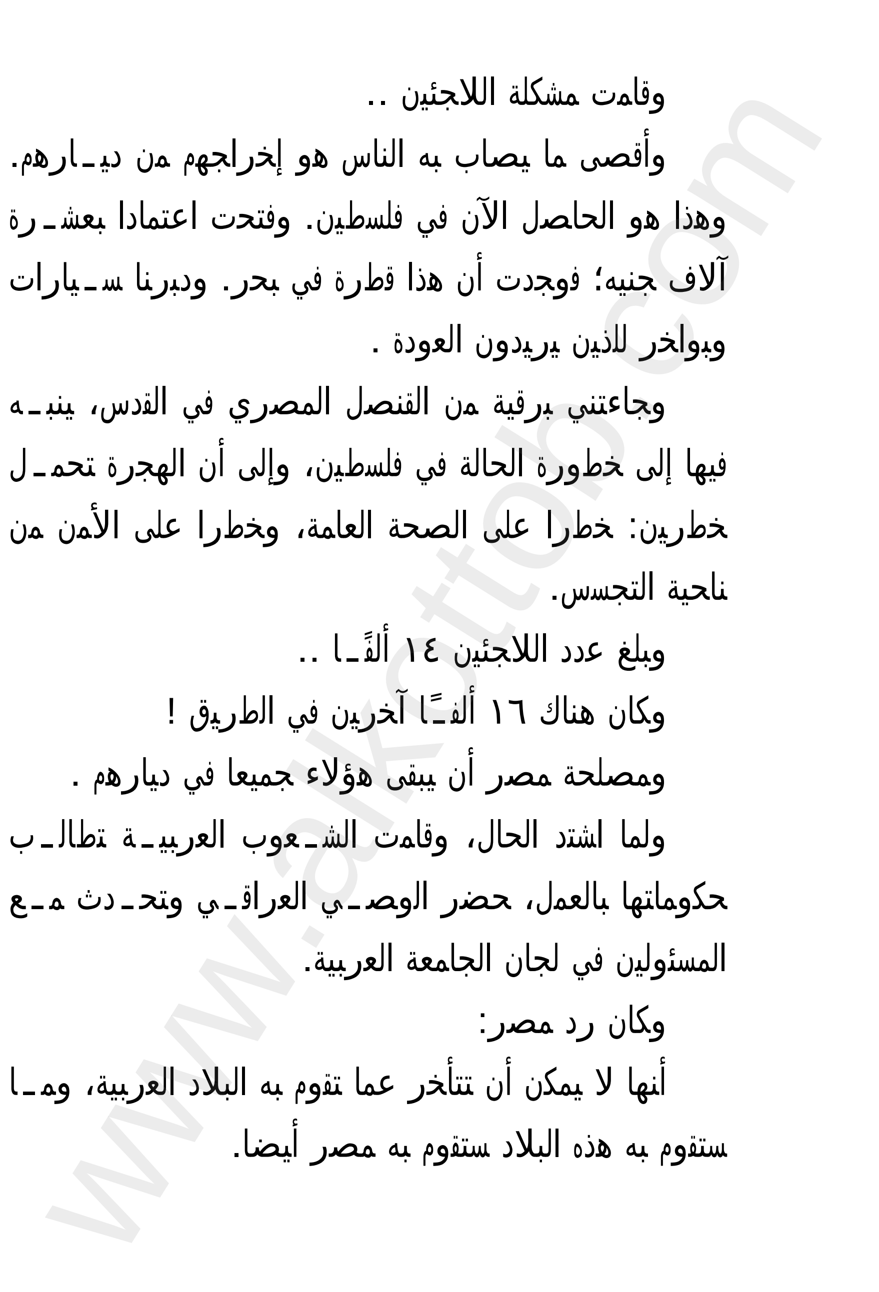
" وكنت حريصا في معالجة هـذا الموقـف، علـى ألا نتصرف تصرفًا يعاب علينا من الناحيـة الدوليـة. وكانـت تصرفات البلاد العربية كلها سليمة. وكنت أنا بصفة خاصـة حريصا على ألا تتعارض تصرفاتنا مـع المركـز الـدولي لمصر".

ولكن المذابح كانت تنتشر ...!

وجاءتني رسالة البارحة من المتطوعين المصريين بأن الصهيونيين دخلوا في بلدة "دير دراز" . وفتكوا بأهلها كمـا فتكوا بأهل دير ياسين. وأعطينا أكثر من الأسلحة وأكثر من المال. ومصر فيها دائما شباب يتقدم لأداء الواجـب. وفـي معسكر "هايكستيب" الآن بعيدا عن ضوضاء المـدن وهـم طائفة من الشباب المثقف، يتدربون نظاميا. وكـذلك بعـض الضباط المصريين استقالوا وتطوعوا .

الوقت يقترب إلى ١٥ مايو ..

وبناء عليه كان واجبنا أن ننبه حضراتكم إلى خطـورة الموقف. فطلبت اعتماد ٤ ملايين جنيه، كمصاريف استعداد الجيش على الحدود لمراقبة الحالة. وهذه دفعة عاجلة لتمكين الجيش من أداء واجبه إذا طلب إليه ذلك .



وقامت مشكلة اللاجئين ..

وأقصى ما يصاب به الناس هو إخراجهم من ديارهم. وهذا هو الحاصل الآن في فلسطين. وفتحت اعتمادا بعشرة آلاف جنيه؛ فوجدت أن هذا قطرة في بحر. ودبرنا سيارات وبواخر للذين يريدون العودة .

وجاءتني برقية من القنصل المصري في القدس، ينبه فيها إلى خطورة الحالة في فلسطين، وإلى أن الهجرة تحمل خطرين: خطرا على الصحة العامة، وخطرا على الأمن من ناحية التجسس.

وبلغ عدد اللاجئين ١٤ ألفًا ..

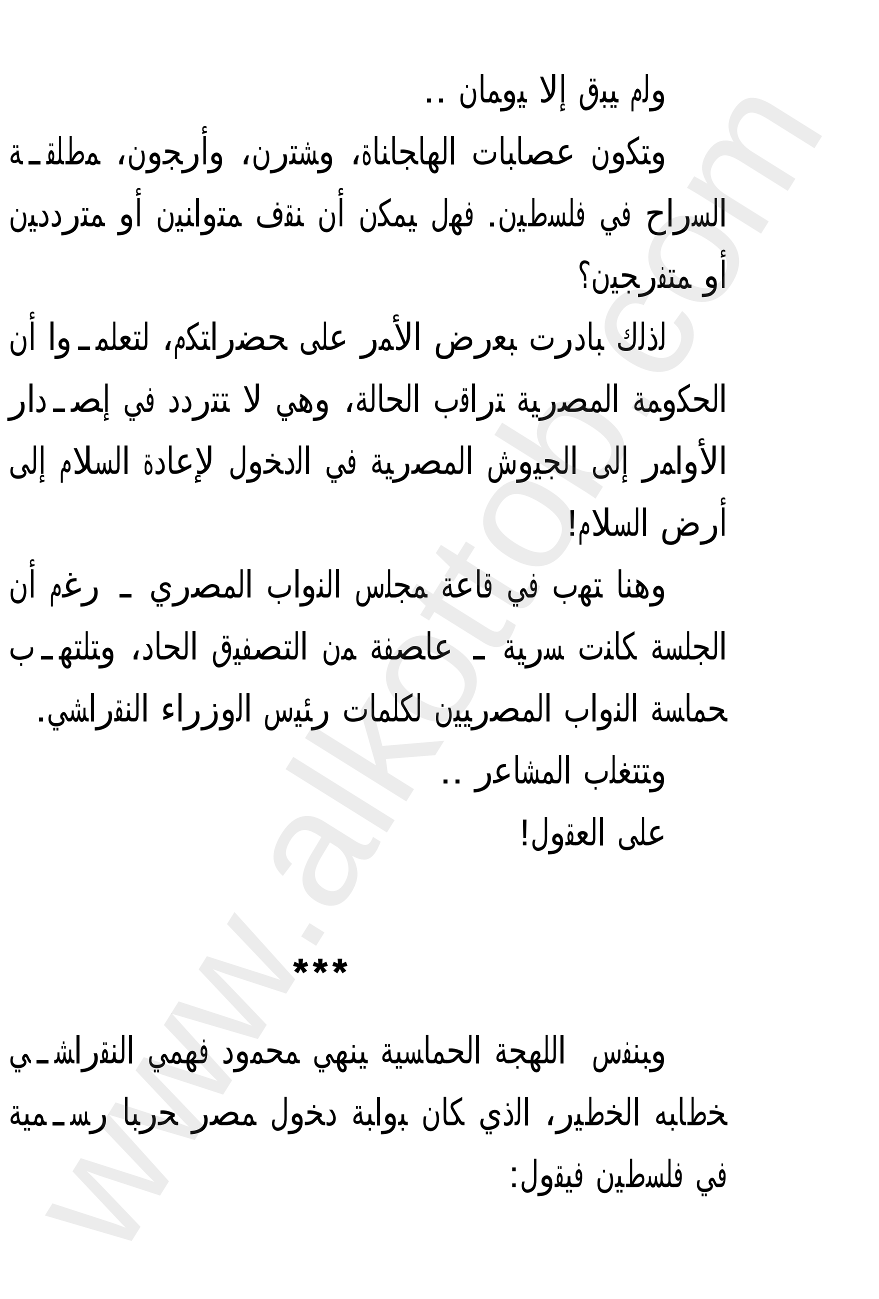
وكان هناك ١٦ ألفًا آخرين في الطريق !

ومصلحة مصر أن يبقى هؤلاء جميعا في ديارهم .

ولما اشتد الحال، وقامت الشعوب العربية تطالب حكوماتها بالعمل، حضر الوصي العراقي وتحدث مع المسئولين في لجان الجامعة العربية.

وكان رد مصر:

أنها لا يمكن أن تتأخر عما تقوم به البلاد العربية، وما ستقوم به هذه البلاد ستقوم به مصر أيضا.



ولم يبق إلا يومان ..

وتكون عصابات الهاجاناة، وشترن، وأرجون، مطلقـة السراح في فلسطين. فهل يمكن أن نقف متوانين أو مترددين أو متفرجين؟

لذلك بادرت بعرض الأمر على حضراتكم، لتعلمـوا أن الحكومة المصرية تراقب الحالة، وهي لا تتردد في إصـدار الأوامر إلى الجيوش المصرية في الدخول لإعادة السلام إلى أرض السلام!

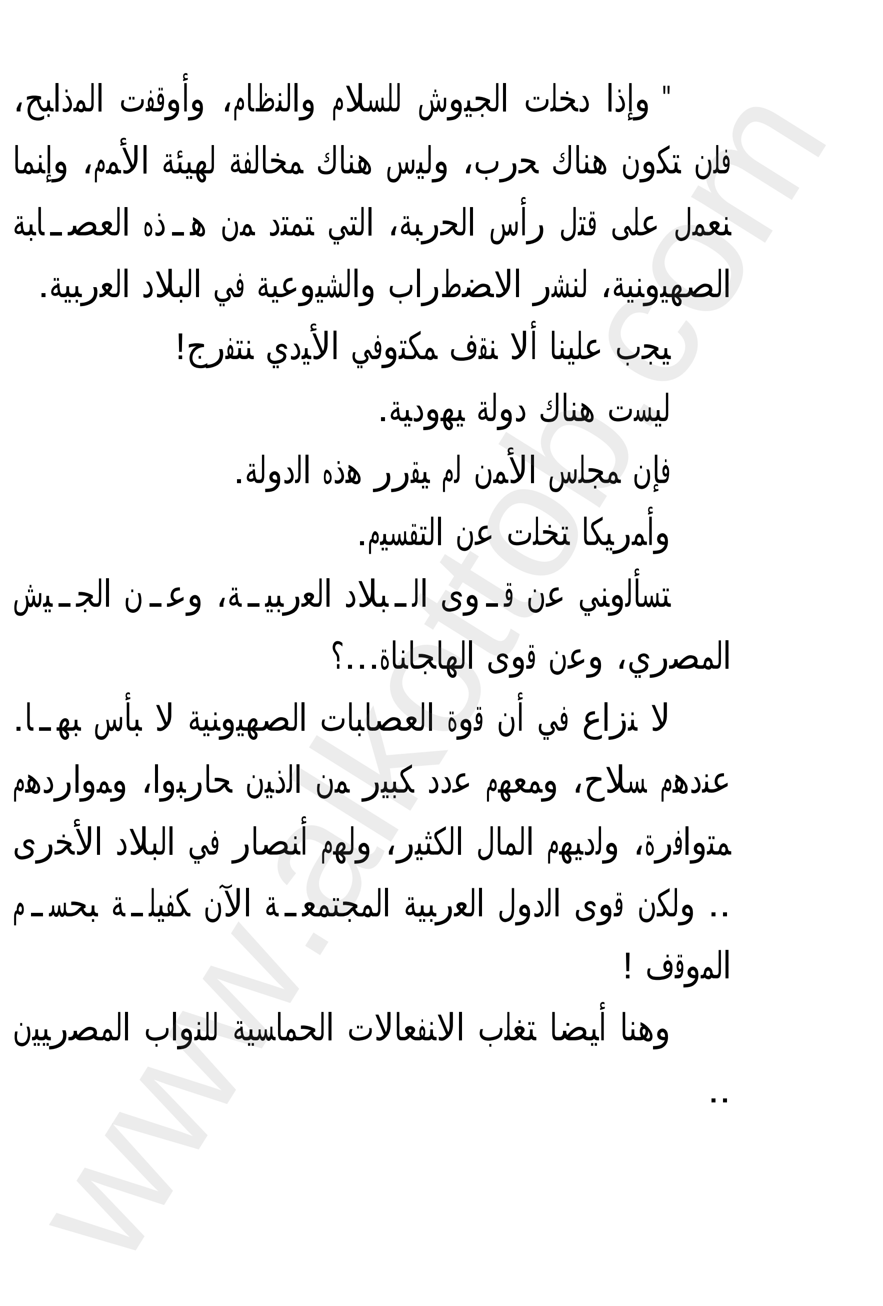
وهنا تهب في قاعة مجلس النواب المصري ـ رغم أن الجلسة كانت سرية ـ عاصفة من التصفيق الحاد، وتلتهـب حماسة النواب المصريين لكلمات رئيس الوزراء النقراشي.

وتتغلب المشاعر ..

على العقول!

***

وبنفس اللهجة الحماسية ينهي محمود فهمي النقراشـي خطابه الخطير، الذي كان بوابة دخول مصر حربا رسـمية في فلسطين فيقول:



" وإذا دخلت الجيوش للسلام والنظام، وأوقفت المذابح، فلن تكون هناك حرب، وليس هناك مخالفة لهيئة الأمم، وإنما نعمل على قتل رأس الحربة، التي تمتد من هـذه العصـابة الصهيونية، لنشر الاضطراب والشيوعية في البلاد العربية.

يجب علينا ألا نقف مكتوفي الأيدي نتفرج!

ليست هناك دولة يهودية.

فإن مجلس الأمن لم يقرر هذه الدولة.

وأمريكا تخلت عن التقسيم.

تسألوني عن قـوى الـبلاد العربيـة، وعـن الجـيش المصري، وعن قوى الهاجاناة...؟

لا نزاع في أن قوة العصابات الصهيونية لا بأس بهـا. عندهم سلاح، ومعهم عدد كبير من الذين حاربوا، ومواردهم متوافرة، ولديهم المال الكثير، ولهم أنصار في البلاد الأخرى .. ولكن قوى الدول العربية المجتمعـة الآن كفيلـة بحسـم الموقف !

وهنا أيضا تغلب الانفعالات الحماسية للنواب المصريين ..

وينتهي خطاب محمود فهمي النقراشي بعاصـفة مـن تصفيقهم الحاد الملتهب..!

ويعود النقراشي في النهاية ليقول:

"هناك الجيش العربي، وهو جيش شرق الأردن، وهـو جيش على درجة عالية من الكفـاءة العسـكرية، وتسـليحه ومعداته وذخيرته وافية .. ما عدا الطيران"!

وهنا يرتفع صوت أحد النواب متسائلاً:

وكم عدد أفراد الجيش العربي؟

يرد عليه النقراشي قائلاً: اسمحوا لي أن أكون متحفظـاً في أسرار الجيوش!

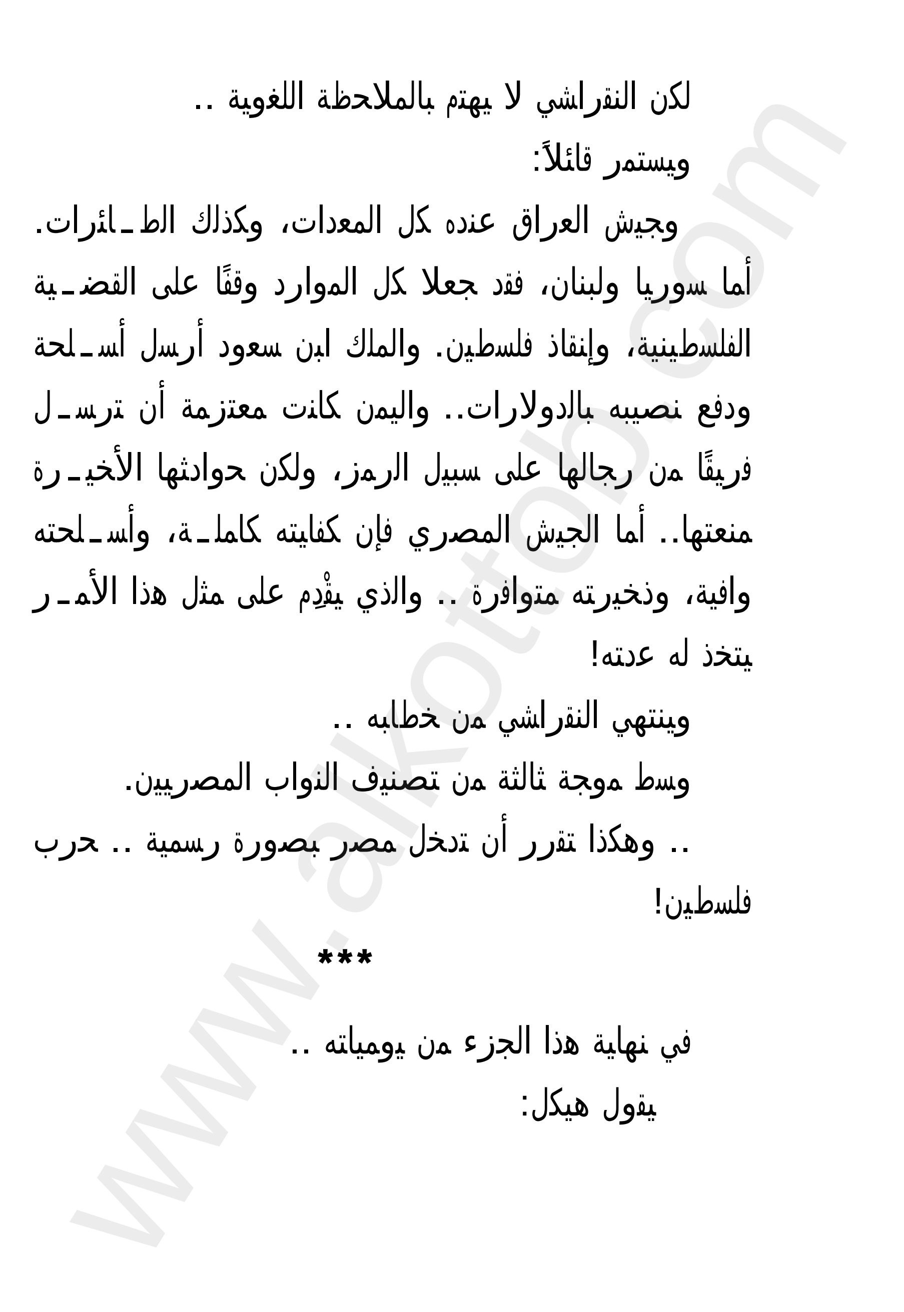
ويقف نائب آخر يتساءل عما قرأه في الصـحف مـن تصريحات للملك عبد ا ضد الهيئة العربية العليا؟

فيجيب النقراشي عليه قائلاً:

ـ أنا تأسفت له .. وفي جرائـد المسـاء تصـريحات لفارس الخوري .. وأظن أنه مدسوس أو مزيف أو محترف .. المهم أنه يلي جيش شرق الأردن جيش العراق الباسلة.

ولأن شر البلية ما يضحك كما يقولون ..

فقد وقف نائب ثالث ليقول: الباسل .. مذكر لا مؤنث..!



لكن النقراشي لا يهتم بالملاحظة اللغوية ..

ويستمر قائلاً:

وجيش العراق عنده كل المعدات، وكذلك الطـائرات. أما سوريا ولبنان، فقد جعلا كل الموارد وقفًا على القضـية الفلسطينية، وإنقاذ فلسطين. والملك ابن سعود أرسل أسـلحة ودفع نصيبه بالدولارات.. واليمن كانت معتزمة أن ترسـل فريقًا من رجالها على سبيل الرمز، ولكن حوادثها الأخيـرة منعتها.. أما الجيش المصري فإن كفايته كاملـة، وأسـلحته وافية، وذخيرته متوافرة .. والذي يقْدِم على مثل هذا الأمـر يتخذ له عدته!

وينتهي النقراشي من خطابه ..

وسط موجة ثالثة من تصنيف النواب المصريين.

.. وهكذا تقرر أن تدخل مصر بصورة رسمية .. حرب فلسطين!

***

في نهاية هذا الجزء من يومياته ..

يقول هيكل:

"إن الفارق الهائل بين هذه الصورة، التي رسمها النقراشي في الجلسة السرية لمجلس النواب . وبين الصورة الحقيقية للموقف كما رسمتها الأحداث، كما برهنت عليها التجارب العملية.. لا يحتاج إلى رد.!

ثم يتساءل هيكل:

كيف رسمت هذه الصورة للموقف في خيال رئيس وزراء مصر؟

ومن هم الأشخاص الذين رسموا له هذه الصورة؟

وما هي العقول التي تضافرت على أن تضع هذه التفاصيل في رأسه؟

وترغمه على أن يتناقض مع نفسه؟

يجيب هيكل على هذه الأسئلة التي طرحها قائلاً:

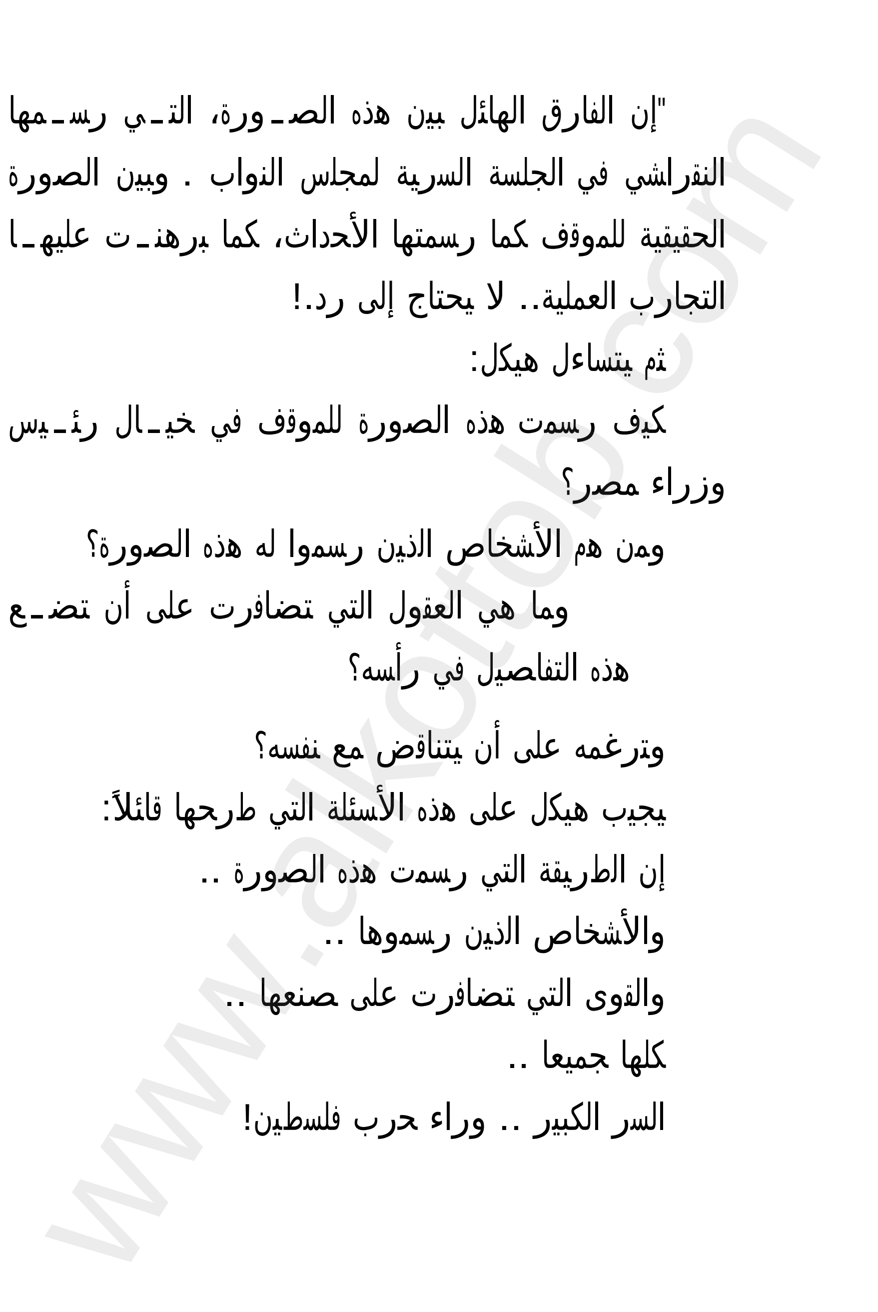
إن الطريقة التي رسمت هذه الصورة ..

والأشخاص الذين رسموها ..

والقوى التي تضافرت على صنعها ..

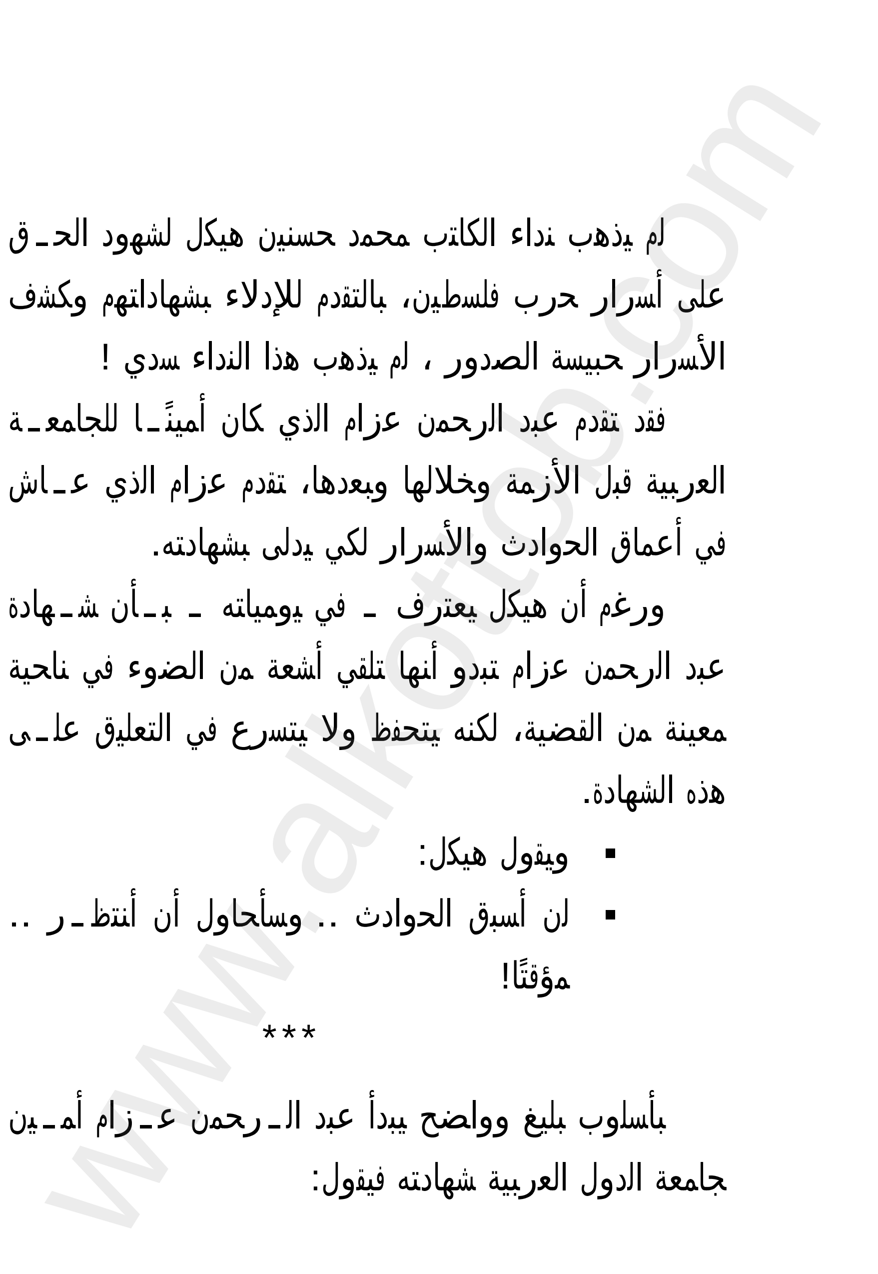
كلها جميعا ..

السر الكبير .. وراء حرب فلسطين!



الفصل السادس

الكارثة .. رسمها الإنجليز من وراء ستار!



لم يذهب نداء الكاتب محمد حسنين هيكل لشهود الحـق على أسرار حرب فلسطين، بالتقدم للإدلاء بشهاداتهم وكشف الأسرار حبيسة الصدور ، لم يذهب هذا النداء سدي !

فقد تقدم عبد الرحمن عزام الذي كان أمينًـا للجامعـة العربية قبل الأزمة وخلالها وبعدها، تقدم عزام الذي عـاش في أعماق الحوادث والأسرار لكي يدلى بشهادته.

ورغم أن هيكل يعترف - في يومياته - بـأن شـهادة عبد الرحمن عزام تبدو أنها تلقي أشعة من الضوء في ناحية معينة من القضية، لكنه يتحفظ ولا يتسرع في التعليق علـى هذه الشهادة.

- ويقول هيكل:
- لن أسبق الحوادث .. وسأحاول أن أنتظـر .. مؤقتًا!

***

بأسلوب بليغ وواضح يبدأ عبد الـرحمن عـزام أمـين جامعة الدول العربية شهادته فيقول:

"قبل أن أقف أمام التاريخ"..

لأفتح قلبي وذاكرتي معه، وأقول بـدوري بعـض مـا أستطيع أن أقوله، عن الظروف التي دخلت فيها مصر حربا رسمية في فلسطين. أريد أن أقول كلمة صغيرة!

أريد أن أتكلم عن المستقبل مستندا إلى عبرة الماضي ..

والشيء الذي أريد أن أقوله شيء واحد، واضـح فـي ذهني، محدد التفاصيل.

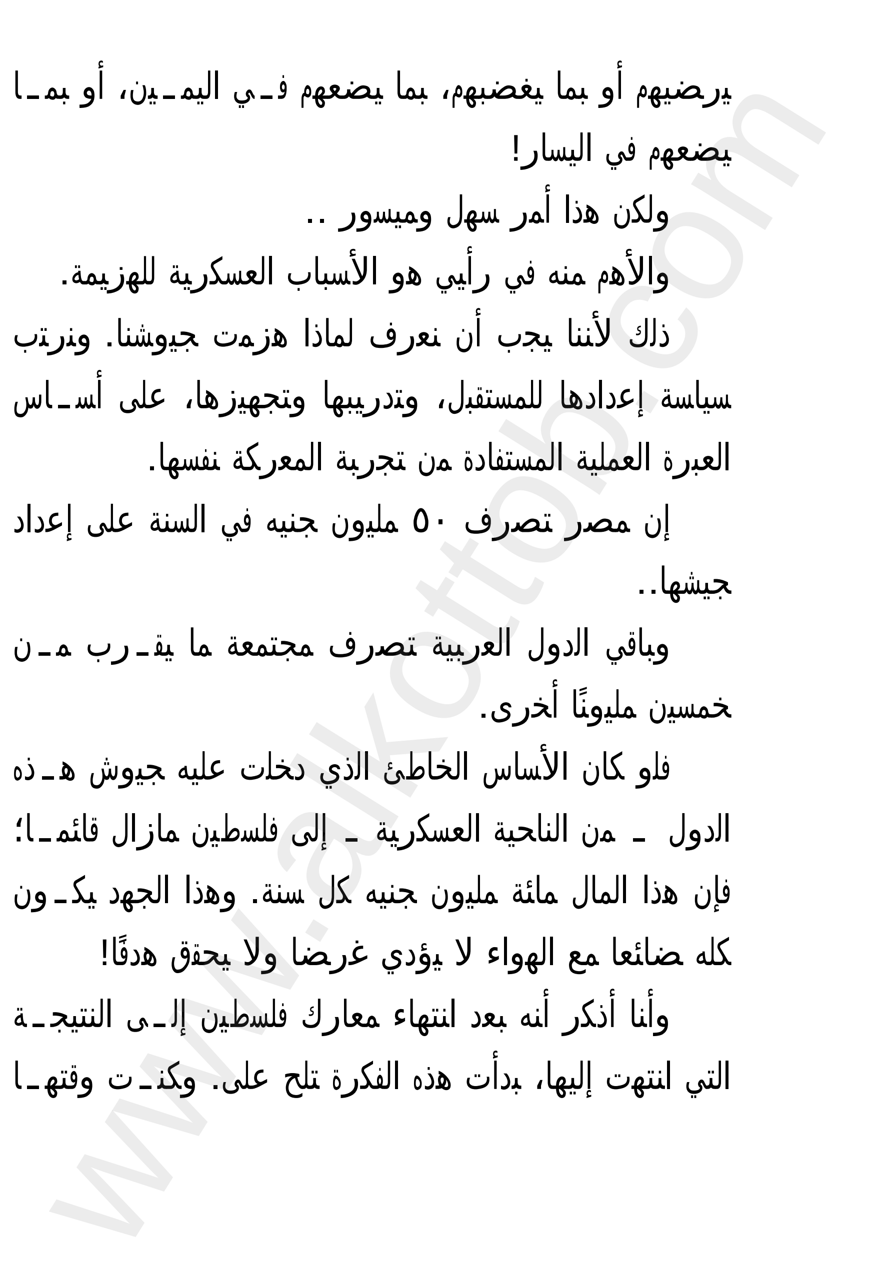
أنا أطالب بالتحقيق في حرب فلسطين!

أطالب بتحقيقٍ ذي اتجاهين..

اتجاه سياسي.. لتحقيق المسئولية في دخـول الحـرب نفسها.

واتجاه عسكري .. لتحقيق أسباب الهزيمة العسكرية بعد الدخول!

والاتجاه السياسي مقدمة، ولكن الاتجاه العسـكري فـي رأيي أهم لأنه هو الذي يمضى إلى المسـتقبل. إن الاتجـاه السياسي لن يقودنا. إلا لأن نحكـم علـى مجموعـة مـن السياسيين، كانوا يتولون أمر البلاد العربية، نحكم عليهم بما



يرضيهم أو بما يغضبهم، بما يضعهم فـي اليمـين، أو بمـا يضعهم في اليسار!

ولكن هذا أمر سهل وميسور ..

والأهم منه في رأيي هو الأسباب العسكرية للهزيمة.

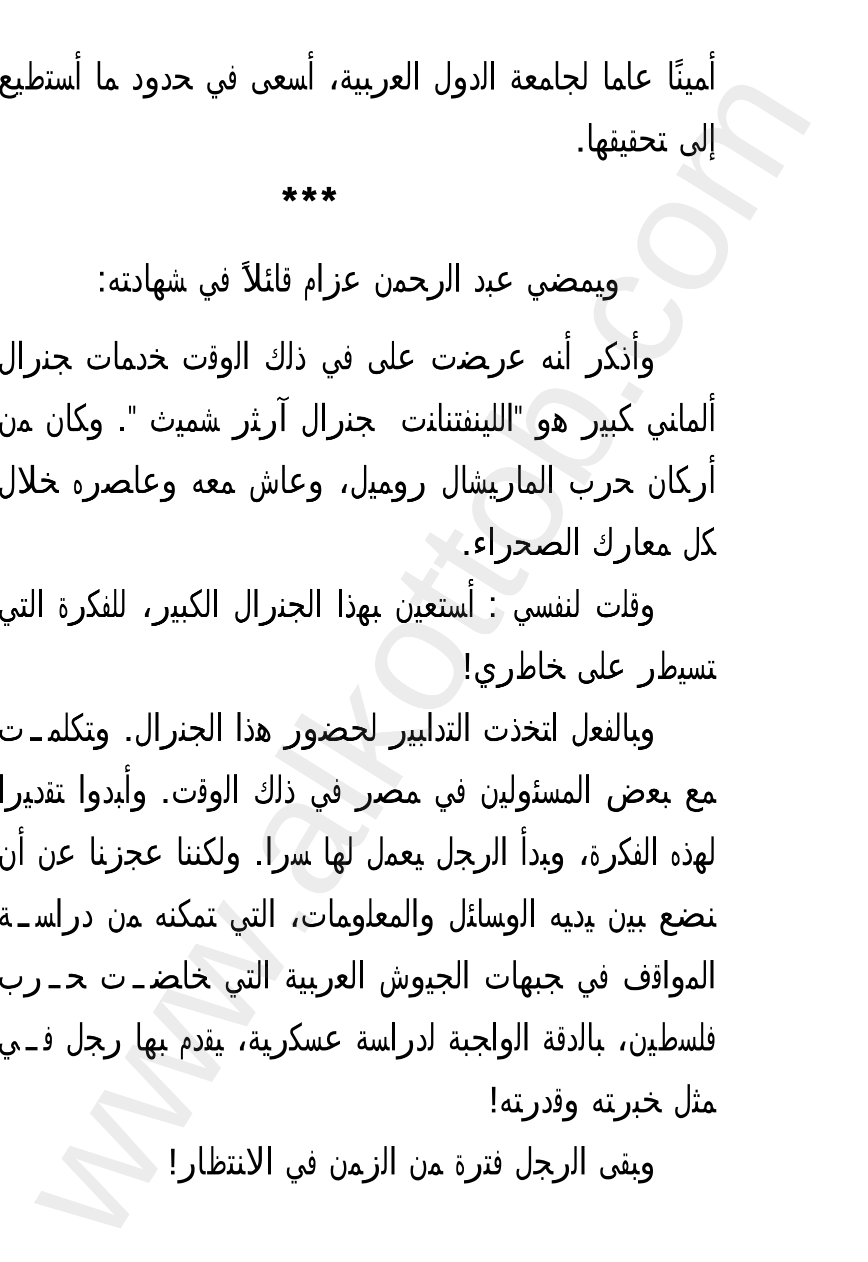
ذلك لأننا يجب أن نعرف لماذا هزمت جيوشنا. ونرتب سياسة إعدادها للمستقبل، وتدريبها وتجهيزها، على أسـاس العبرة العملية المستفادة من تجربة المعركة نفسها.

إن مصر تصرف ٥٠ مليون جنيه في السنة على إعداد جيشها..

وباقي الدول العربية تصرف مجتمعة ما يقـرب مـن خمسين مليونًا أخرى.

فلو كان الأساس الخاطئ الذي دخلت عليه جيوش هـذه الدول ـ من الناحية العسكرية ـ إلى فلسطين مازال قائمـا؛ فإن هذا المال مائة مليون جنيه كل سنة. وهذا الجهد يكـون كله ضائعا مع الهواء لا يؤدي غرضا ولا يحقق هدفًا!

وأنا أذكر أنه بعد انتهاء معارك فلسطين إلـى النتيجـة التي انتهت إليها، بدأت هذه الفكرة تلح على. وكنـت وقتهـا



أمينًا عاما لجامعة الدول العربية، أسعى في حدود ما أستطيع إلى تحقيقها.

***

ويمضي عبد الرحمن عزام قائلاً في شهادته:

وأذكر أنه عرضت على في ذلك الوقت خدمات جنرال ألماني كبير هو "الليفتنانت جنرال آرثر شميث ". وكان من أركان حرب الماريشال روميل، وعاش معه وعاصره خلال كل معارك الصحراء.

وقلت لنفسي : أستعين بهذا الجنرال الكبير، للفكرة التي تسيطر على خاطري!

وبالفعل اتخذت التدابير لحضور هذا الجنرال. وتكلمـت مع بعض المسئولين في مصر في ذلك الوقت. وأبدوا تقديرا لهذه الفكرة، وبدأ الرجل يعمل لها سرا. ولكننا عجزنا عن أن نضع بين يديه الوسائل والمعلومات، التي تمكنه من دراسـة المواقف في جبهات الجيوش العربية التي خاضـت حـرب فلسطين، بالدقة الواجبة لدراسة عسكرية، يقدم بها رجل فـي مثل خبرته وقدرته!

وبقى الرجل فترة من الزمن في الانتظار!

ثم قرر أنه لا يستطيع أن ينتظر أكثر مما انتظر .. ومضى!

وأنا أرجو أن تتكرر المحاولة وتكون ناجحة هذه المرة.

ولقد بت مقتنعا أنه يجب أن تجري هذه المحاولة، ويجب أن تقوم بها مجموعة من العسكريين المحايدين .

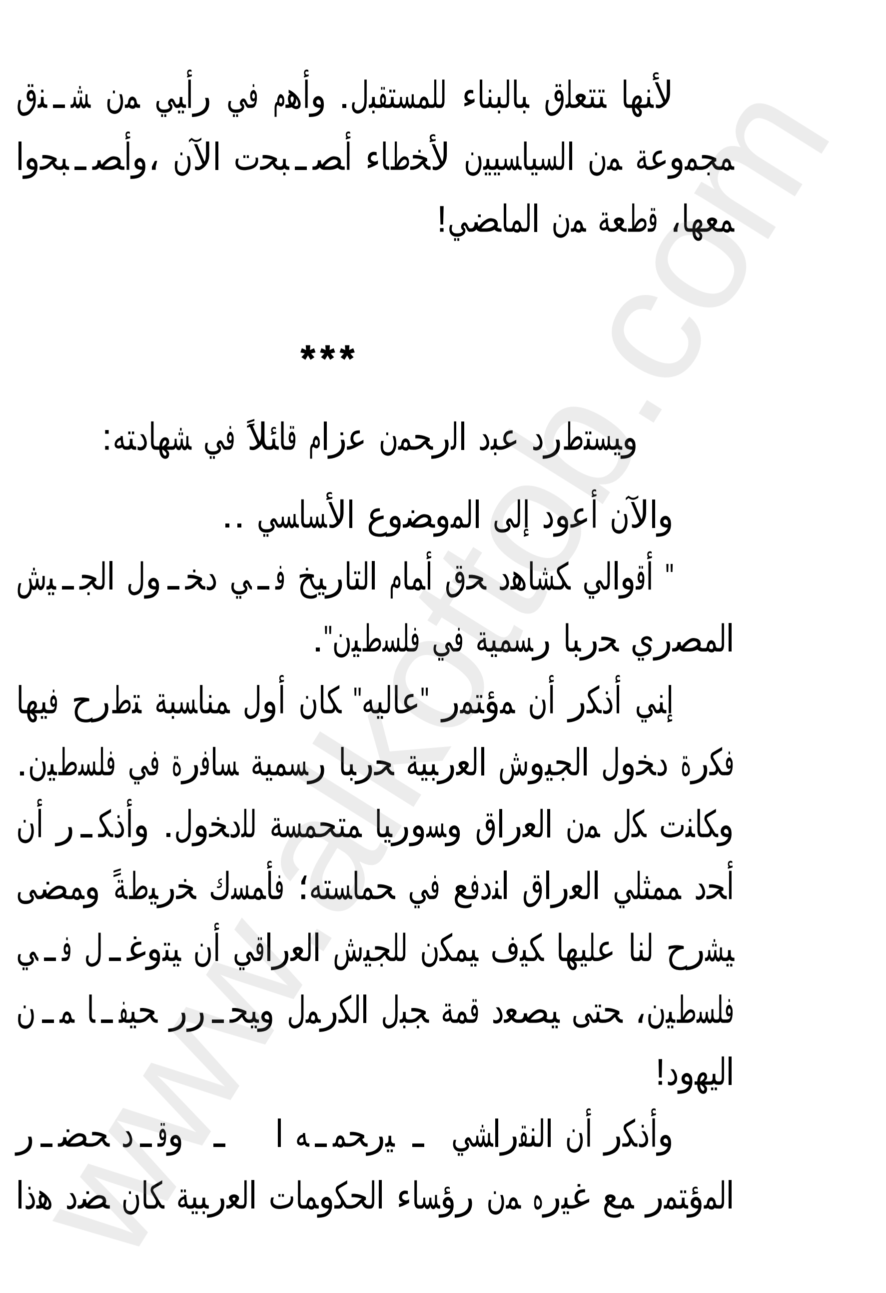
وأنا أقترح استقدام هيئة من الخبراء الألمان، تقوم بهذه الدراسة المحايدة، وتقدم النتيجة إلى هيئات أركان حرب الجيوش العربية، التي تتعهد بألا تغضب من الحقيقة، وإنما تحاول أن تفيد من كارثة التجربة!

وأنا لا أريد أن أسبق الحوادث ..

ولكنني واثق أن أي تحقيق فني محايد، سوف يثبت حقيقة واحدة تبدو على الأقل أمام عيني جلية ظاهرة. هذه الحقيقة هي أننا - نحن العرب - دخلنا فلسطين ونحن أقوى عددا وعدة من اليهود!

بل إنني واثق أنه فيما يتعلق بالمدفعية - مثلاً - كانت مدفعية أي جيش عربي من الجيوش العربية الزاحفة أقوى وحدها من مدفعية اليهود كلها!

هذه مسألة هامة ..



لأنها تتعلق بالبناء للمستقبل. وأهم في رأيي من شنق مجموعة من السياسيين لأخطاء أصبحت الآن ،وأصبحوا معها، قطعة من الماضي!

***

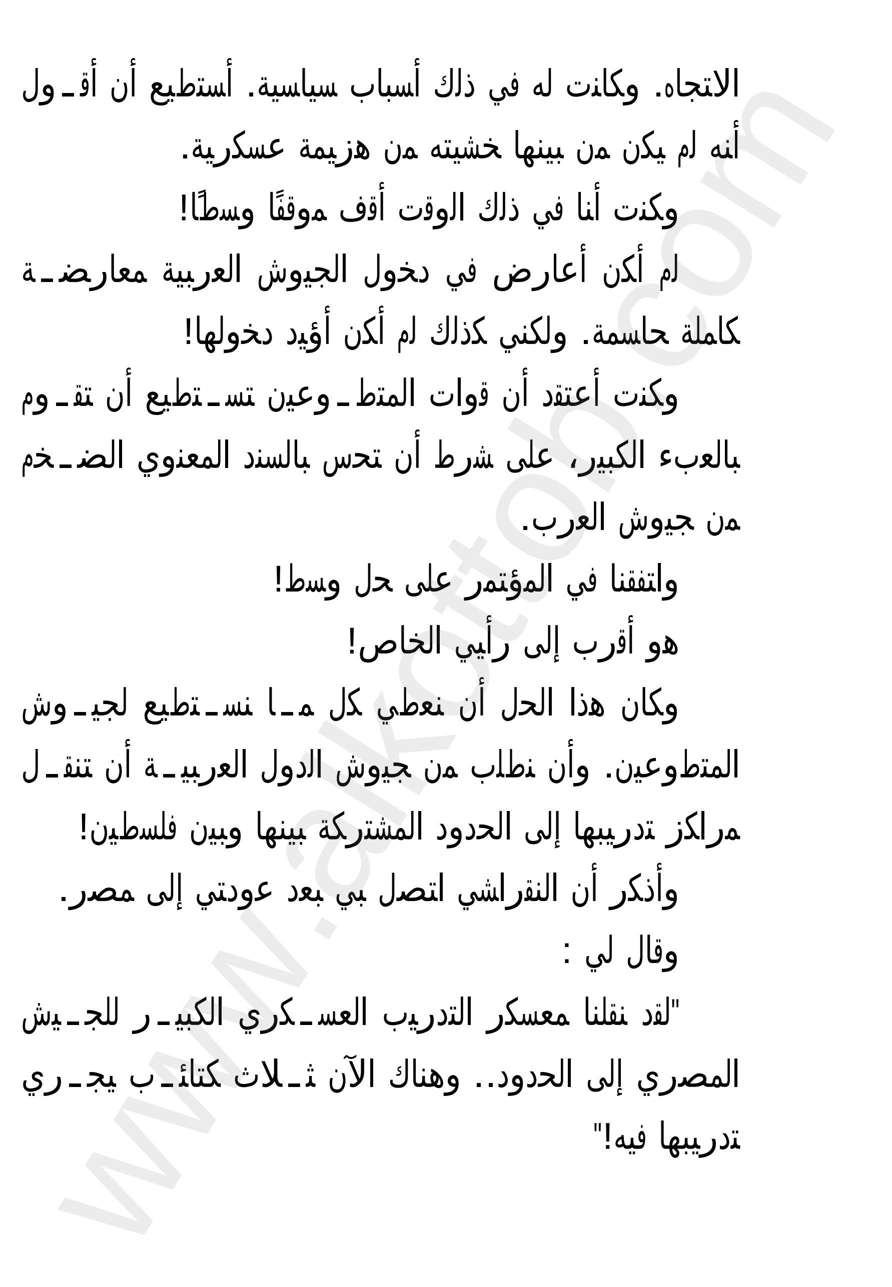
ويستطرد عبد الرحمن عزام قائلاً في شهادته:

والآن أعود إلى الموضوع الأساسي ..

" أقوالي كشاهد حق أمام التاريخ في دخول الجيش المصري حربا رسمية في فلسطين".

إني أذكر أن مؤتمر "عاليه" كان أول مناسبة تطرح فيها فكرة دخول الجيوش العربية حربا رسمية سافرة في فلسطين. وكانت كل من العراق وسوريا متحمسة للدخول. وأذكر أن أحد ممثلي العراق اندفع في حماسته؛ فأمسك خريطةً ومضى يشرح لنا عليها كيف يمكن للجيش العراقي أن يتوغل في فلسطين، حتى يصعد قمة جبل الكرمل ويحرر حيفا من اليهود!

وأذكر أن النقراشي ـ يرحمه ا ـ وقد حضر المؤتمر مع غيره من رؤساء الحكومات العربية كان ضد هذا



الاتجاه. وكانت له في ذلك أسباب سياسية. أستطيع أن أقول أنه لم يكن من بينها خشيته من هزيمة عسكرية.

وكنت أنا في ذلك الوقت أقف موقفًا وسطًا!

لم أكن أعارض في دخول الجيوش العربية معارضة كاملة حاسمة. ولكني كذلك لم أكن أؤيد دخولها!

وكنت أعتقد أن قوات المتطوعين تستطيع أن تقوم بالعبء الكبير، على شرط أن تحس بالسند المعنوي الضخم من جيوش العرب.

واتفقنا في المؤتمر على حل وسط!

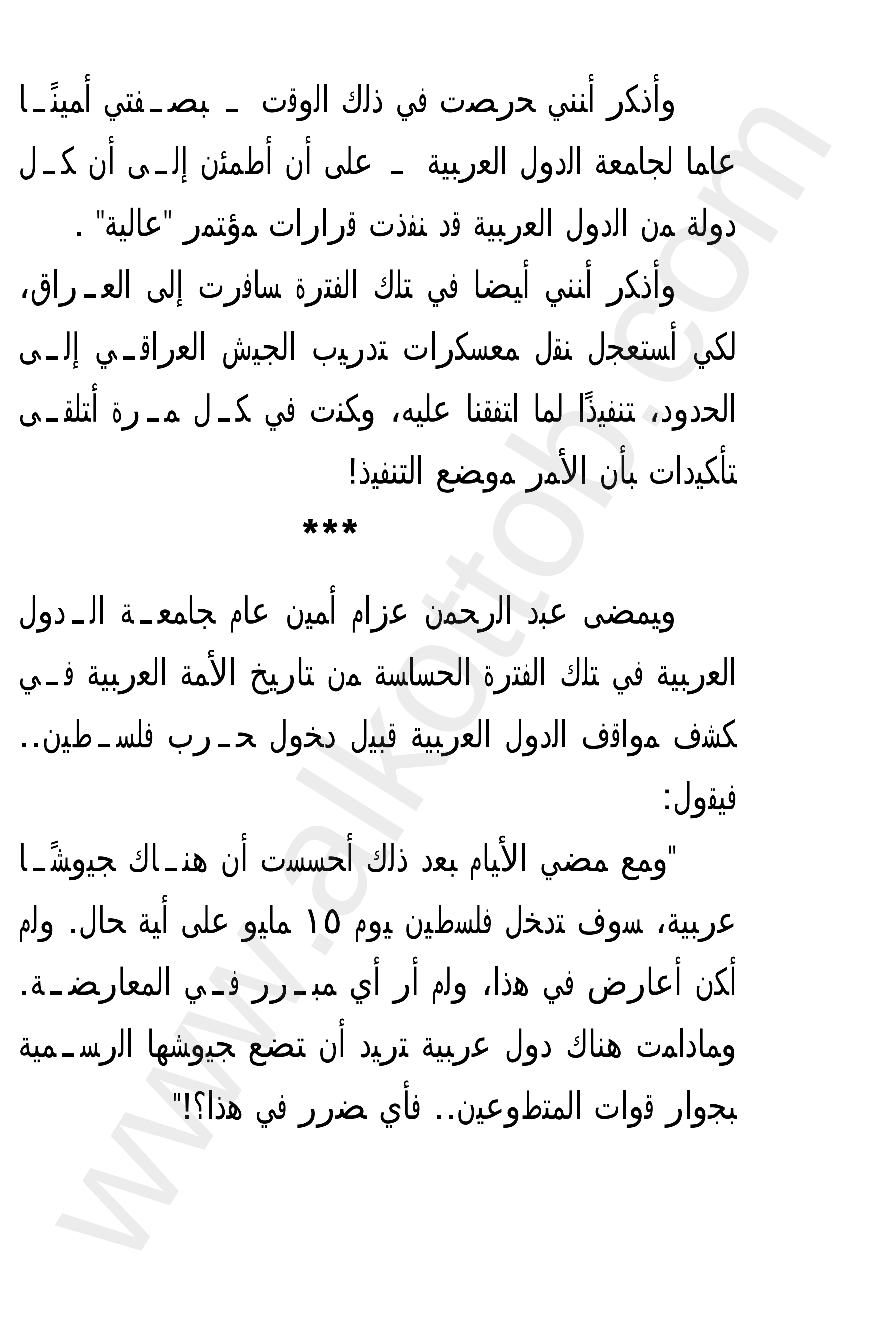
هو أقرب إلى رأيي الخاص!

وكان هذا الحل أن نعطي كل ما نستطيع لجيوش المتطوعين. وأن نطالب من جيوش الدول العربية أن تنقل مراكز تدريبها إلى الحدود المشتركة بينها وبين فلسطين!

وأذكر أن النقراشي اتصل بي بعد عودتي إلى مصر.

وقال لي :

"لقد نقلنا معسكر التدريب العسكري الكبير للجيش المصري إلى الحدود.. وهناك الآن ثلاث كتائب يجري تدريبها فيه!"



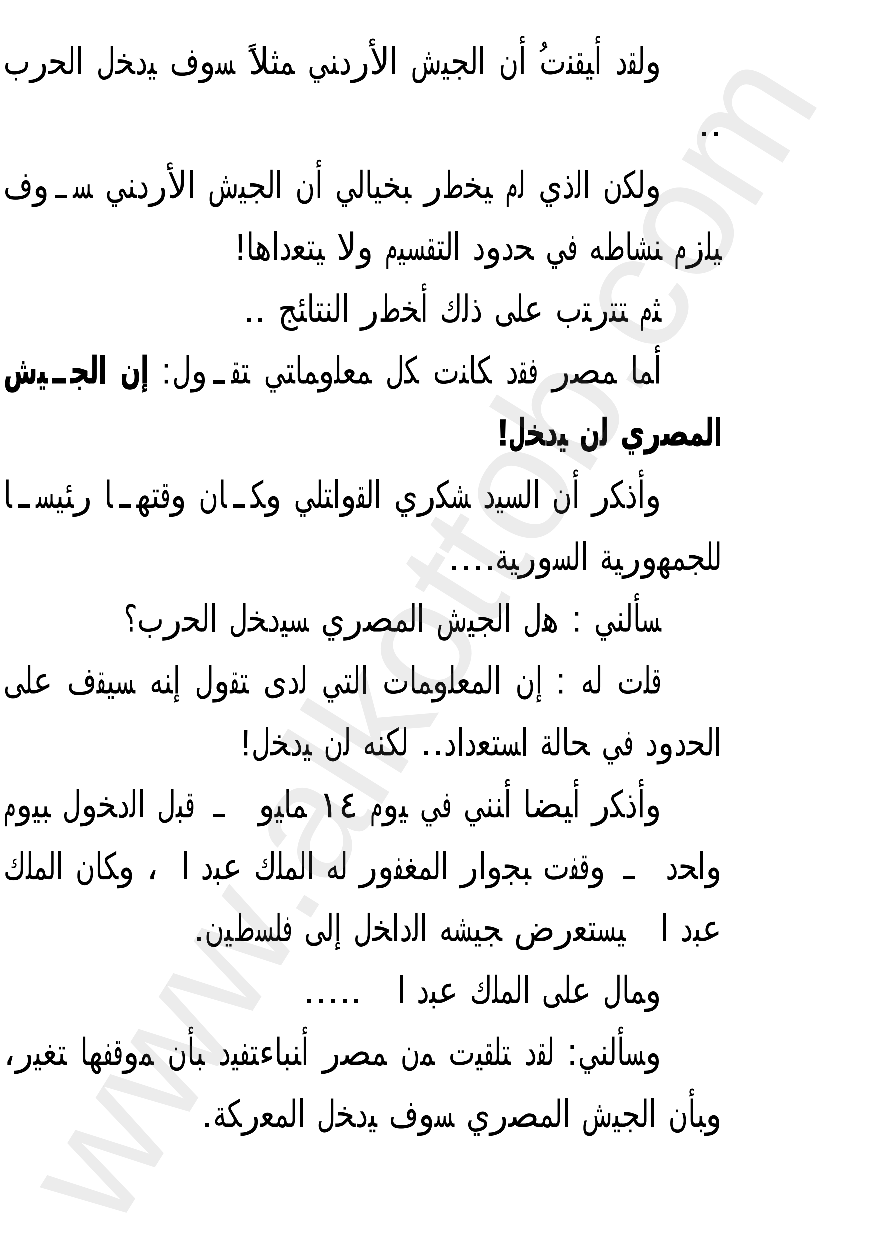
وأذكر أنني حرصت في ذلك الوقت ـ بصـفتي أمينًـا عاما لجامعة الدول العربية ـ على أن أطمئن إلـى أن كـل دولة من الدول العربية قد نفذت قرارات مؤتمر "عالية" .

وأذكر أنني أيضا في تلك الفترة سافرت إلى العـراق، لكي أستعجل نقل معسكرات تدريب الجيش العراقـي إلـى الحدود، تنفيذًا لما اتفقنا عليه، وكنت في كـل مـرة أتلقـى تأكيدات بأن الأمر موضع التنفيذ!

***

ويمضى عبد الرحمن عزام أمين عام جامعـة الـدول العربية في تلك الفترة الحساسة من تاريخ الأمة العربية فـي كشف مواقف الدول العربية قبيل دخول حـرب فلسـطين.. فيقول:

"ومع مضي الأيام بعد ذلك أحسست أن هنـاك جيوشًـا عربية، سوف تدخل فلسطين يوم ١٥ مايو على أية حال. ولم أكن أعارض في هذا، ولم أر أي مبـرر فـي المعارضـة. ومادامت هناك دول عربية تريد أن تضع جيوشها الرسـمية بجوار قوات المتطوعين.. فأي ضرر في هذا؟!"



ولقد أيقنتُ أن الجيش الأردني مثلاً سوف يدخل الحرب ..

ولكن الذي لم يخطر بخيالي أن الجيش الأردني سـوف يلزم نشاطه في حدود التقسيم ولا يتعداها!

ثم تترتب على ذلك أخطر النتائج ..

أما مصر فقد كانت كل معلوماتي تقـول: **إن الجـيش المصري لن يدخل!**

وأذكر أن السيد شكري القواتلي وكـان وقتهـا رئيسـا للجمهورية السورية....

سألني : هل الجيش المصري سيدخل الحرب؟

قلت له : إن المعلومات التي لدى تقول إنه سيقف على الحدود في حالة استعداد.. لكنه لن يدخل!

وأذكر أيضا أنني في يوم ١٤ مايو ـ قبل الدخول بيوم واحد ـ وقفت بجوار المغفور له الملك عبد ا ، وكان الملك عبد ا يستعرض جيشه الداخل إلى فلسطين.

ومال على الملك عبد ا .....

وسألني: لقد تلقيت من مصر أنباءتفيد بأن موقفها تغير، وبأن الجيش المصري سوف يدخل المعركة.

قلت له: إنني لم أسمع بحدوث أي تغييـر.. وأظـن أن الجيش المصري سوف يلازم مواقعه على الحدود المصرية!

ولكن الذي حدث بعد ذلك أن الجيش المصـري دخـل فعلاً!

وأذكر بعدها أنني عدت إلى مصر، وسألت النقراشـي عن سر هذا التحول.

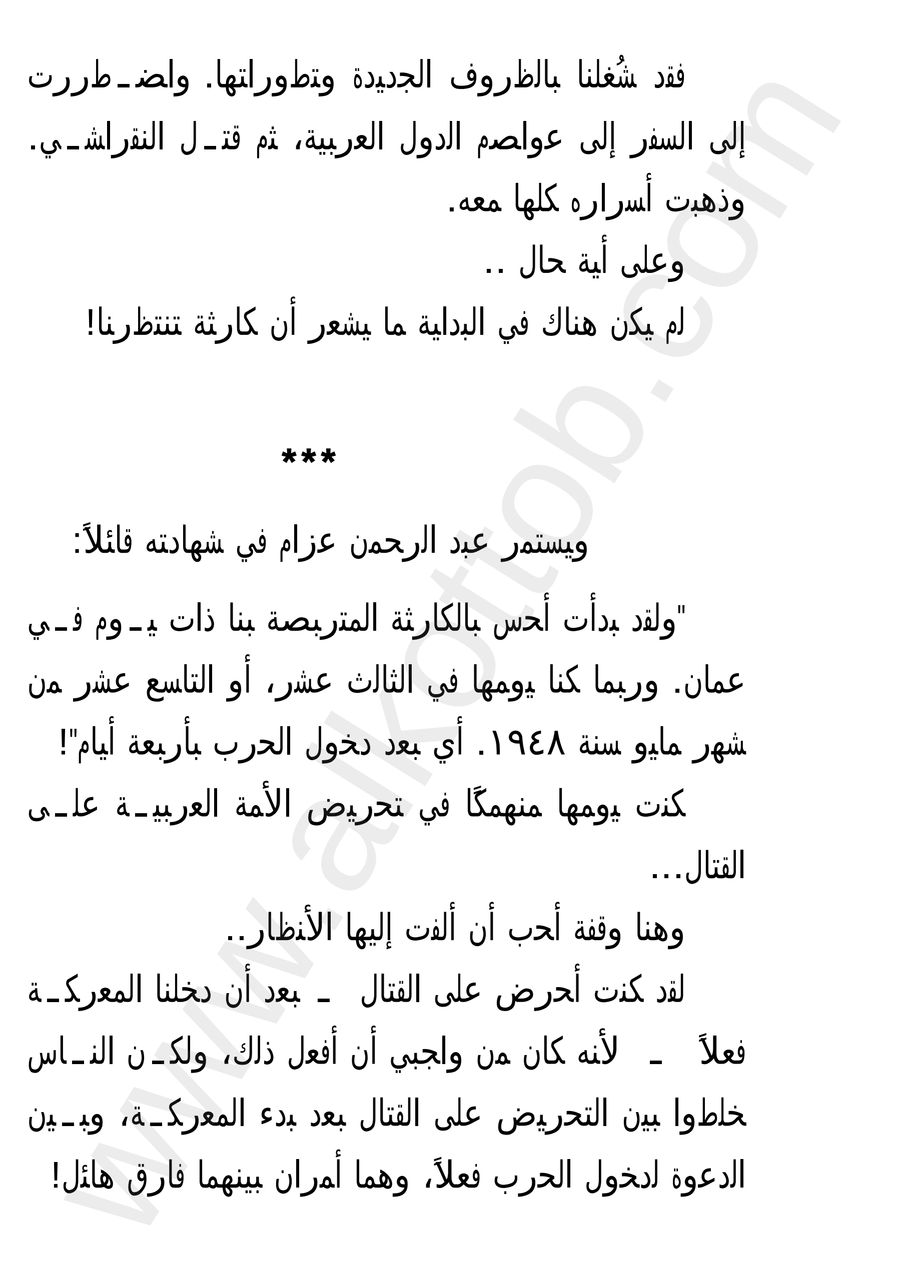
وأذكر أنه قال لي بالحرف الواحد: وا يا عبد الرحمن أنا وجدت أنه لا حالتنا الداخلية، ولا حالة الأمـن فيهـا، ولا كرامتنا تسمح لنا أن ننتظر!

وكانت المعركة تشغلنا في بدايتها عن أي شيء آخر ..

وكنت أحب أن أستزيد مـن النقراشـي أيضـاحا فـي المسائل الثلاث التي أوردها في عباراته وهي:

- حالتنا الداخلية .
- حالة الأمن الداخلي.
- كرامة مصر.

ولكن الظروف لم تواتِني ...



فقد شُغلنا بالظروف الجديدة وتطوراتها. واضطررت إلى السفر إلى عواصم الدول العربية، ثم قتل النقراشي. وذهبت أسراره كلها معه.

وعلى أية حال ..

لم يكن هناك في البداية ما يشعر أن كارثة تنتظرنا!

***

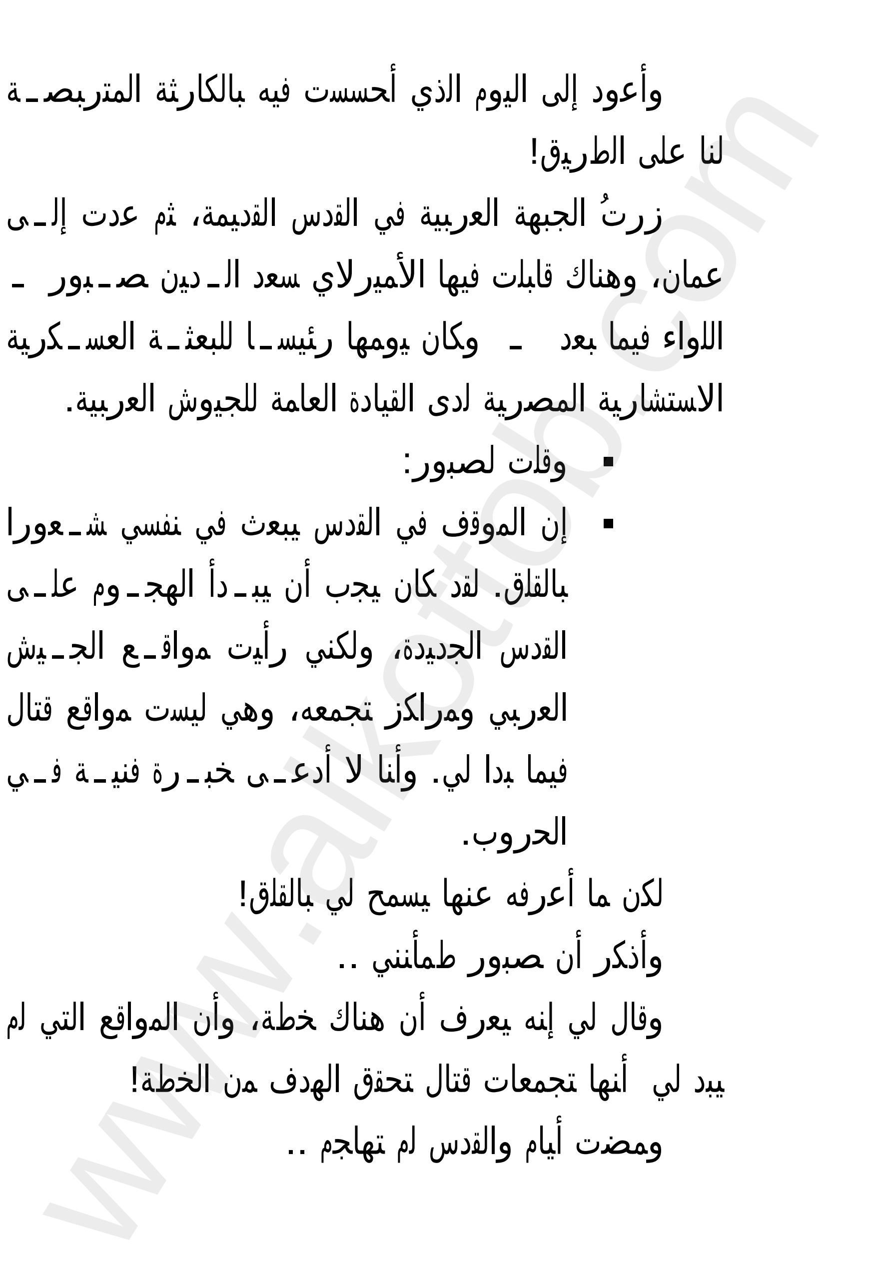
ويستمر عبد الرحمن عزام في شهادته قائلاً:

"ولقد بدأت أحس بالكارثة المتربصة بنا ذات يوم في عمان. وربما كنا يومها في الثالث عشر، أو التاسع عشر من شهر مايو سنة ١٩٤٨. أي بعد دخول الحرب بأربعة أيام"!

كنت يومها منهمكًا في تحريض الأمة العربية على القتال...

وهنا وقفة أحب أن ألفت إليها الأنظار..

لقد كنت أحرض على القتال - بعد أن دخلنا المعركة فعلاً - لأنه كان من واجبي أن أفعل ذلك، ولكن الناس خلطوا بين التحريض على القتال بعد بدء المعركة، وبين الدعوة لدخول الحرب فعلاً، وهما أمران بينهما فارق هائل!



وأعود إلى اليوم الذي أحسست فيه بالكارثة المتربصة لنا على الطريق!

زرتُ الجبهة العربية في القدس القديمة، ثم عدت إلى عمان، وهناك قابلت فيها الأميرلاي سعد الدين صبور - اللواء فيما بعد - وكان يومها رئيسا للبعثة العسكرية الاستشارية المصرية لدى القيادة العامة للجيوش العربية.

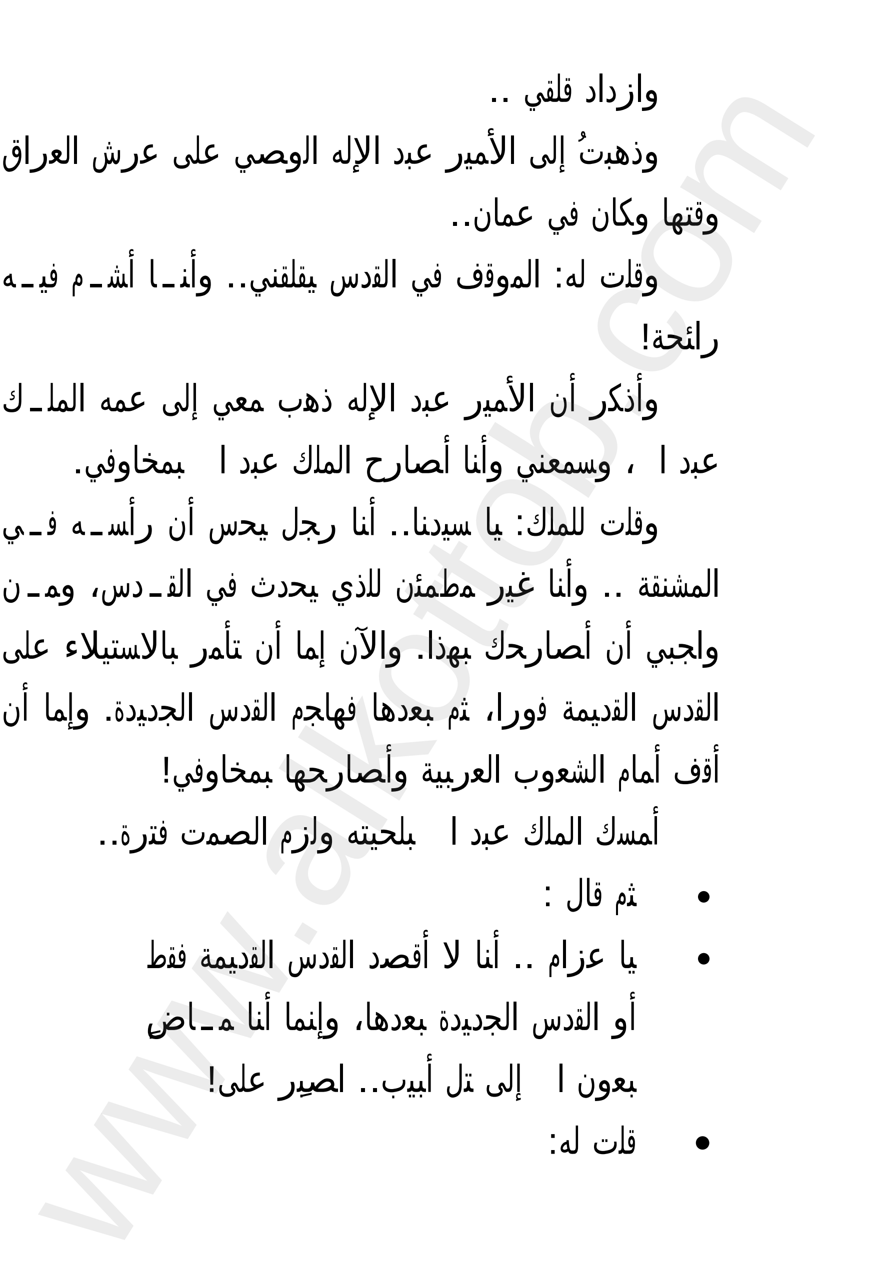
- وقلت لصبور:
- إن الموقف في القدس يبعث في نفسي شعورا بالقلق. لقد كان يجب أن يبدأ الهجوم على القدس الجديدة، ولكني رأيت مواقع الجيش العربي ومراكز تجمعه، وهي ليست مواقع قتال فيما بدا لي. وأنا لا أدعى خبرة فنية في الحروب.

لكن ما أعرفه عنها يسمح لي بالقلق!

وأذكر أن صبور طمأنني ..

وقال لي إنه يعرف أن هناك خطة، وأن المواقع التي لم يبد لي أنها تجمعات قتال تحقق الهدف من الخطة!

ومضت أيام والقدس لم تهاجم ..



وازداد قلقي ..

وذهبتُ إلى الأمير عبد الإله الوصي على عرش العراق وقتها وكان في عمان..

وقلت له: الموقف في القدس يقلقني.. وأنـا أشـم فيـه رائحة!

وأذكر أن الأمير عبد الإله ذهب معي إلى عمه الملـك عبد ا ، وسمعني وأنا أصارح الملك عبد ا بمخاوفي.

وقلت للملك: يا سيدنا.. أنا رجل يحس أن رأسـه فـي المشنقة .. وأنا غير مطمئن للذي يحدث في القـدس، ومـن واجبي أن أصارحك بهذا. والآن إما أن تأمر بالاستيلاء على القدس القديمة فورا، ثم بعدها فهاجم القدس الجديدة. وإما أن أقف أمام الشعوب العربية وأصارحها بمخاوفي!

أمسك الملك عبد ا بلحيته ولزم الصمت فترة..

- ثم قال :
- يا عزام .. أنا لا أقصد القدس القديمة فقط أو القدس الجديدة بعدها، وإنما أنا مـاضٍ بعون ا إلى تل أبيب.. اصبِر على!
- قلت له:

- إذا دخلت إلى تل أبيب، فسوف أقف فيهـا وأتوجـه، حتى ضد الأمة العربية كلها!

قال لي الملك عبد ا : انتظر على.. سوف نهاجم القدس القديمة ونطهرها.. وسوف نحاصر القدس الجديدة ونسـقطها بالحصار.. وبعدها تل أبيب!

وانتظرت ..

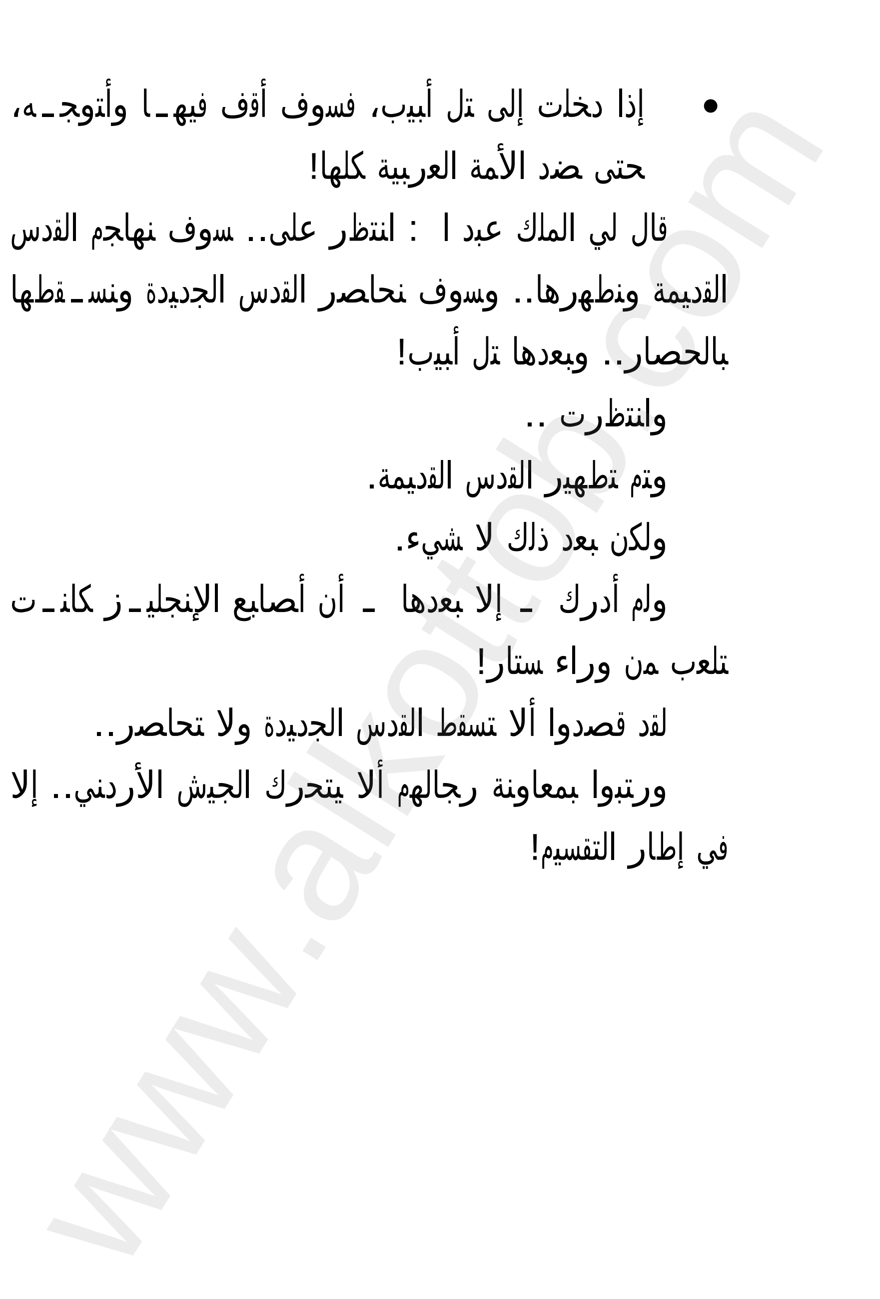
وتم تطهير القدس القديمة.

ولكن بعد ذلك لا شيء.

ولم أدرك ـ إلا بعدها ـ أن أصابع الإنجليـز كانـت تلعب من وراء ستار!

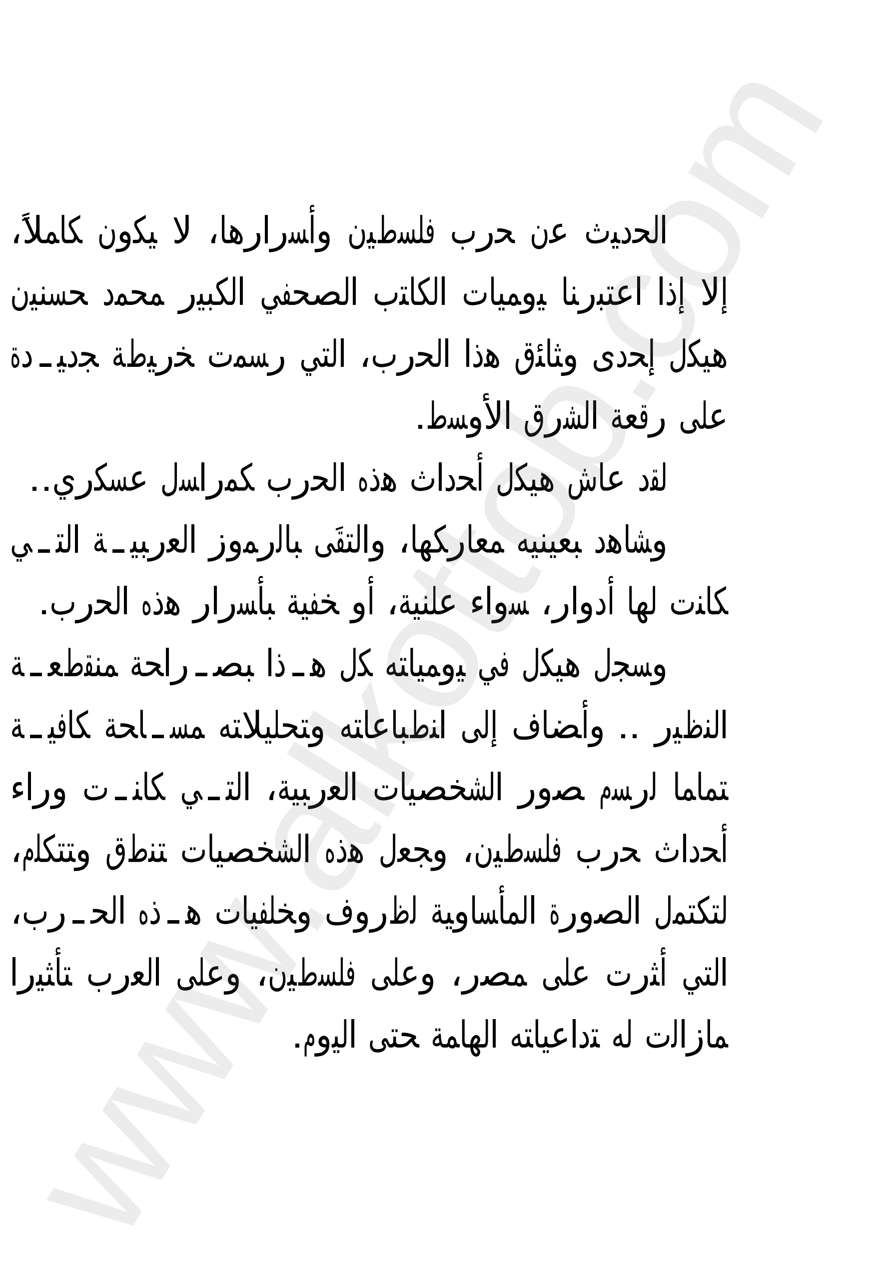
لقد قصدوا ألا تسقط القدس الجديدة ولا تحاصر..

ورتبوا بمعاونة رجالهم ألا يتحرك الجيش الأردني.. إلا في إطار التقسيم!



الفصل السابع

مفتي فلسطين .. يطلب ١٢ إجابة !

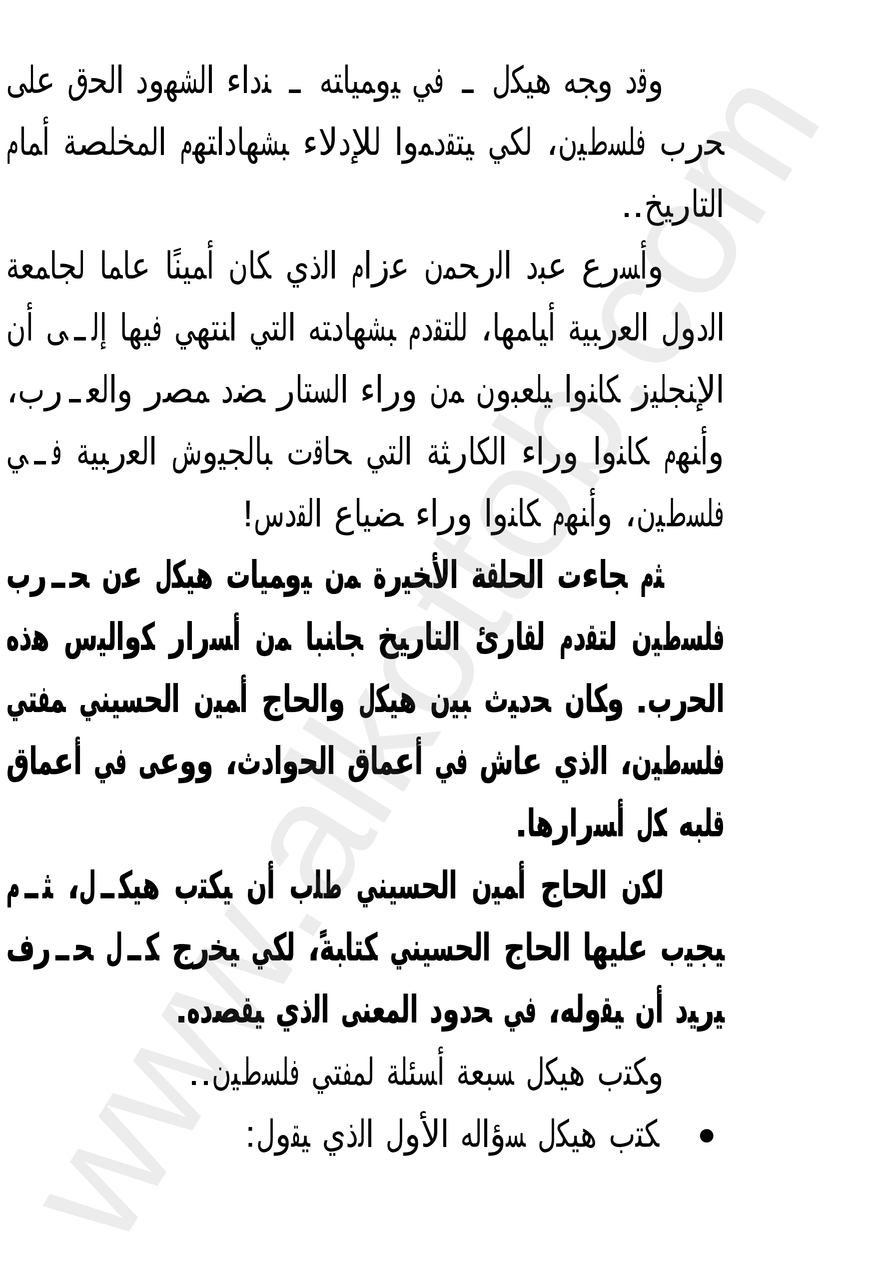


الحديث عن حرب فلسطين وأسرارها، لا يكون كاملاً، إلا إذا اعتبرنا يوميات الكاتب الصحفي الكبير محمد حسنين هيكل إحدى وثائق هذا الحرب، التي رسمت خريطة جديـدة على رقعة الشرق الأوسط.

لقد عاش هيكل أحداث هذه الحرب كمراسل عسكري..

وشاهد بعينيه معاركها، والتقَى بالرموز العربيـة التـي كانت لها أدوار، سواء علنية، أو خفية بأسرار هذه الحرب.

وسجل هيكل في يومياته كل هـذا بصـراحة منقطعـة النظير .. وأضاف إلى انطباعاته وتحليلاته مسـاحة كافيـة تماما لرسم صور الشخصيات العربية، التـي كانـت وراء أحداث حرب فلسطين، وجعل هذه الشخصيات تنطق وتتكلم، لتكتمل الصورة المأساوية لظروف وخلفيات هـذه الحـرب، التي أثرت على مصر، وعلى فلسطين، وعلى العرب تأثيرا مازالت له تداعياته الهامة حتى اليوم.



وقد وجه هيكل ـ في يومياته ـ نداء الشهود الحق على حرب فلسطين، لكي يتقدموا للإدلاء بشهاداتهم المخلصة أمام التاريخ..

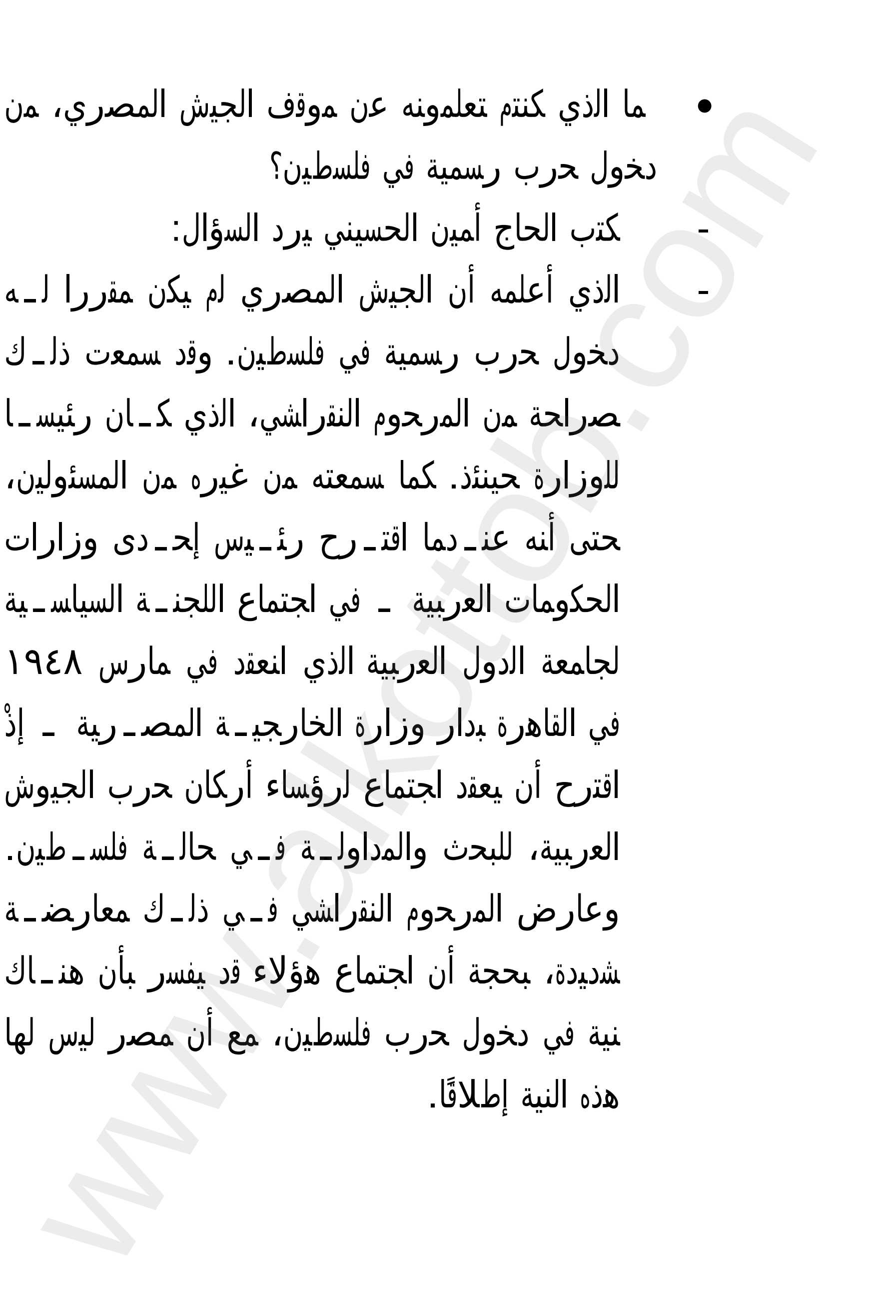
وأسرع عبد الرحمن عزام الذي كان أمينًا عاما لجامعة الدول العربية أيامها، للتقدم بشهادته التي انتهي فيها إلـى أن الإنجليز كانوا يلعبون من وراء الستار ضد مصر والعـرب، وأنهم كانوا وراء الكارثة التي حاقت بالجيوش العربية فـي فلسطين، وأنهم كانوا وراء ضياع القدس!

ثم جاءت الحلقة الأخيرة من يوميات هيكل عن حـرب فلسطين لتقدم لقارئ التاريخ جانبا من أسرار كواليس هذه الحرب. وكان حديث بين هيكل والحاج أمين الحسيني مفتي فلسطين، الذي عاش في أعماق الحوادث، ووعى في أعماق قلبه كل أسرارها.

لكن الحاج أمين الحسيني طلب أن يكتب هيكـل، ثـم يجيب عليها الحاج الحسيني كتابةً، لكي يخرج كـل حـرف يريد أن يقوله، في حدود المعنى الذي يقصده.

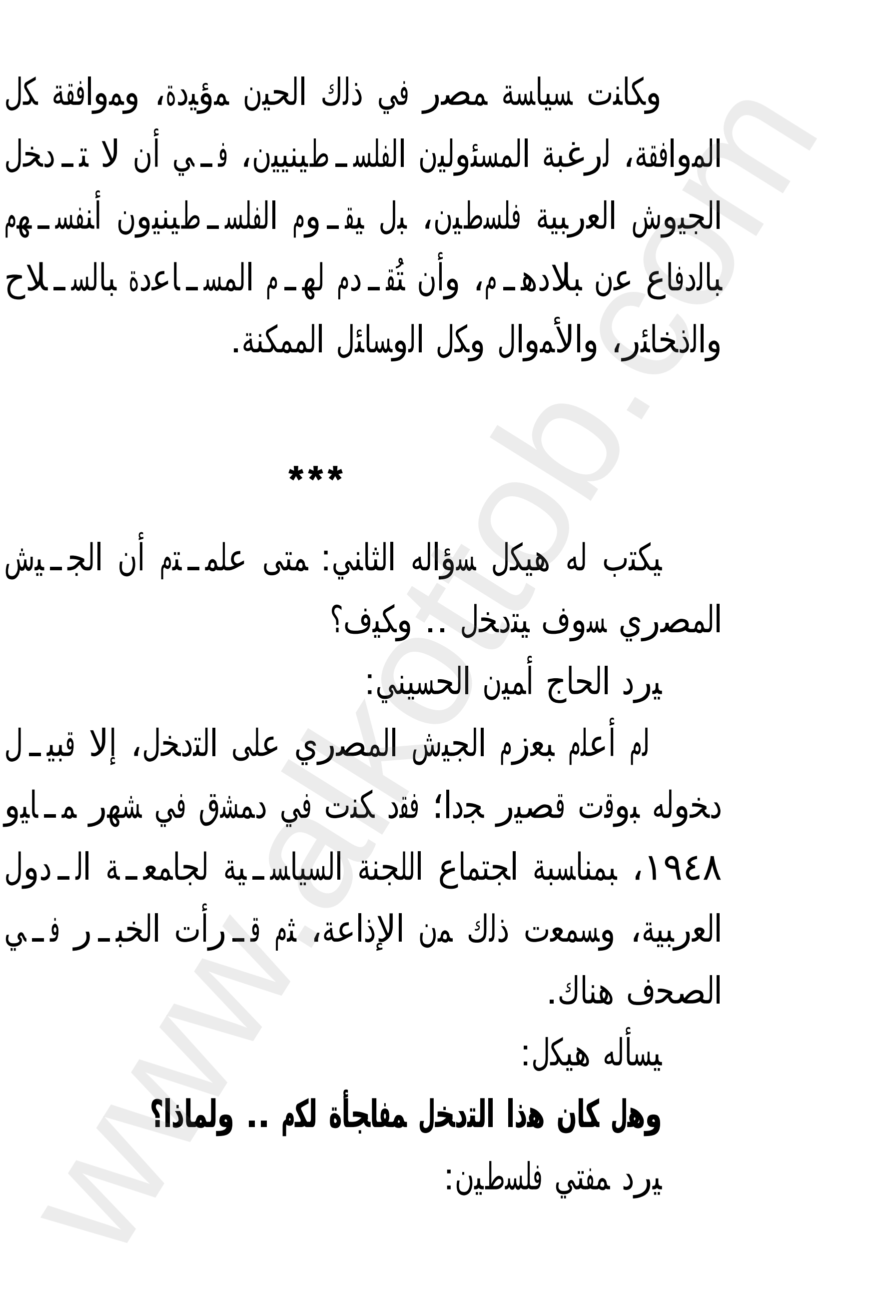
وكتب هيكل سبعة أسئلة لمفتي فلسطين..

- كتب هيكل سؤاله الأول الذي يقول:



- ما الذي كنتم تعلمونه عن موقف الجيش المصري، من دخول حرب رسمية في فلسطين؟

- كتب الحاج أمين الحسيني يرد السؤال:
- الذي أعلمه أن الجيش المصري لم يكن مقررا لـه دخول حرب رسمية في فلسطين. وقد سمعت ذلـك صراحة من المرحوم النقراشي، الذي كـان رئيسـا للوزارة حينئذ. كما سمعته من غيره من المسئولين، حتى أنه عنـدما اقتـرح رئـيس إحـدى وزارات الحكومات العربية - في اجتماع اللجنـة السياسـية لجامعة الدول العربية الذي انعقد في مارس ١٩٤٨ في القاهرة بدار وزارة الخارجيـة المصـرية - إذْ اقترح أن يعقد اجتماع لرؤساء أركان حرب الجيوش العربية، للبحث والمداولـة فـي حالـة فلسـطين. وعارض المرحوم النقراشي فـي ذلـك معارضـة شديدة، بحجة أن اجتماع هؤلاء قد يفسر بأن هنـاك نية في دخول حرب فلسطين، مع أن مصر ليس لها هذه النية إطلاقًا.



وكانت سياسة مصر في ذلك الحين مؤيدة، وموافقة كل الموافقة، لرغبة المسئولين الفلسطينيين، في أن لا تدخل الجيوش العربية فلسطين، بل يقوم الفلسطينيون أنفسهم بالدفاع عن بلادهم، وأن تُقدم لهم المساعدة بالسلاح والذخائر، والأموال وكل الوسائل الممكنة.

***

يكتب له هيكل سؤاله الثاني: متى علمتم أن الجيش المصري سوف يتدخل .. وكيف؟

يرد الحاج أمين الحسيني:

لم أعلم بعزم الجيش المصري على التدخل، إلا قبيل دخوله بوقت قصير جدا؛ فقد كنت في دمشق في شهر مايو ١٩٤٨، بمناسبة اجتماع اللجنة السياسية لجامعة الدول العربية، وسمعت ذلك من الإذاعة، ثم قرأت الخبر في الصحف هناك.

يسأله هيكل:

وهل كان هذا التدخل مفاجأة لكم .. ولماذا؟

يرد مفتي فلسطين:

لقد كان دخول الجيش المصري مفاجأة كبرى لي . لأني كنت مطلعا على خطة مصر، ورغبتها الأكيـدة فـي عـدم الدخول.

يسأله هيكل:

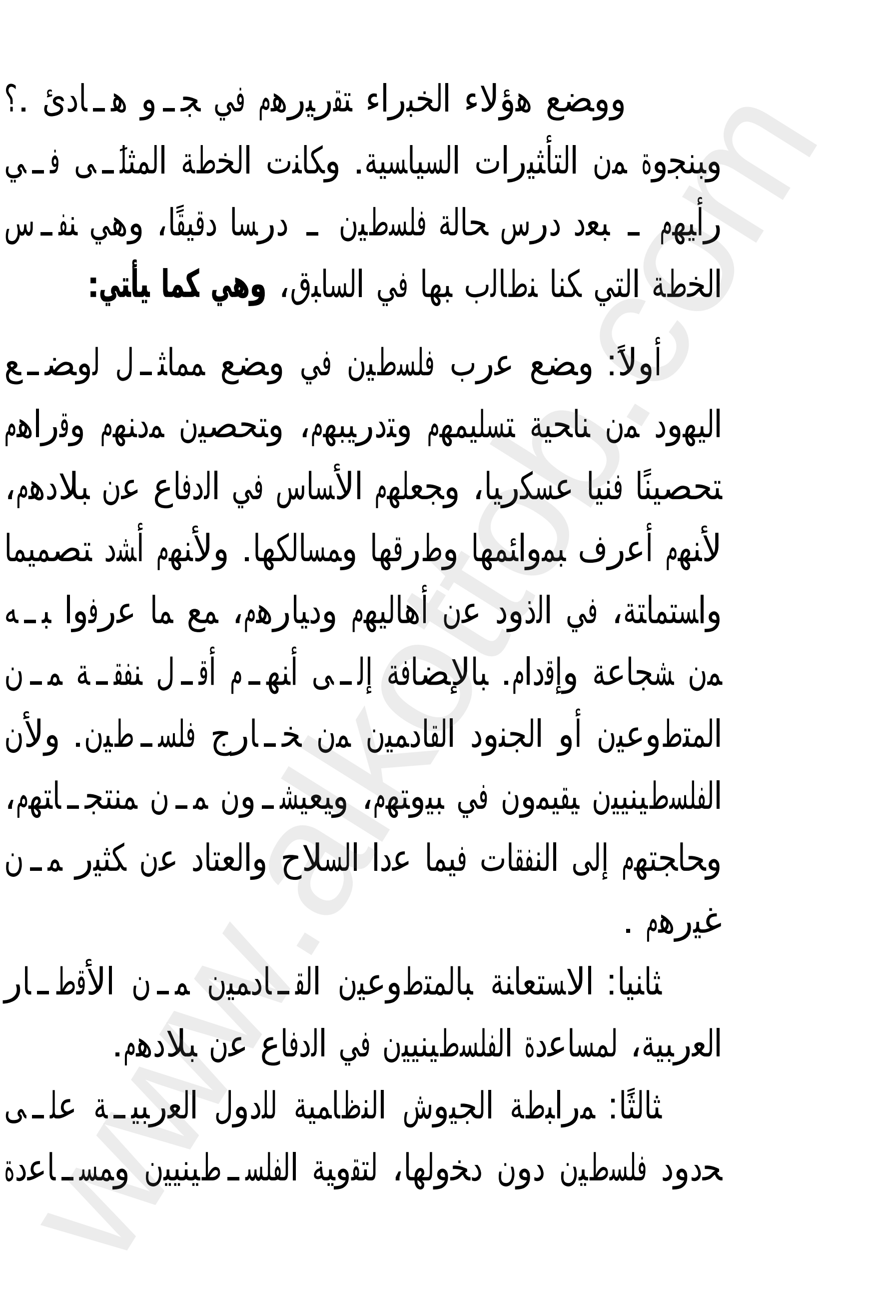
وهل كان من رأيكم هذا التدخل .. ولماذا؟

يرد الحاج أمين الحسيني:

لم يكن من رأيي دخول الجيوش العربية فلسطين، بـل كان رأيي أن يقوم أهل فلسطين أنفسهم بالدفاع عن بلادهـم. مؤيدين بمساعدة الأقطـار العربيـة بالأسـلحة والـذخائر والأموال، والخبراء العسكريين والمتطوعين.

لقد كنت دائما أرى أن صالح القضية الفلسطينية، في أن يقوم الفلسطينيون أنفسهم بالدفاع عن وطنهم، وأعلنت الـدول العربية بهذا الرأي، وطالبت بالعمل به مرارا.

وقد وافقت الدول العربية على هذه الخطة بوجه عـام. ففي دورة مجلس جامعة الدول العربية (المنعقدة في عاليـة بلبنان في السابع من أكتوبر ١٩٤٧) قرر المجلس اسـتدعاء خبراء عسكريين من الأقطار العربية، لوضع تقريـر عـن أفضل الطرق للدفاع عن فلسطين.

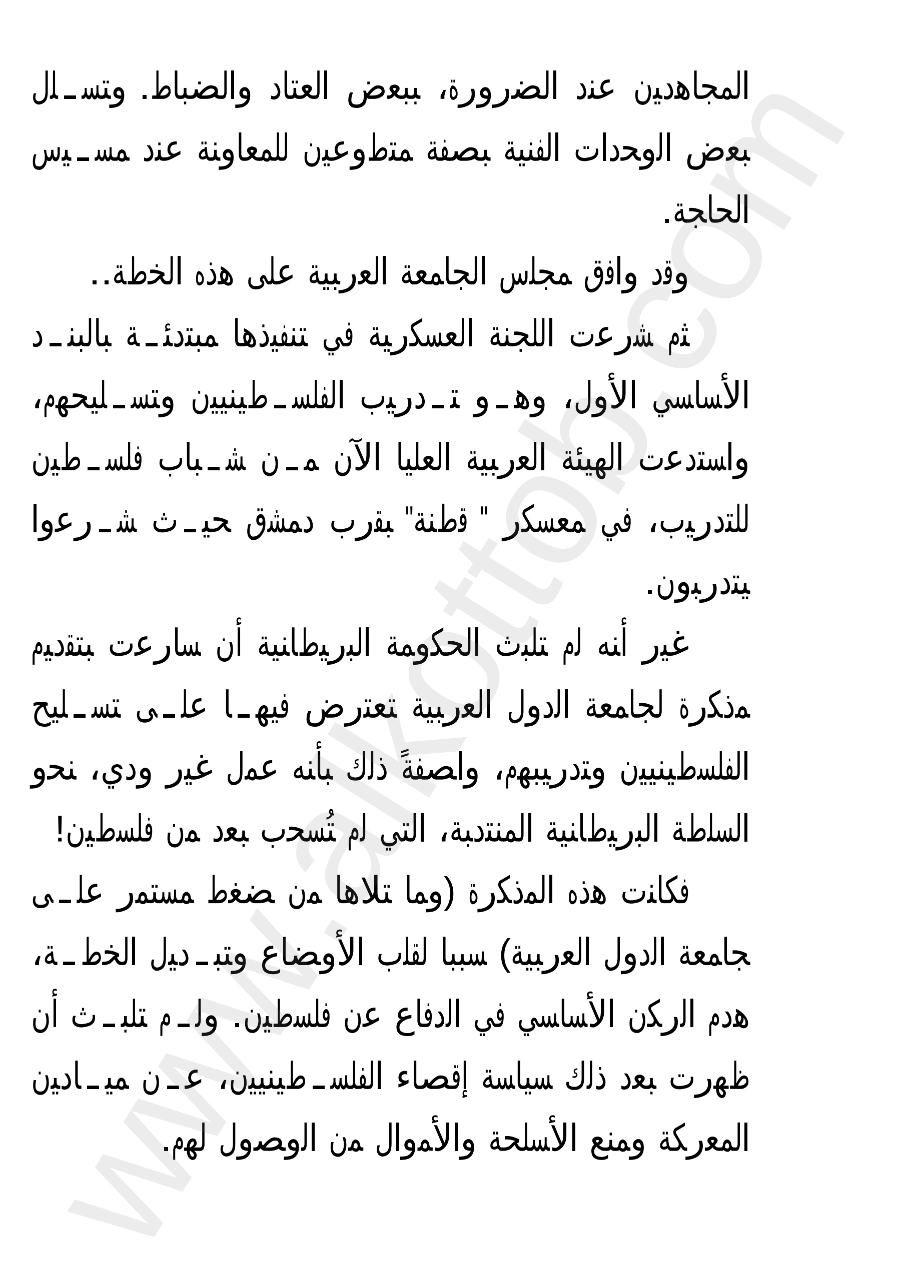


ووضع هؤلاء الخبراء تقريرهم في جـو هـادئ .؟ وبنجوة من التأثيرات السياسية. وكانت الخطة المثلـى فـي رأيهم ـ بعد درس حالة فلسطين ـ درسا دقيقًا، وهي نفـس الخطة التي كنا نطالب بها في السابق، **وهي كما يأتي:**

أولاً: وضع عرب فلسطين في وضع مماثـل لوضـع اليهود من ناحية تسليمهم وتدريبهم، وتحصين مدنهم وقراهم تحصينًا فنيا عسكريا، وجعلهم الأساس في الدفاع عن بلادهم، لأنهم أعرف بمواقعها وطرقها ومسالكها. ولأنهم أشد تصميما واستماتة، في الذود عن أهاليهم وديارهم، مع ما عرفوا بـه من شجاعة وإقدام. بالإضافة إلـى أنهـم أقـل نفقـة مـن المتطوعين أو الجنود القادمين من خـارج فلسـطين. ولأن الفلسطينيين يقيمون في بيوتهم، ويعيشـون مـن منتجـاتهم، وحاجتهم إلى النفقات فيما عدا السلاح والعتاد عن كثير مـن غيرهم .

ثانيا: الاستعانة بالمتطوعين القـادمين مـن الأقطـار العربية، لمساعدة الفلسطينيين في الدفاع عن بلادهم.

ثالثًا: مرابطة الجيوش النظامية للدول العربيـة علـى حدود فلسطين دون دخولها، لتقوية الفلسـطينيين ومسـاعدة



المجاهدين عند الضرورة، ببعض العتاد والضباط. وتسـال بعض الوحدات الفنية بصفة متطوعين للمعاونة عند مسـيس الحاجة.

وقد وافق مجلس الجامعة العربية على هذه الخطة..

ثم شرعت اللجنة العسكرية في تنفيذها مبتدئـة بالبنـد الأساسي الأول، وهـو تـدريب الفلسـطينيين وتسـليحهم، واستدعت الهيئة العربية العليا الآن مـن شـباب فلسـطين للتدريب، في معسكر " قطنة" بقرب دمشق حيـث شـرعوا يتدربون.

غير أنه لم تلبث الحكومة البريطانية أن سارعت بتقديم مذكرة لجامعة الدول العربية تعترض فيهـا علـى تسـليح الفلسطينيين وتدريبهم، واصفةً ذلك بأنه عمل غير ودي، نحو السلطة البريطانية المنتدبة، التي لم تُسحب بعد من فلسطين!

فكانت هذه المذكرة (وما تلاها من ضغط مستمر علـى جامعة الدول العربية) سببا لقلب الأوضاع وتبـديل الخطـة، هدم الركن الأساسي في الدفاع عن فلسطين. ولـم تلبـث أن ظهرت بعد ذلك سياسة إقصاء الفلسـطينيين، عـن ميـادين المعركة ومنع الأسلحة والأموال من الوصول لهم.

***

ويلقى هيكل بسؤاله الخامس على مفتي فلسطين: هـل تعتقد أن تغييرا طرأ في الأيام الأخيرة على موقـف مصـر الرسمي؟

فيرد الحاج أمين الحسيني:

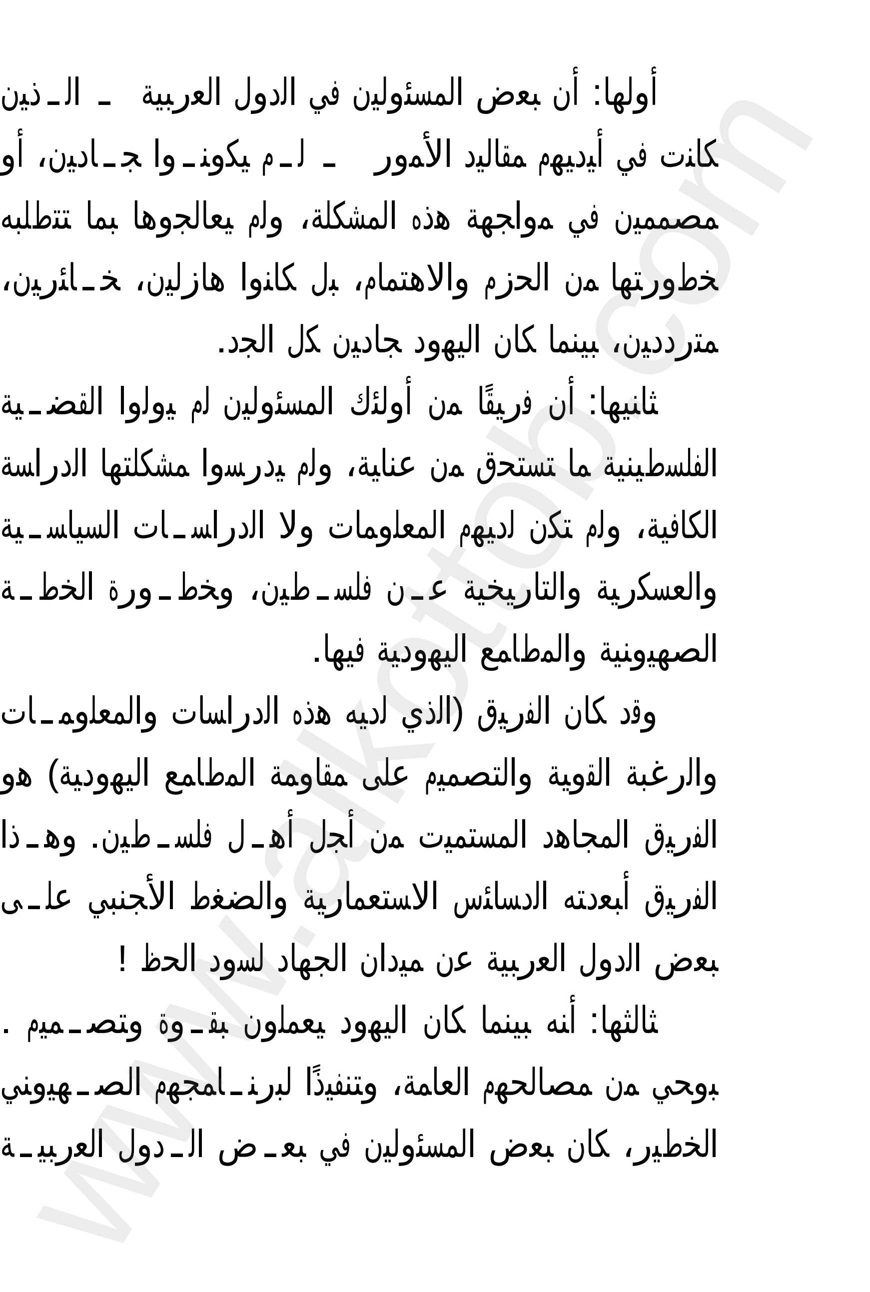
يبدو لي أن أسباب التغيير في موقف مصر لا تخلو من عوامل داخلية وخارجية. ولعله كان للرأي العام في مصـر والبلاد العربية كلها (الذي كان شديد الحماسة في ذلك الحين، وبقرار بعض الدول العربية بدخول جيوشها فلسطين) بعض الأثر في تغيير موقف مصر.

يسأله هيكل:

ولماذا وصلت المسائل إلى ما وصـلت إليـه فعـلاً.. ولماذا انتهى التدخل الرسمي بالجيوش العربيـة إلـى هـذه الكارثة التي وصلنا إليها .. ومن المسئول؟

يرد مفتي فلسطين:

إن تردي القضية ووصولها إلى هذا الدرك يرجع إلـى أسباب عديدة:-

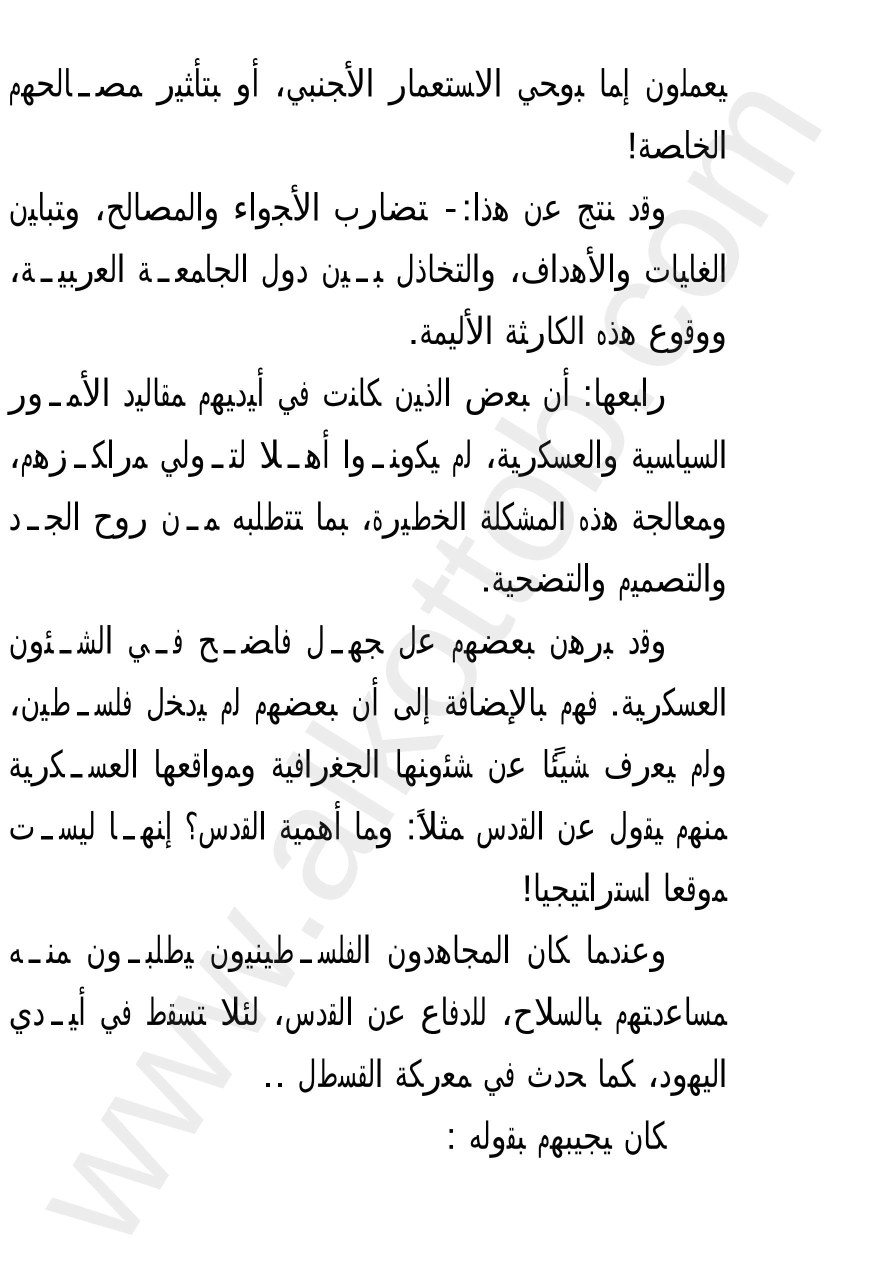


أولها: أن بعض المسئولين في الدول العربية ـ الـذين كانت في أيديهم مقاليد الأمور ـ لـم يكونـوا جـادين، أو مصممين في مواجهة هذه المشكلة، ولم يعالجوها بما تتطلبه خطورتها من الحزم والاهتمام، بل كانوا هازلين، خـائرين، مترددين، بينما كان اليهود جادين كل الجد.

ثانيها: أن فريقًا من أولئك المسئولين لم يولوا القضـية الفلسطينية ما تستحق من عناية، ولم يدرسوا مشكلتها الدراسة الكافية، ولم تكن لديهم المعلومات ولا الدراسـات السياسـية والعسكرية والتاريخية عـن فلسـطين، وخطـورة الخطـة الصهيونية والمطامع اليهودية فيها.

وقد كان الفريق (الذي لديه هذه الدراسات والمعلومـات والرغبة القوية والتصميم على مقاومة المطامع اليهودية) هو الفريق المجاهد المستميت من أجل أهـل فلسـطين. وهـذا الفريق أبعدته الدسائس الاستعمارية والضغط الأجنبي علـى بعض الدول العربية عن ميدان الجهاد لسوء الحظ !

ثالثها: أنه بينما كان اليهود يعملون بقـوة وتصـميم . بوحي من مصالحهم العامة، وتنفيذًا لبرنـامجهم الصـهيوني الخطير، كان بعض المسئولين في بعـض الـدول العربيـة



يعملون إما بوحي الاستعمار الأجنبي، أو بتأثير مصالحهم الخاصة!

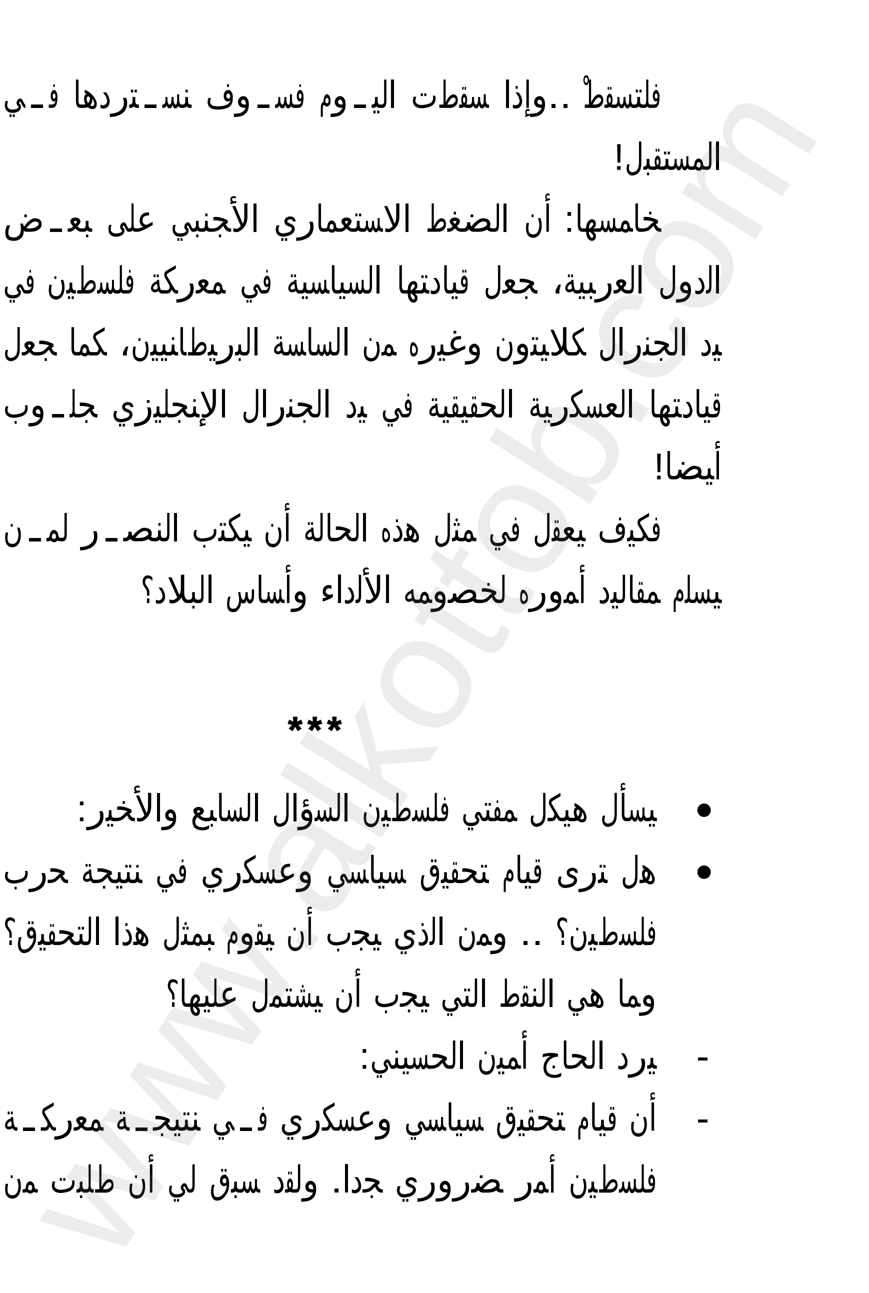
وقد نتج عن هذا:- تضارب الأجواء والمصالح، وتباين الغايات والأهداف، والتخاذل بين دول الجامعة العربية، ووقوع هذه الكارثة الأليمة.

رابعها: أن بعض الذين كانت في أيديهم مقاليد الأمور السياسية والعسكرية، لم يكونوا أهلا لتولي مراكزهم، ومعالجة هذه المشكلة الخطيرة، بما تتطلبه من روح الجد والتصميم والتضحية.

وقد برهن بعضهم عل جهل فاضح في الشئون العسكرية. فهم بالإضافة إلى أن بعضهم لم يدخل فلسطين، ولم يعرف شيئًا عن شئونها الجغرافية ومواقعها العسكرية منهم يقول عن القدس مثلاً: وما أهمية القدس؟ إنها ليست موقعا استراتيجيا!

وعندما كان المجاهدون الفلسطينيون يطلبون منه مساعدتهم بالسلاح، للدفاع عن القدس، لئلا تسقط في أيدي اليهود، كما حدث في معركة القسطل ..

كان يجيبهم بقوله :



فلتسقطْ ..وإذا سقطت اليـوم فسـوف نسـتردها فـي المستقبل!

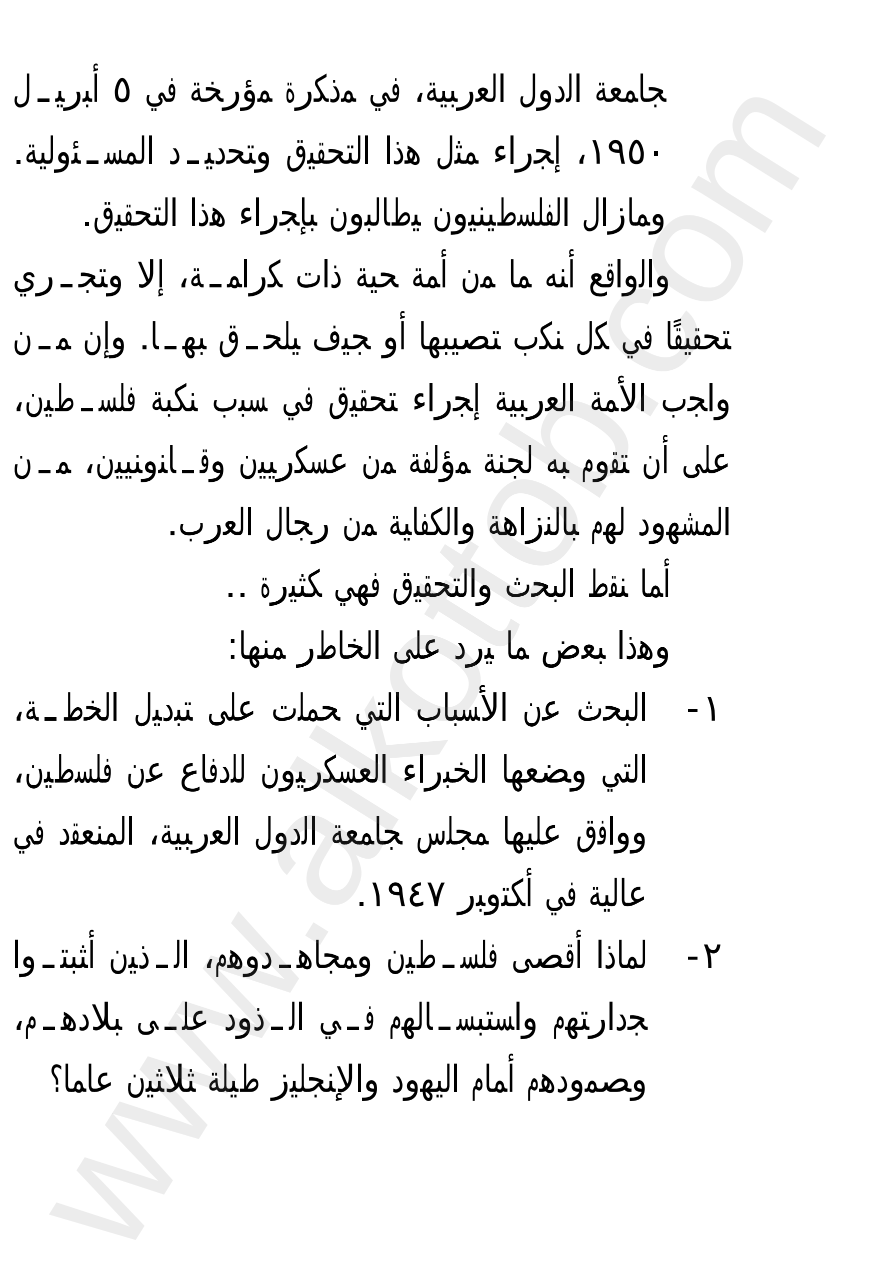
خامسها: أن الضغط الاستعماري الأجنبي على بعـض الدول العربية، جعل قيادتها السياسية في معركة فلسطين في يد الجنرال كلايتون وغيره من الساسة البريطانيين، كما جعل قيادتها العسكرية الحقيقية في يد الجنرال الإنجليزي جلـوب أيضا!

فكيف يعقل في مثل هذه الحالة أن يكتب النصـر لمـن يسلم مقاليد أموره لخصومه الألداء وأساس البلاد؟

***

- يسأل هيكل مفتي فلسطين السؤال السابع والأخير:
- هل ترى قيام تحقيق سياسي وعسكري في نتيجة حرب فلسطين؟ .. ومن الذي يجب أن يقوم بمثل هذا التحقيق؟ وما هي النقط التي يجب أن يشتمل عليها؟

- يرد الحاج أمين الحسيني:
- أن قيام تحقيق سياسي وعسكري فـي نتيجـة معركـة فلسطين أمر ضروري جدا. ولقد سبق لي أن طلبت من



جامعة الدول العربية، في مذكرة مؤرخة في 5 أبريل ١٩٥٠، إجراء مثل هذا التحقيق وتحديد المسئولية. ومازال الفلسطينيون يطالبون بإجراء هذا التحقيق.

والواقع أنه ما من أمة حية ذات كرامة، إلا وتجري تحقيقًا في كل نكب تصيبها أو حيف يلحق بها. وإن من واجب الأمة العربية إجراء تحقيق في سبب نكبة فلسطين، على أن تقوم به لجنة مؤلفة من عسكريين وقانونيين، من المشهود لهم بالنزاهة والكفاية من رجال العرب.

أما نقط البحث والتحقيق فهي كثيرة ..

وهذا بعض ما يرد على الخاطر منها:

١- البحث عن الأسباب التي حملت على تبديل الخطة، التي وضعها الخبراء العسكريون للدفاع عن فلسطين، ووافق عليها مجلس جامعة الدول العربية، المنعقد في عالية في أكتوبر ١٩٤٧.

٢- لماذا أقصى فلسطين ومجاهدوهم، الذين أثبتوا جدارتهم واستبسالهم في الذود على بلادهم، وصمودهم أمام اليهود والإنجليز طيلة ثلاثين عاما؟

وما هي أسباب منعهم من القيام بحرب العصابات التي برعوا فيها، والتي تجلت فوائدها العظيمة؟

ولماذا منعت الأسلحة عـن قـادة المجاهـدين، أمثـال المرحوم عبد القادر الحسيني، في معركة القسطل وغيرهـا، وحسن سلامة في منطقة "يافا" و"اللد" و"الرملة"، وإبراهيم أبو ريه في منطقة القدس وغيرهم؟

وكيف يعقل أن يقوم دفاع عن بلاد.. لا يشترك أهلهـا فيه؟

ولماذا جردوا المجاهدين الفلسـطينيين مـن أسـلحتهم، وصادروا مخازن ذخائرهم في بعض الأقطار العربية، وفي داخل فلسطين؟

ولمصلحة من كانت هذه الإجراءات الغريبة؟

٣- ولماذا سلمت قيادة الجيوش العربية إلى يـد الجنـرال جلوب الإنجليزي، وجعلته يقلب الخطة الحربية (التـي وضعها رؤساء أركان حرب الجيوش العربيـة، فـي الزرقا "شرق الأردن" في أوائل شهر مايو سنة ١٩٤٨) رأسا على عقب؟

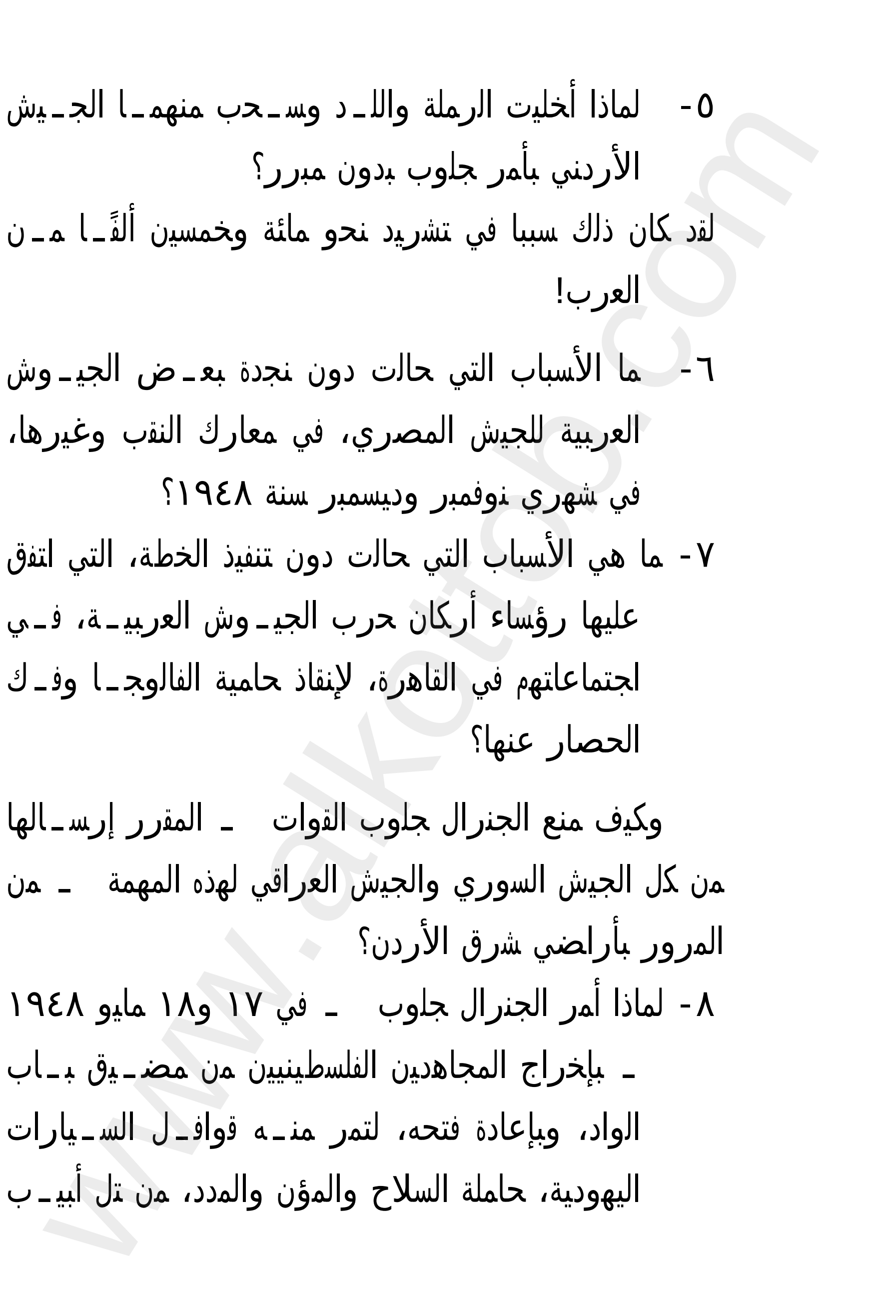
وكاف جلوب الجيش العراقي أن يهاجم بمدافعه خـط إيـدن المنيع، أمام مستعمرة جيشه ليعود بالحنيبة !

وينتقل الجيش السوري من منطقة جبيل في اتجاهـه نحـو صفد، في وضح النهار، وأمام بصر اليهود، إلى سـمع ويعرضه للهزيمة هناك؟

٤- لماذا منع الجيش العراقي (الذي كان في أشـد حـالات الحماسة والاستعداد) من التقدم نحو أهدافه، ولم يسـمح له بالقيام بأية معركة.

ولما هاجمت القوات مدينة "جنين" في يونيـه ١٩٤٨، وكان فيها فوج عراقي واحد، اشترك مع مجاهدي المنطقـة في صد اليهود وهزمهم شر هزيمـة، وتبـع فلـولهم إلـى "اللجون"، وأوقع الرعب يومئذٍ في يهود حيفا، التي ظلت بلا دفاع بعد هذه المعركة؛ فأرسل رئيس بلديتها اليهودي "شبتاى ليفر" كلاً من نائبي رئيس البلدية الحـاج طـاهر فرمـان، وشماده شلح بكتاب، لتسليم حيفا إلى الجيش العراقي.

ولكن القيادة العامة أمرت بعودة الفوج العراقي وقائـده الباسل.. الذي سحبته من المنطقة.. ووجهت له أشد اللـوم، وعاقبته على خوض المعركة؟!



٥- لماذا أخليت الرملة واللد وسحب منهما الجيش الأردني بأمر جلوب بدون مبرر؟

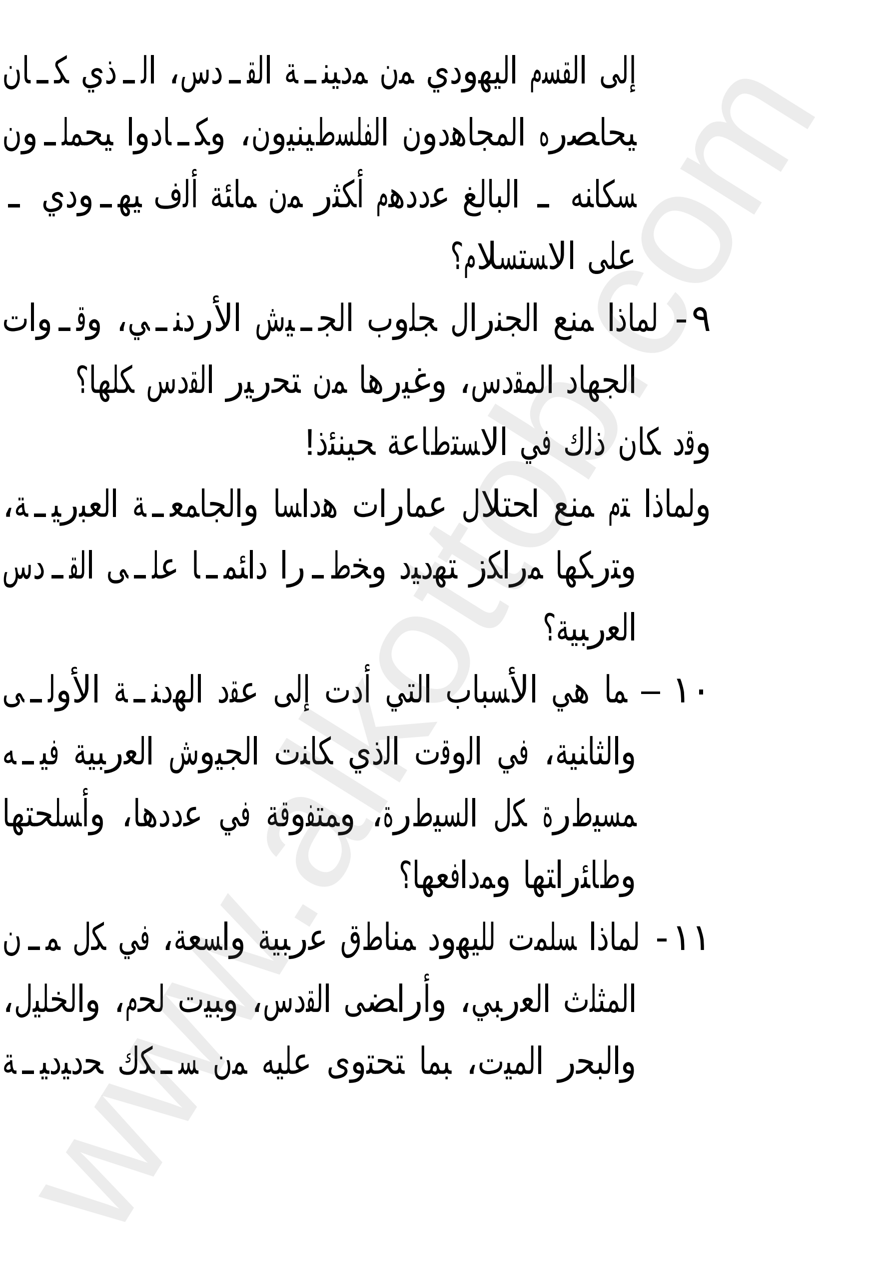
لقد كان ذلك سببا في تشريد نحو مائة وخمسين ألفًا من العرب!

٦- ما الأسباب التي حالت دون نجدة بعض الجيوش العربية للجيش المصري، في معارك النقب وغيرها، في شهري نوفمبر وديسمبر سنة ١٩٤٨؟

٧- ما هي الأسباب التي حالت دون تنفيذ الخطة، التي اتفق عليها رؤساء أركان حرب الجيوش العربية، في اجتماعاتهم في القاهرة، لإنقاذ حامية الفالوجا وفك الحصار عنها؟

وكيف منع الجنرال جلوب القوات - المقرر إرسالها من كل الجيش السوري والجيش العراقي لهذه المهمة - من المرور بأراضي شرق الأردن؟

٨- لماذا أمر الجنرال جلوب - في ١٧ و١٨ مايو ١٩٤٨ - بإخراج المجاهدين الفلسطينيين من مضيق باب الواد، وبإعادة فتحه، لتمر منه قوافل السيارات اليهودية، حاملة السلاح والمؤن والمدد، من تل أبيب



إلى القسم اليهودي من مدينـة القـدس، الـذي كـان يحاصره المجاهدون الفلسطينيون، وكـادوا يحملـون سكانه - البالغ عددهم أكثر من مائة ألف يهـودي - على الاستسلام؟

٩- لماذا منع الجنرال جلوب الجـيش الأردنـي، وقـوات الجهاد المقدس، وغيرها من تحرير القدس كلها؟

وقد كان ذلك في الاستطاعة حينئذ!

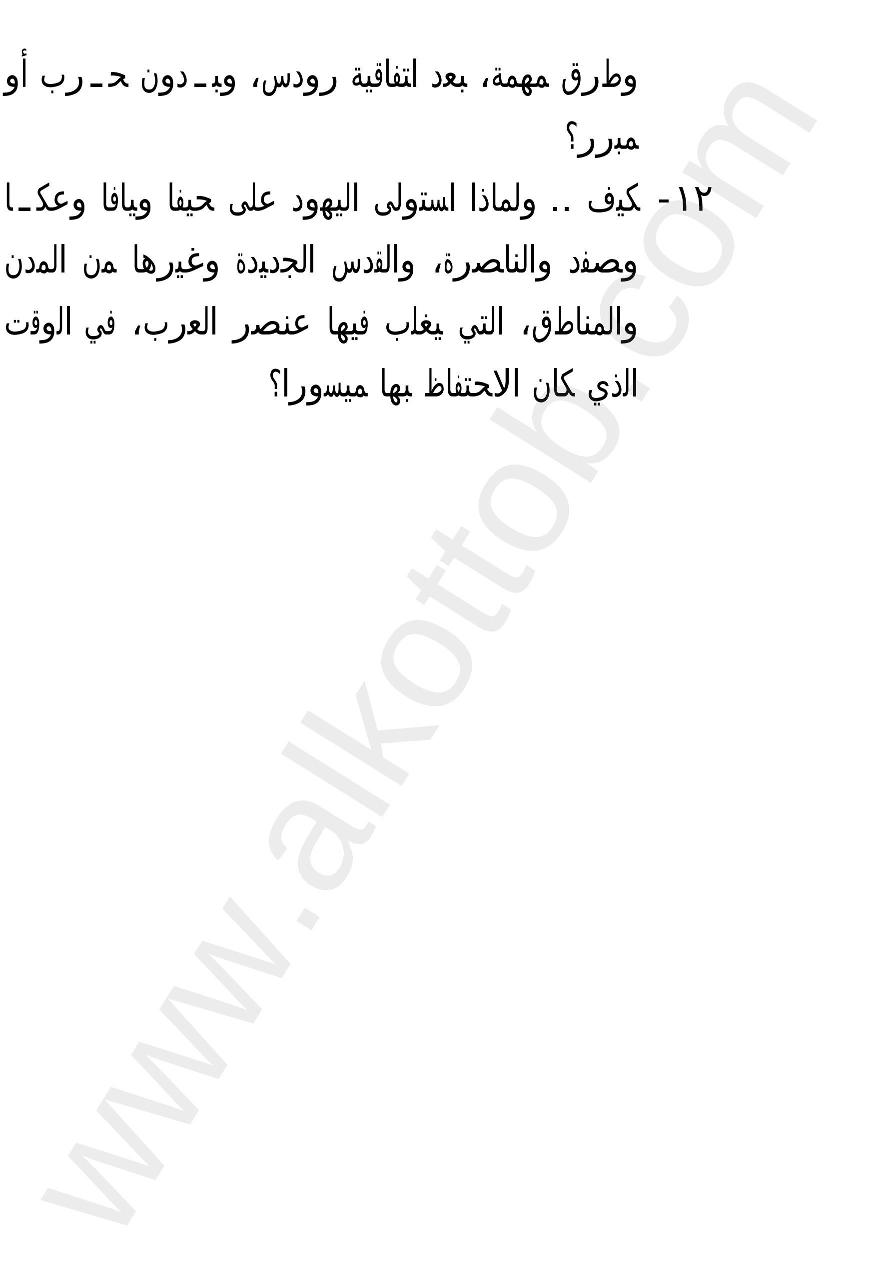
ولماذا تم منع احتلال عمارات هداسا والجامعـة العبريـة، وتركها مراكز تهديد وخطـرا دائمـا علـى القـدس العربية؟

١٠ – ما هي الأسباب التي أدت إلى عقد الهدنـة الأولـى والثانية، في الوقت الذي كانت الجيوش العربية فيـه مسيطرة كل السيطرة، ومتفوقة في عددها، وأسلحتها وطائراتها ومدافعها؟

١١- لماذا سلمت لليهود مناطق عربية واسعة، في كل مـن المثلث العربي، وأراضى القدس، وبيت لحم، والخليل، والبحر الميت، بما تحتوى عليه من سـكك حديديـة

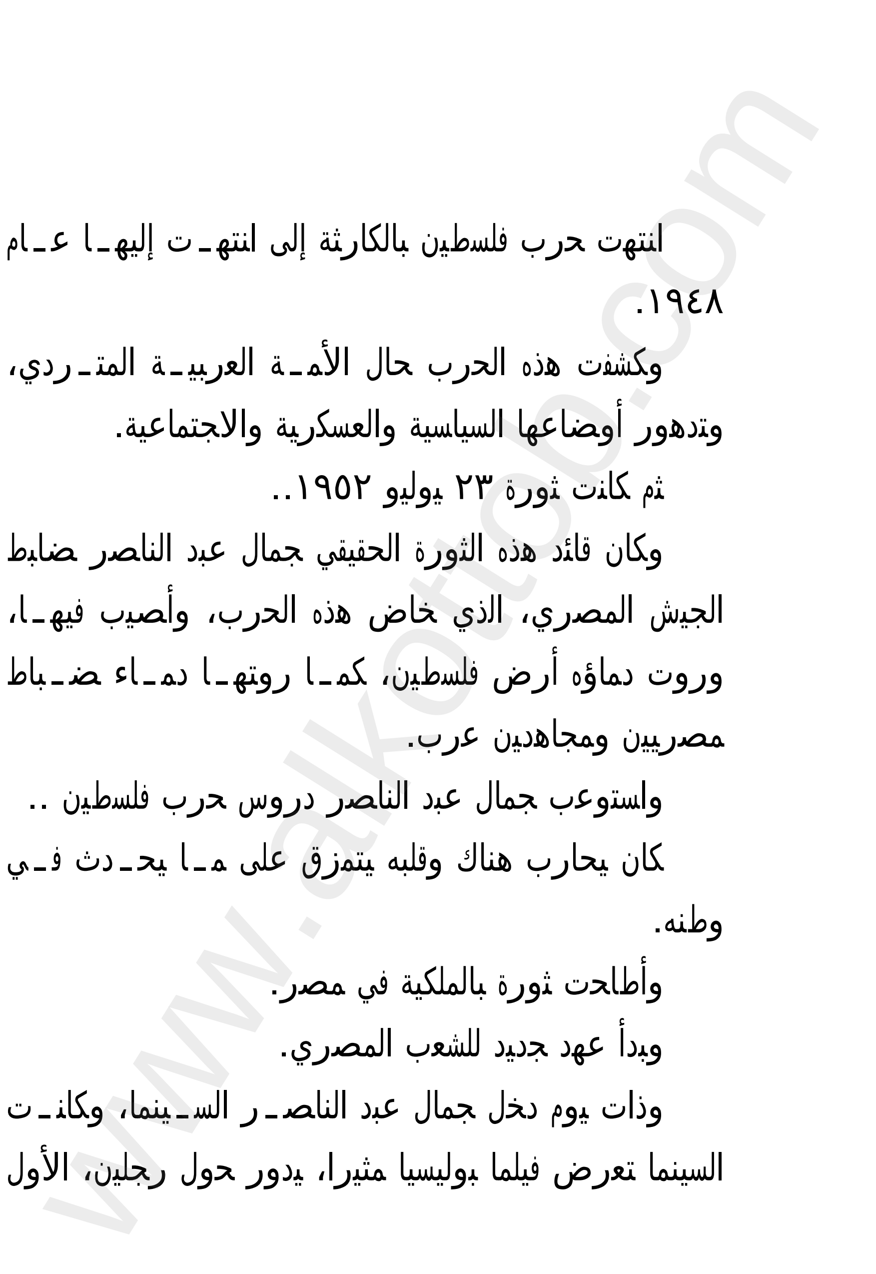
وطرق مهمة، بعد اتفاقية رودس، وبـدون حـرب أو مبرر؟

١٢- كيف .. ولماذا استولى اليهود على حيفا ويافا وعكـا وصفد والناصرة، والقدس الجديدة وغيرها من المدن والمناطق، التي يغلب فيها عنصر العرب، في الوقت الذي كان الاحتفاظ بها ميسورا؟



الفصل الثامن

رحلة قطار الحرب .. بقلم جمال عبد الناصر!



انتهت حرب فلسطين بالكارثة إلى انتهت إليها عام ١٩٤٨.

وكشفت هذه الحرب حال الأمة العربية المتردي، وتدهور أوضاعها السياسية والعسكرية والاجتماعية.

ثم كانت ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢..

وكان قائد هذه الثورة الحقيقي جمال عبد الناصر ضابط الجيش المصري، الذي خاض هذه الحرب، وأصيب فيها، وروت دماؤه أرض فلسطين، كما روتها دماء ضباط مصريين ومجاهدين عرب.

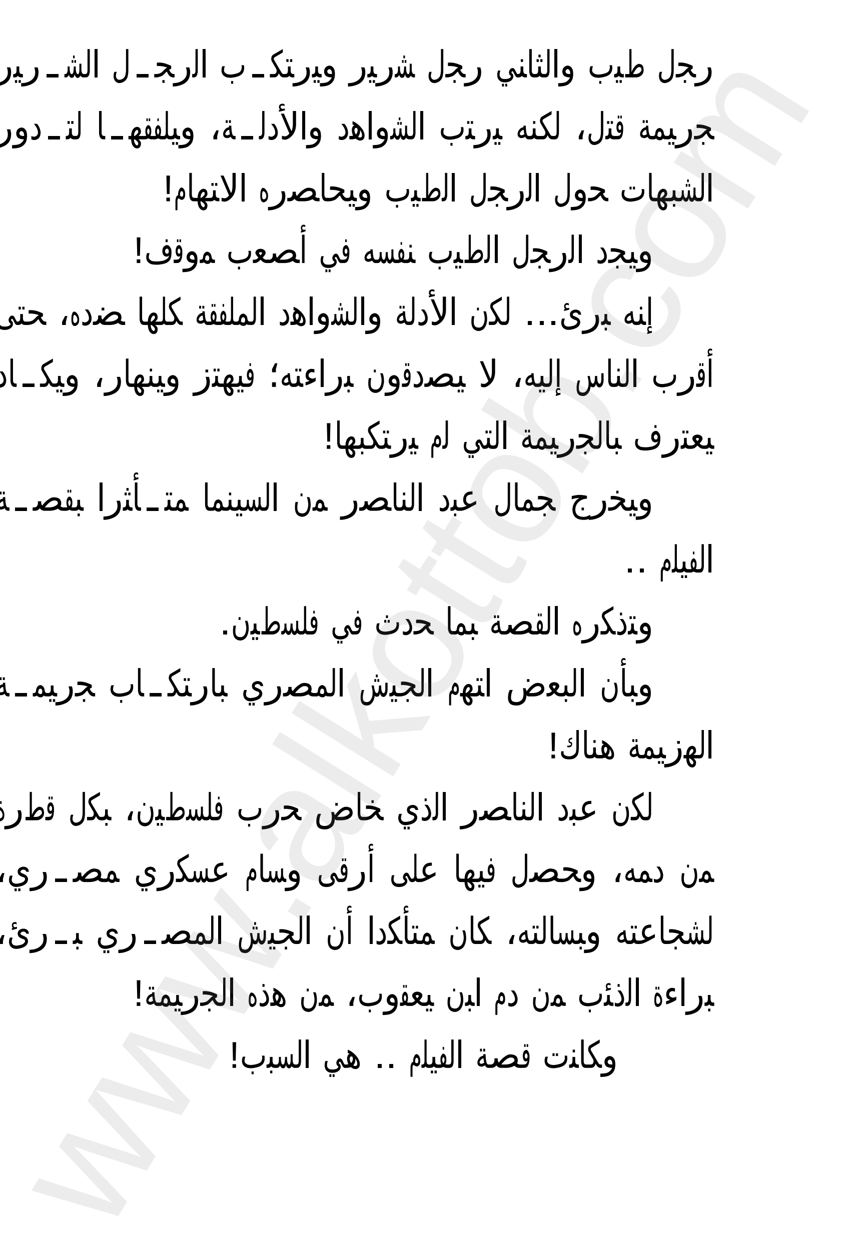
واستوعب جمال عبد الناصر دروس حرب فلسطين ..

كان يحارب هناك وقلبه يتمزق على ما يحدث في وطنه.

وأطاحت ثورة بالملكية في مصر.

وبدأ عهد جديد للشعب المصري.

وذات يوم دخل جمال عبد الناصر السينما، وكانت السينما تعرض فيلما بوليسيا مثيرا، يدور حول رجلين، الأول



رجل طيب والثاني رجل شرير ويرتكـب الرجـل الشـرير جريمة قتل، لكنه يرتب الشواهد والأدلـة، ويلفقهـا لتـدور الشبهات حول الرجل الطيب ويحاصره الاتهام!

ويجد الرجل الطيب نفسه في أصعب موقف!

إنه برئ... لكن الأدلة والشواهد الملفقة كلها ضده، حتى أقرب الناس إليه، لا يصدقون براءته؛ فيهتز وينهار، ويكـاد يعترف بالجريمة التي لم يرتكبها!

ويخرج جمال عبد الناصر من السينما متـأثرا بقصـة الفيلم ..

وتذكره القصة بما حدث في فلسطين.

وبأن البعض اتهم الجيش المصري بارتكـاب جريمـة الهزيمة هناك!

لكن عبد الناصر الذي خاض حرب فلسطين، بكل قطرة من دمه، وحصل فيها على أرقى وسام عسكري مصـري، لشجاعته وبسالته، كان متأكدا أن الجيش المصـري بـرئ، براءة الذئب من دم ابن يعقوب، من هذه الجريمة!

وكانت قصة الفيلم .. هي السبب!

السبب الذي جعل جمال عبد الناصر يكتـب مذكراتـه التاريخية، عن حرب فلسطين.

***

في بداية مذكراته عن حرب فلسطين قال جمـال عبـد الناصر:

لم أكن في مأساة فلسطين أجلس على مقاعد المتفرجين!

كما كنت أجلس في تلك القصة المثيرة التي شـاهدتها، في إحدى دور السينما بالقاهرة منذ بضعة أسابيع!

كنت أيامها على المسرح ..

مع غيري من الآلاف من الضباط والجنود، الذين زيفت عليهم هزيمة لم يرتكبوها!

وأنا أذكر اليوم كيف بدأ دوري في المأساة ..

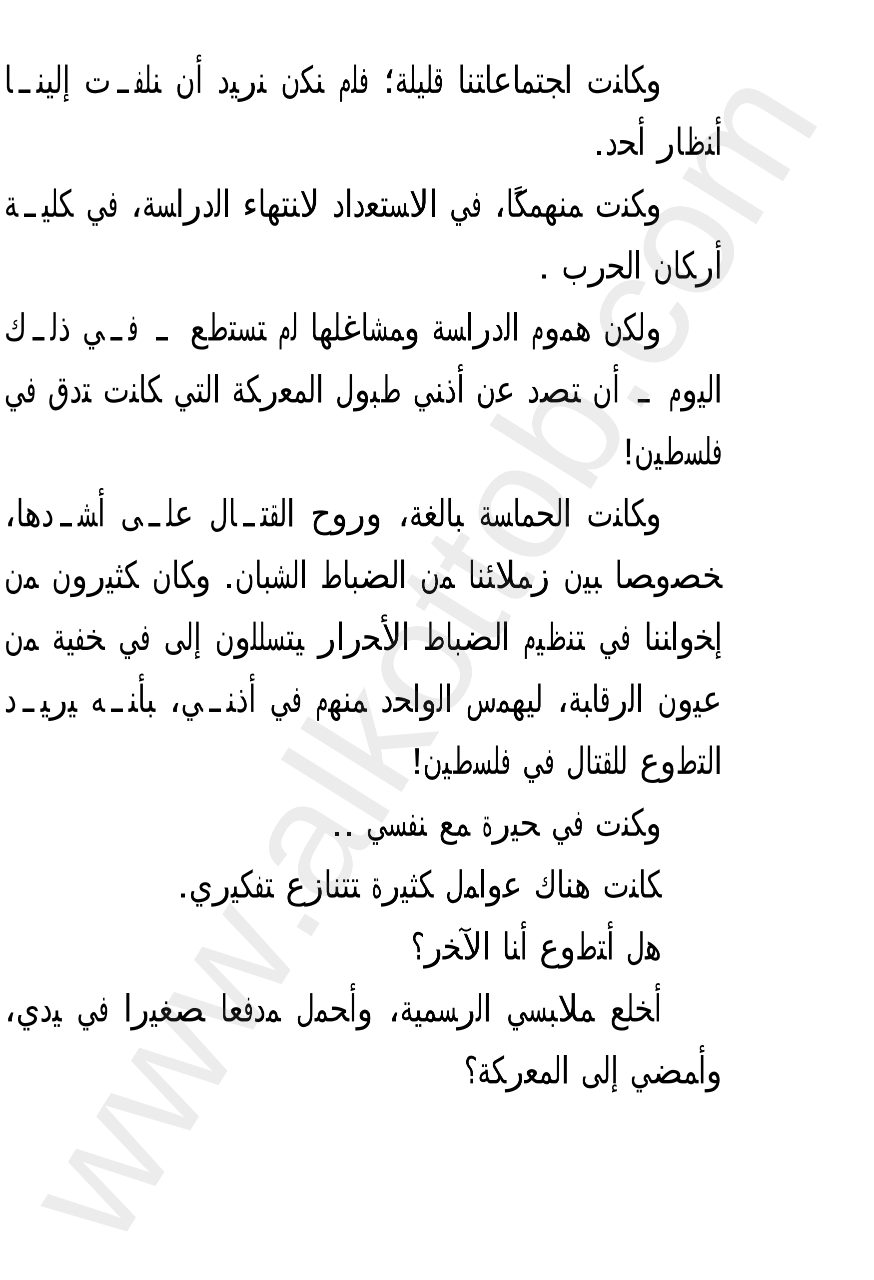
كنا في شهر أبريل سنة ١٩٤٨.

وكان تنظيم الضباط الأحرار قابعا منكمشًا على نفسـه؛ فقد كانت كلاب الصيد تتحسس آثارنا من كل اتجاه.

كانت هناك محاولة في الجيش لم يكتب لها النجاح.

وكانت عيون البوليس السياسي متجهة إلى الجيش.

وكان الوقت بالنسبة لنا غير صالح على الإطلاق.



وكانت اجتماعاتنا قليلة؛ فلم نكن نريد أن نلفـت إلينـا أنظار أحد.

وكنت منهمكًا، في الاستعداد لانتهاء الدراسة، في كليـة أركان الحرب .

ولكن هموم الدراسة ومشاغلها لم تستطع ـ فـي ذلـك اليوم ـ أن تصد عن أذني طبول المعركة التي كانت تدق في فلسطين!

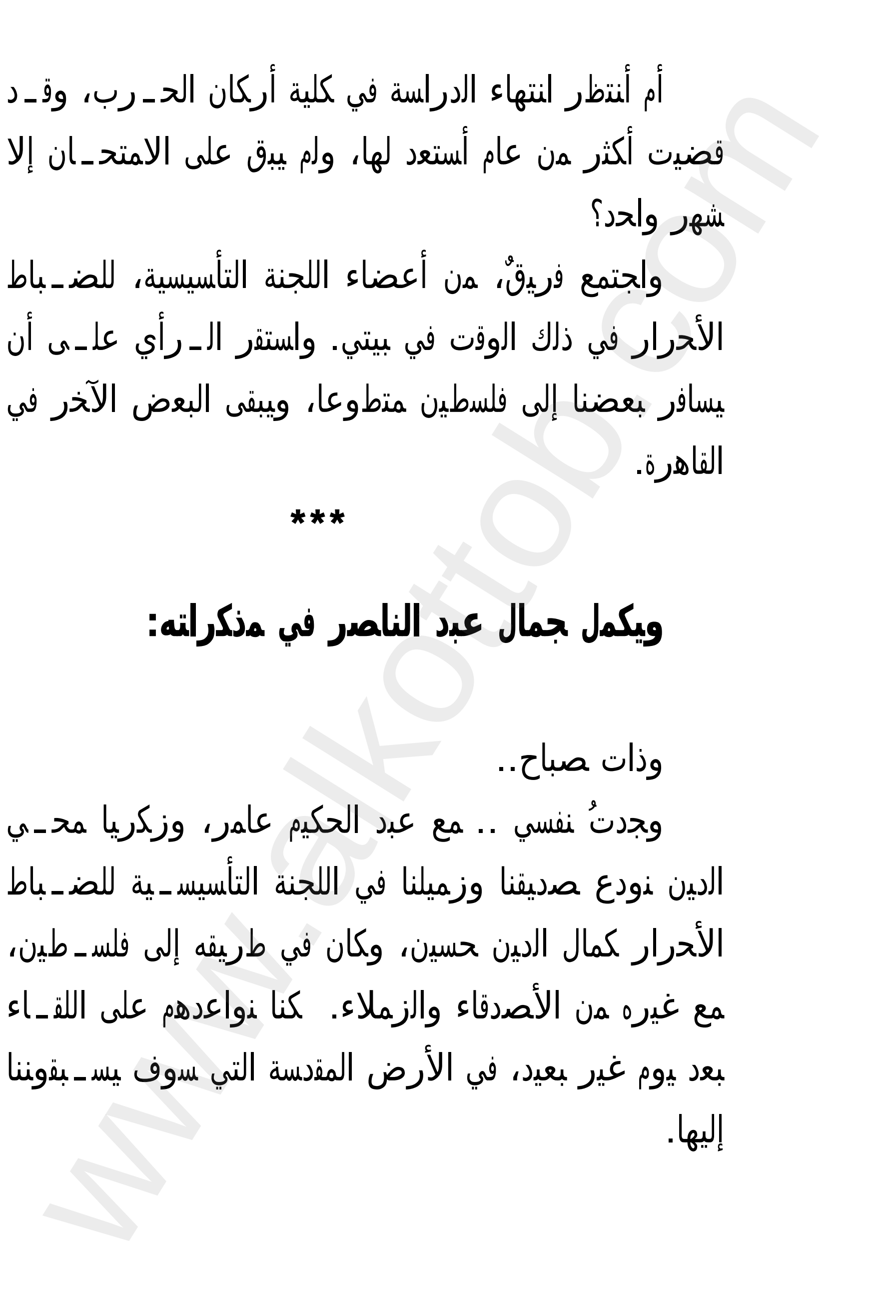
وكانت الحماسة بالغة، وروح القتـال علـى أشـدها، خصوصا بين زملائنا من الضباط الشبان. وكان كثيرون من إخواننا في تنظيم الضباط الأحرار يتسللون إلى في خفية من عيون الرقابة، ليهمس الواحد منهم في أذنـي، بأنـه يريـد التطوع للقتال في فلسطين!

وكنت في حيرة مع نفسي ..

كانت هناك عوامل كثيرة تتنازع تفكيري.

هل أتطوع أنا الآخر؟

أخلع ملابسي الرسمية، وأحمل مدفعا صغيرا في يدي، وأمضي إلى المعركة؟



أم أنتظر انتهاء الدراسة في كلية أركان الحـرب، وقـد قضيت أكثر من عام أستعد لها، ولم يبق على الامتحـان إلا شهر واحد؟

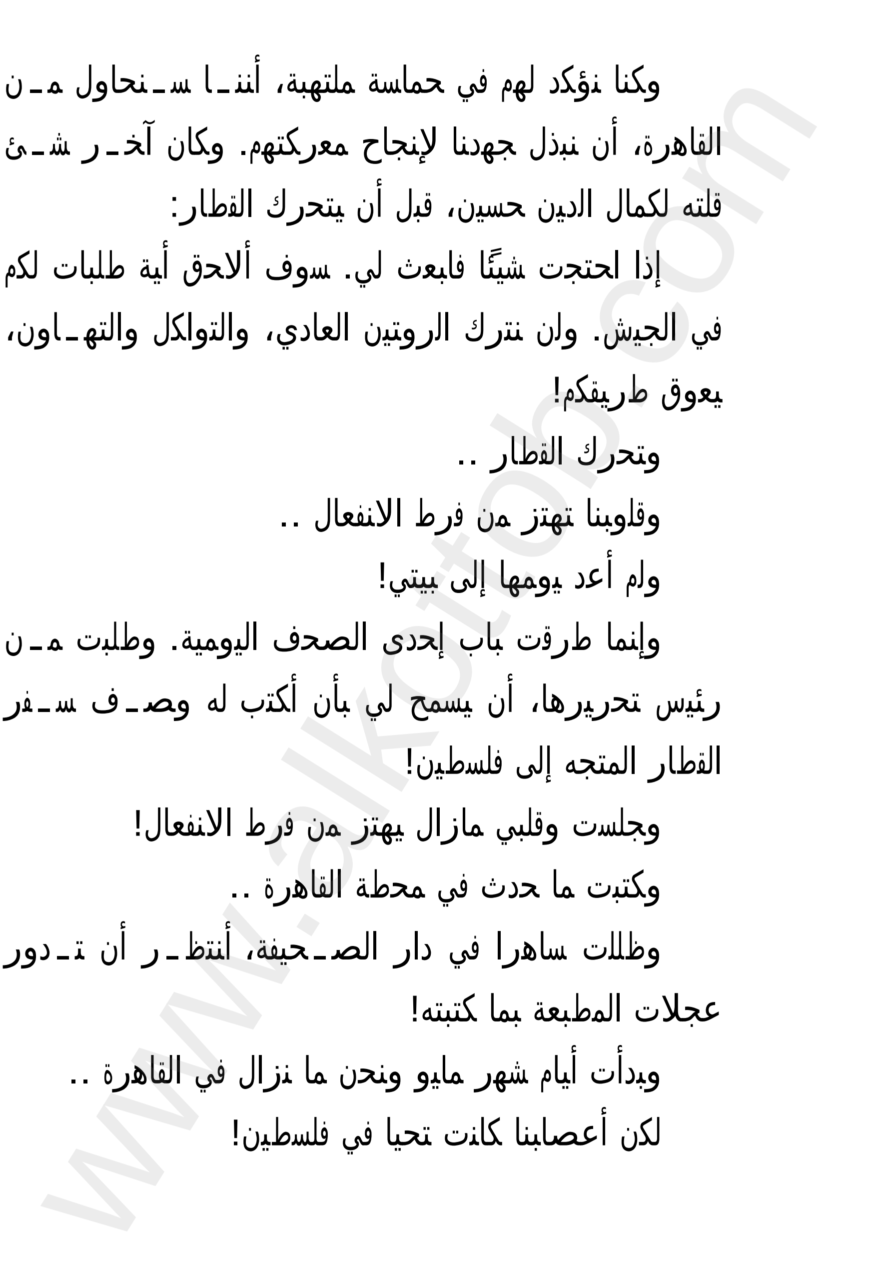
واجتمع فريقٌ، من أعضاء اللجنة التأسيسية، للضـباط الأحرار في ذلك الوقت في بيتي. واستقر الـرأي علـى أن يسافر بعضنا إلى فلسطين متطوعا، ويبقى البعض الآخر في القاهرة.

***

ويكمل جمال عبد الناصر في مذكراته:

وذات صباح..

وجدتُ نفسي .. مع عبد الحكيم عامر، وزكريا محـي الدين نودع صديقنا وزميلنا في اللجنة التأسيسـية للضـباط الأحرار كمال الدين حسين، وكان في طريقه إلى فلسـطين، مع غيره من الأصدقاء والزملاء. كنا نواعدهم على اللقـاء بعد يوم غير بعيد، في الأرض المقدسة التي سوف يسـبقوننا إليها.



وكنا نؤكد لهم في حماسة ملتهبة، أننـا سـنحاول مـن القاهرة، أن نبذل جهدنا لإنجاح معركتهم. وكان آخـر شـئ قلته لكمال الدين حسين، قبل أن يتحرك القطار:

إذا احتجت شيئًا فابعث لي. سوف ألاحق أية طلبات لكم في الجيش. ولن نترك الروتين العادي، والتواكل والتهـاون، يعوق طريقكم!

وتحرك القطار ..

وقلوبنا تهتز من فرط الانفعال ..

ولم أعد يومها إلى بيتي!

وإنما طرقت باب إحدى الصحف اليومية. وطلبت مـن رئيس تحريرها، أن يسمح لي بأن أكتب له وصـف سـفر القطار المتجه إلى فلسطين!

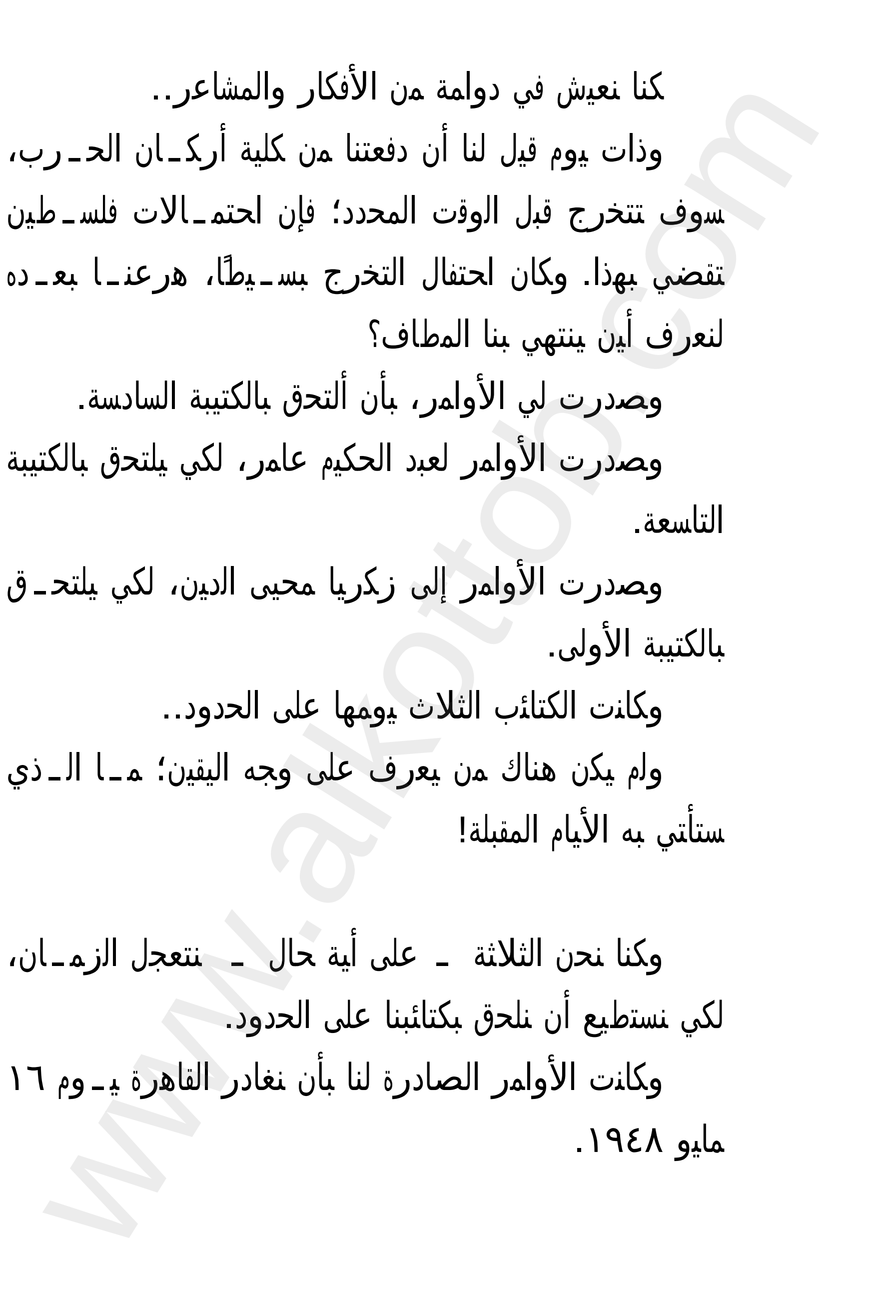
وجلست وقلبي مازال يهتز من فرط الانفعال!

وكتبت ما حدث في محطة القاهرة ..

وظللت ساهرا في دار الصـحيفة، أنتظـر أن تـدور عجلات المطبعة بما كتبته!

وبدأت أيام شهر مايو ونحن ما نزال في القاهرة ..

لكن أعصابنا كانت تحيا في فلسطين!



كنا نعيش في دوامة من الأفكار والمشاعر..

وذات يوم قيل لنا أن دفعتنا من كلية أركان الحرب، سوف تتخرج قبل الوقت المحدد؛ فإن احتمالات فلسطين تقضي بهذا. وكان احتفال التخرج بسيطًا، هرعنا بعده لنعرف أين ينتهي بنا المطاف؟

وصدرت لي الأوامر، بأن ألتحق بالكتيبة السادسة.

وصدرت الأوامر لعبد الحكيم عامر، لكي يلتحق بالكتيبة التاسعة.

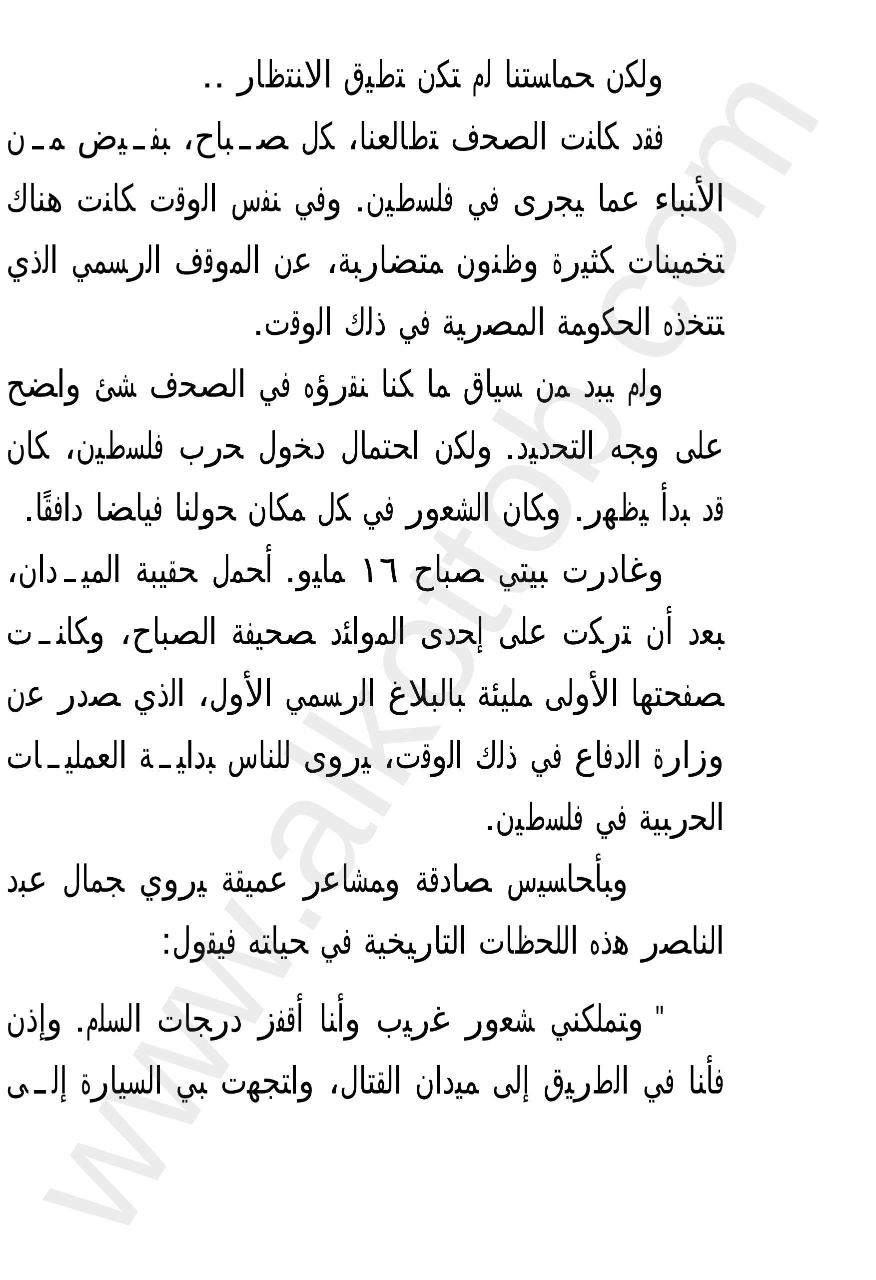
وصدرت الأوامر إلى زكريا محيى الدين، لكي يلتحق بالكتيبة الأولى.

وكانت الكتائب الثلاث يومها على الحدود..

ولم يكن هناك من يعرف على وجه اليقين؛ ما الذي ستأتي به الأيام المقبلة!

وكنا نحن الثلاثة - على أية حال - نتعجل الزمان، لكي نستطيع أن نلحق بكتائبنا على الحدود.

وكانت الأوامر الصادرة لنا بأن نغادر القاهرة يوم ١٦ مايو ١٩٤٨.



ولكن حماستنا لم تكن تطيق الانتظار ..

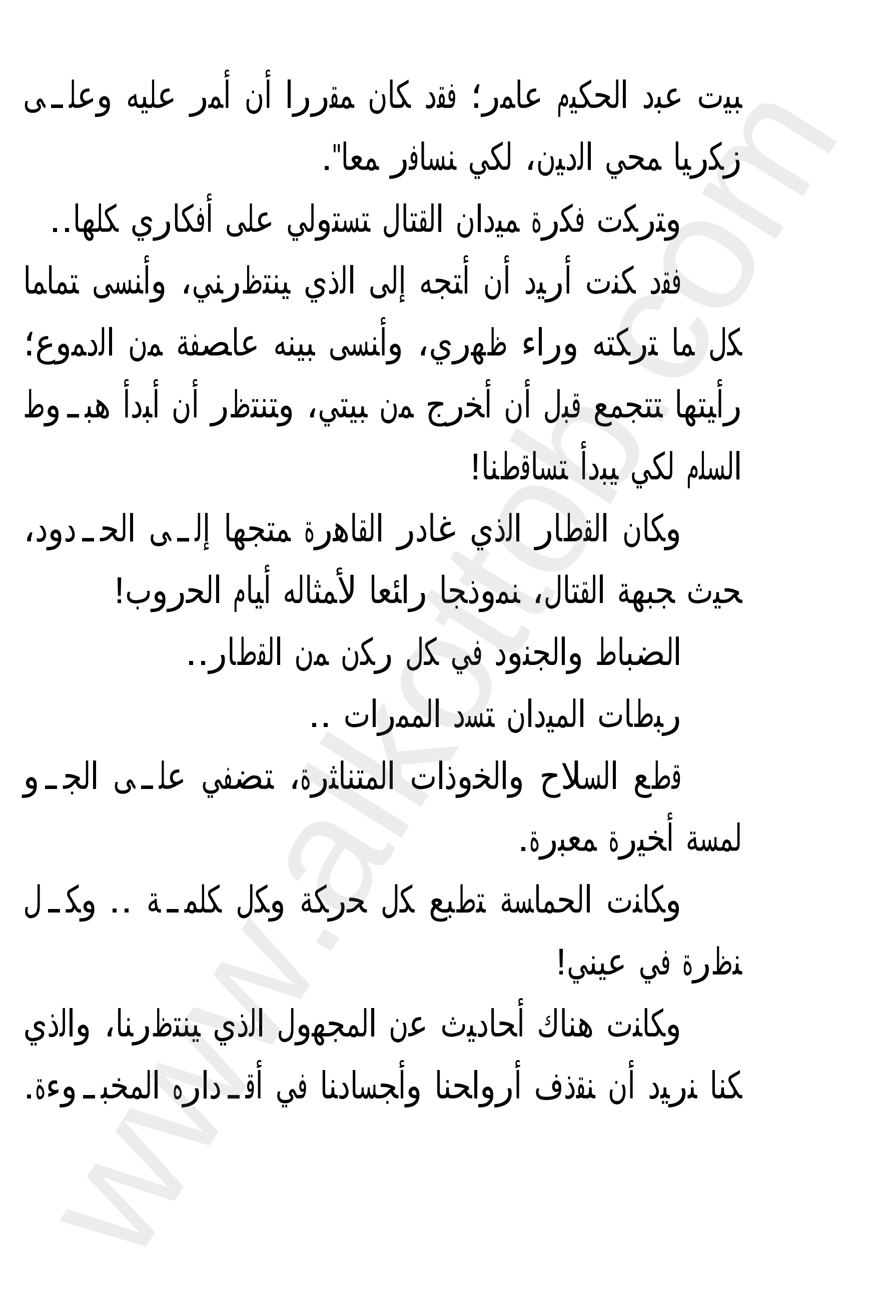
فقد كانت الصحف تطالعنا، كل صـباح، بفـيض مـن الأنباء عما يجرى في فلسطين. وفي نفس الوقت كانت هناك تخمينات كثيرة وظنون متضاربة، عن الموقف الرسمي الذي تتخذه الحكومة المصرية في ذلك الوقت.

ولم يبد من سياق ما كنا نقرؤه في الصحف شئ واضح على وجه التحديد. ولكن احتمال دخول حرب فلسطين، كان قد بدأ يظهر. وكان الشعور في كل مكان حولنا فياضا دافقًا.

وغادرت بيتي صباح ١٦ مايو. أحمل حقيبة الميـدان، بعد أن تركت على إحدى الموائد صحيفة الصباح، وكانـت صفحتها الأولى مليئة بالبلاغ الرسمي الأول، الذي صدر عن وزارة الدفاع في ذلك الوقت، يروى للناس بدايـة العمليـات الحربية في فلسطين.

وبأحاسيس صادقة ومشاعر عميقة يروي جمال عبد الناصر هذه اللحظات التاريخية في حياته فيقول:

" وتملكني شعور غريب وأنا أقفز درجات السلم. وإذن فأنا في الطريق إلى ميدان القتال، واتجهت بي السيارة إلـى



بيت عبد الحكيم عامر؛ فقد كان مقررا أن أمر عليه وعلـى زكريا محي الدين، لكي نسافر معا".

وتركت فكرة ميدان القتال تستولي على أفكاري كلها..

فقد كنت أريد أن أتجه إلى الذي ينتظرني، وأنسى تماما كل ما تركته وراء ظهري، وأنسى بينه عاصفة من الدموع؛ رأيتها تتجمع قبل أن أخرج من بيتي، وتنتظر أن أبدأ هبـوط السلم لكي يبدأ تساقطنا!

وكان القطار الذي غادر القاهرة متجها إلـى الحـدود، حيث جبهة القتال، نموذجا رائعا لأمثاله أيام الحروب!

الضباط والجنود في كل ركن من القطار..

ربطات الميدان تسد الممرات ..

قطع السلاح والخوذات المتناثرة، تضفي علـى الجـو لمسة أخيرة معبرة.

وكانت الحماسة تطبع كل حركة وكل كلمـة .. وكـل نظرة في عيني!

وكانت هناك أحاديث عن المجهول الذي ينتظرنا، والذي كنا نريد أن نقذف أرواحنا وأجسادنا في أقـداره المخبـوءة.

وكان هناك في بعض الأحيان أحاديث عن الـزملاء الـذين سبقونا إلى الميدان، والذين تركناهم وراءنا في القاهرة!

***

ويمضى جمال عبد الناصر في وصف رحلة القطار الحربي المتجه إلى فلسطين قائلاً:

ولم يكد القطار يتحرك في اتجاه ميدان القتـال. حتـى أصبح الركن الذي جلسنا فيه ـ عبد الحكيم عامر وزكريـا وأنا ـ أشبه بغرفة عمليات حربية!

وفتحنا خريطة كبيرة بيننا ..

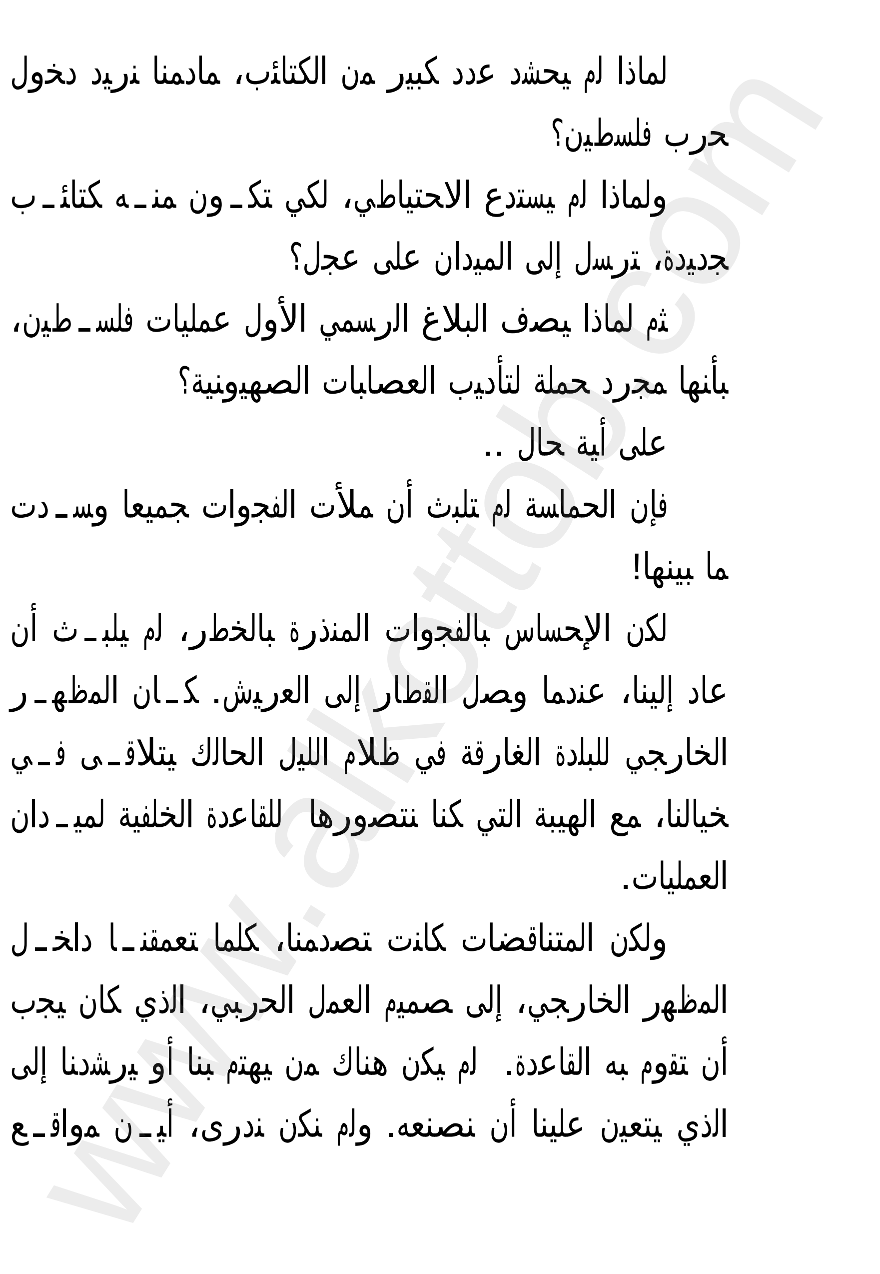
وبدأنا نناقش الموقف ..

وبدت أمامنا للوهلة الأولى فجـوات، كـان يمكـن أن يتسرب منها إلى خطوطنا خطر!

كان الجيش المصري يومها مكونًا من تسـع كتائـب. ولكن ثلاثًا منها فقط كانت قرب الحدود، حينما صدر الأمـر بدخول فلسطين!

وكانت هناك كتيبة رابعة في الطريق..

وكنا نتساءل والقطار يندفع بنا إلى ميدان القتال:



لماذا لم يحشد عدد كبير من الكتائب، مادمنا نريد دخول حرب فلسطين؟

ولماذا لم يستدع الاحتياطي، لكي تكـون منـه كتائـب جديدة، ترسل إلى الميدان على عجل؟

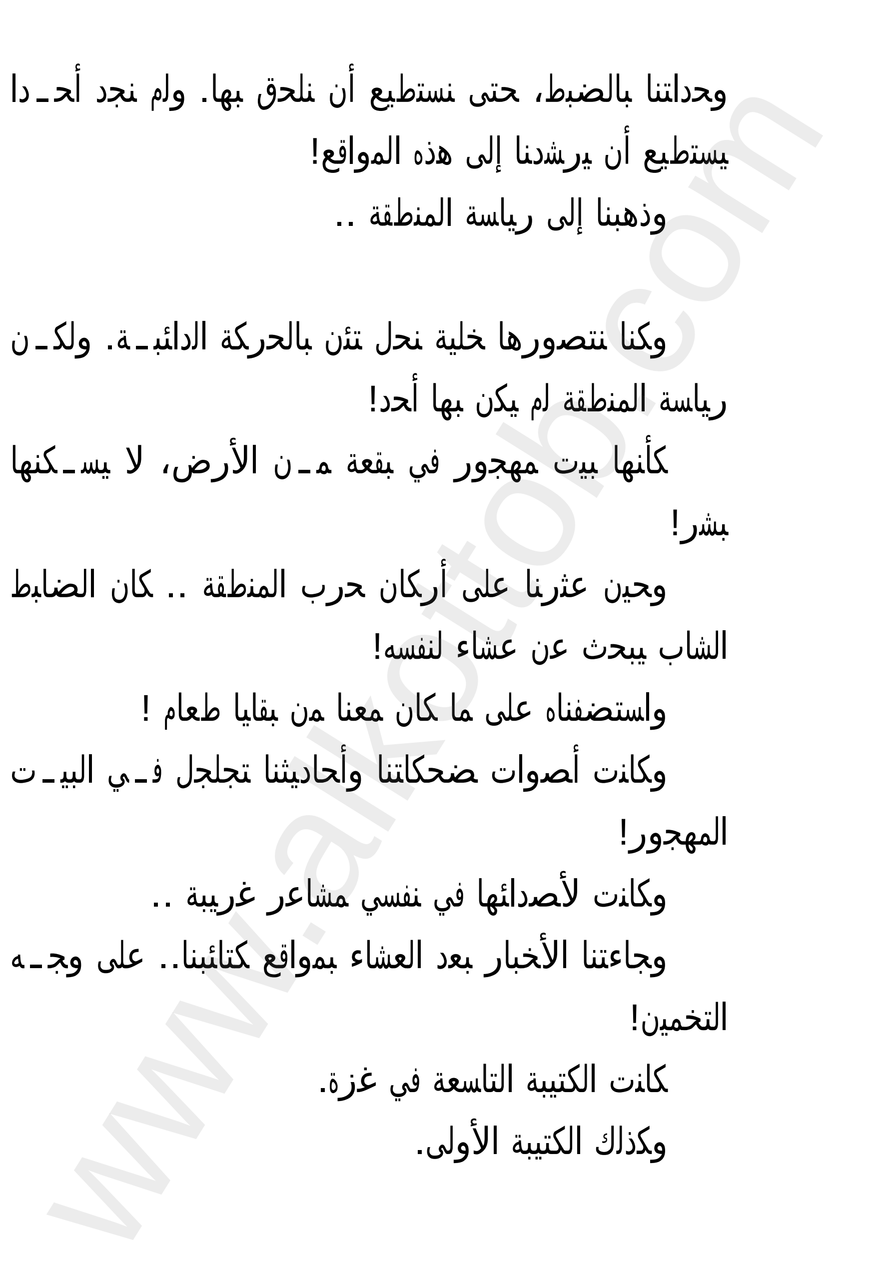
ثم لماذا يصف البلاغ الرسمي الأول عمليات فلسـطين، بأنها مجرد حملة لتأديب العصابات الصهيونية؟

على أية حال ..

فإن الحماسة لم تلبث أن ملأت الفجوات جميعا وسـدت ما بينها!

لكن الإحساس بالفجوات المنذرة بالخطر، لم يلبـث أن عاد إلينا، عندما وصل القطار إلى العريش. كـان المظهـر الخارجي للبلدة الغارقة في ظلام الليل الحالك يتلاقـى فـي خيالنا، مع الهيبة التي كنا نتصورها للقاعدة الخلفية لميـدان العمليات.

ولكن المتناقضات كانت تصدمنا، كلما تعمقنـا داخـل المظهر الخارجي، إلى صميم العمل الحربي، الذي كان يجب أن تقوم به القاعدة. لم يكن هناك من يهتم بنا أو يرشدنا إلى الذي يتعين علينا أن نصنعه. ولم نكن ندرى، أيـن مواقـع



وحداتنا بالضبط، حتى نستطيع أن نلحق بها. ولم نجد أحدا يستطيع أن يرشدنا إلى هذه المواقع!

وذهبنا إلى رياسة المنطقة ..

وكنا نتصورها خلية نحل تئن بالحركة الدائبة. ولكن رياسة المنطقة لم يكن بها أحد!

كأنها بيت مهجور في بقعة من الأرض، لا يسكنها بشر!

وحين عثرنا على أركان حرب المنطقة .. كان الضابط الشاب يبحث عن عشاء لنفسه!

واستضفناه على ما كان معنا من بقايا طعام !

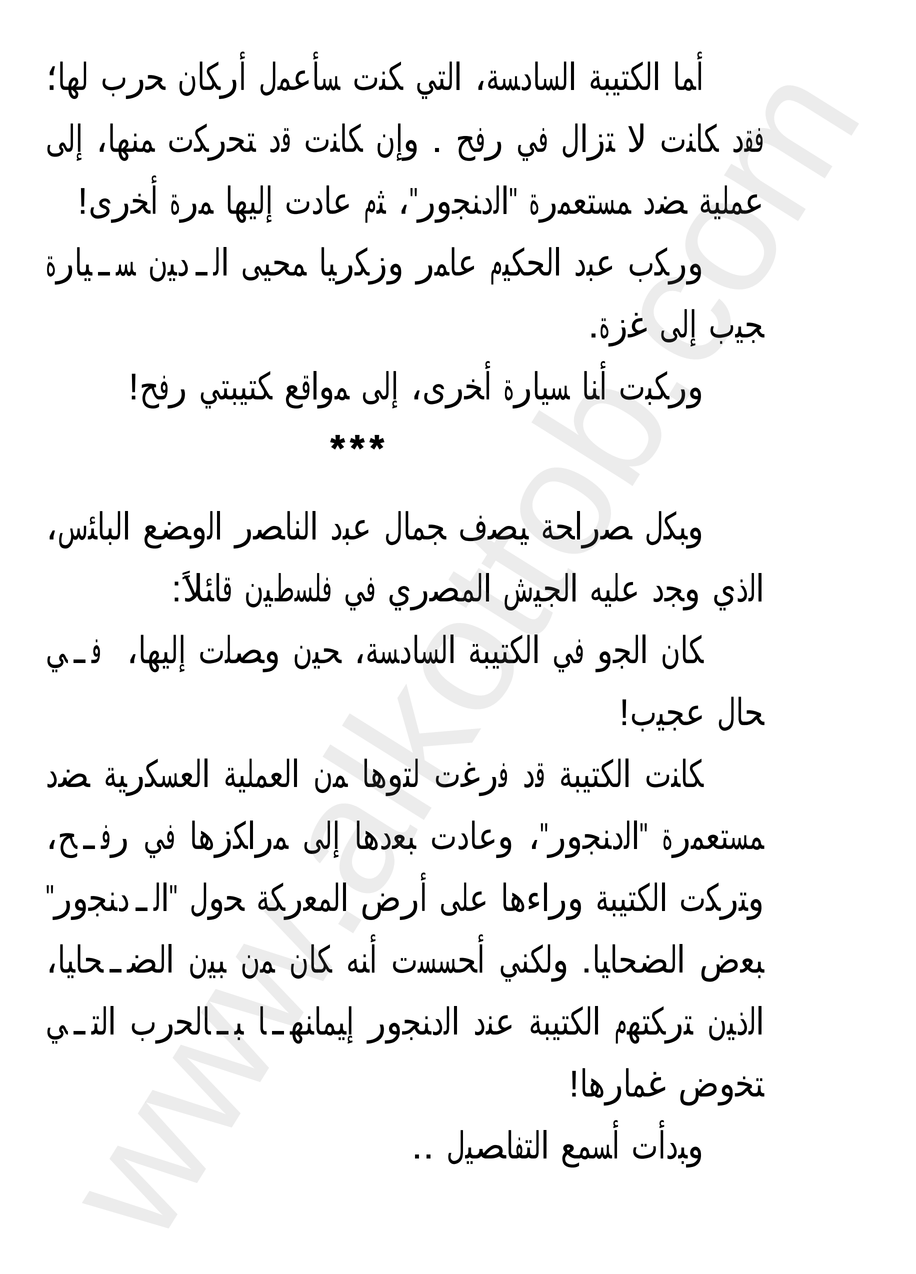
وكانت أصوات ضحكاتنا وأحاديثنا تجلجل في البيت المهجور!

وكانت لأصدائها في نفسي مشاعر غريبة ..

وجاءتنا الأخبار بعد العشاء بمواقع كتائبنا.. على وجه التخمين!

كانت الكتيبة التاسعة في غزة.

وكذلك الكتيبة الأولى.



أما الكتيبة السادسة، التي كنت سأعمل أركان حرب لها؛ فقد كانت لا تزال في رفح . وإن كانت قد تحركت منها، إلى عملية ضد مستعمرة "الدنجور"، ثم عادت إليها مرة أخرى!

وركب عبد الحكيم عامر وزكريا محيى الـدين سـيارة جيب إلى غزة.

وركبت أنا سيارة أخرى، إلى مواقع كتيبتي رفح!

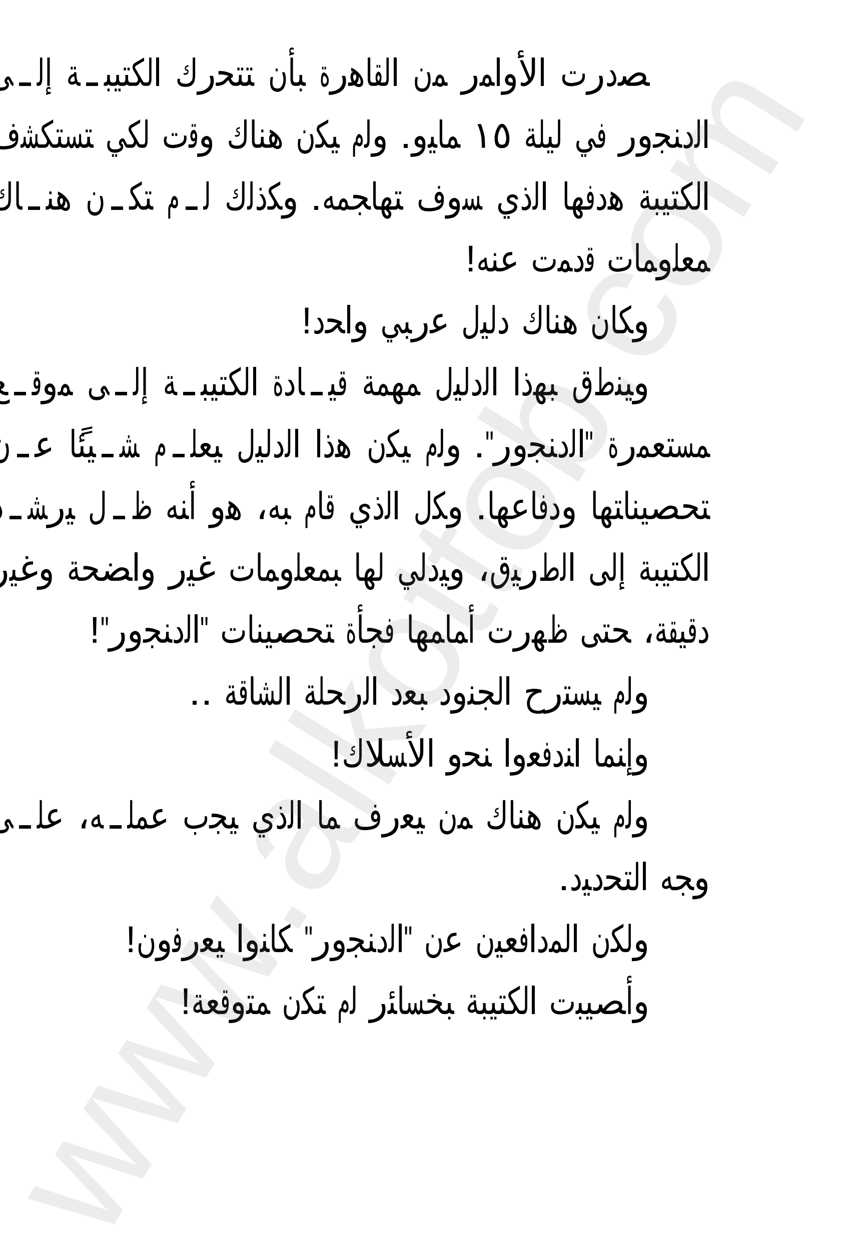
***

وبكل صراحة يصف جمال عبد الناصر الوضع البائس، الذي وجد عليه الجيش المصري في فلسطين قائلاً:

كان الجو في الكتيبة السادسة، حين وصلت إليها، فـي حال عجيب!

كانت الكتيبة قد فرغت لتوها من العملية العسكرية ضد مستعمرة "الدنجور"، وعادت بعدها إلى مراكزها في رفـح، وتركت الكتيبة وراءها على أرض المعركة حول "الـدنجور" بعض الضحايا. ولكني أحسست أنه كان من بين الضـحايا، الذين تركتهم الكتيبة عند الدنجور إيمانهـا بـالحرب التـي تخوض غمارها!

وبدأت أسمع التفاصيل ..



صدرت الأوامر من القاهرة بأن تتحرك الكتيبـة إلـى الدنجور في ليلة ١٥ مايو. ولم يكن هناك وقت لكي تستكشف الكتيبة هدفها الذي سوف تهاجمه. وكذلك لـم تكـن هنـاك معلومات قدمت عنه!

وكان هناك دليل عربي واحد!

وينطق بهذا الدليل مهمة قيـادة الكتيبـة إلـى موقـع مستعمرة "الدنجور". ولم يكن هذا الدليل يعلـم شـيئًا عـن تحصيناتها ودفاعها. وكل الذي قام به، هو أنه ظـل يرشـد الكتيبة إلى الطريق، ويدلي لها بمعلومات غير واضحة وغير دقيقة، حتى ظهرت أمامها فجأة تحصينات "الدنجور"!

ولم يسترح الجنود بعد الرحلة الشاقة ..

وإنما اندفعوا نحو الأسلاك!

ولم يكن هناك من يعرف ما الذي يجب عملـه، علـى وجه التحديد.

ولكن المدافعين عن "الدنجور" كانوا يعرفون!

وأصيبت الكتيبة بخسائر لم تكن متوقعة!

وعند الظهر.. أصدر القائد أمره بالابتعاد عنها. وعادت الكتيبة إلى رفح. لتجد بلاغًا رسميا أذيع في القاهرة يقـول: أنها أتمت عملية تطهير "الدنجور" بنجاح!

ولاحظت بين الذي سمعت مـن تفاصـيل ظـاهرتين هامتين:

الأولى .. أن هناك نغمة بين الضباط تقول أن الحـرب .. حرب سياسية.

وكان لهذه النغمة ما يؤيدها ويتناسق معها من كل مـا رأوا حولهم.

لم يكن معقولاً أن تكون هذه حربا!

لا قوات تحتشد.

لا استعدادات في الأسلحة والذخائر.

لا خطط......

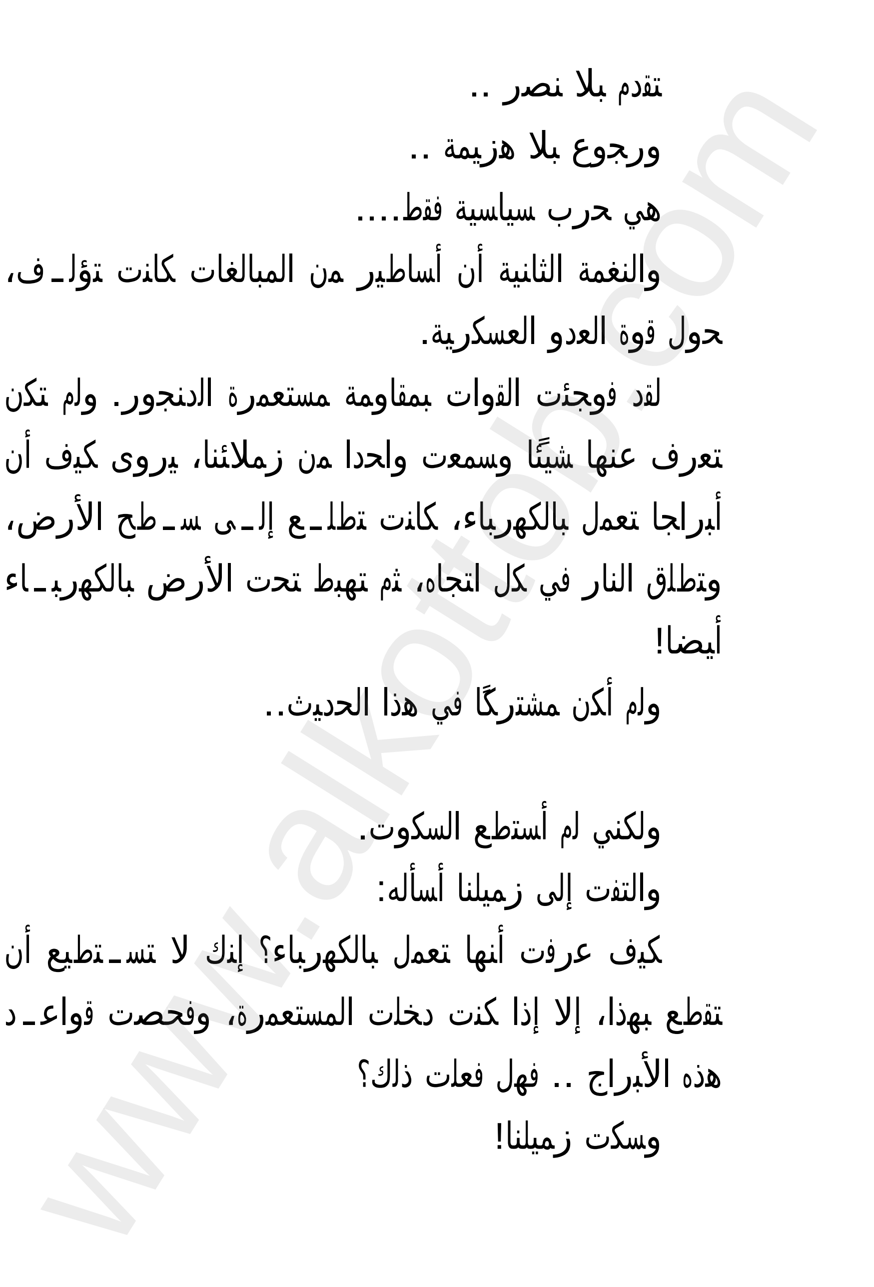
لا استكشافات ..

ولا معلومات!

ومع ذلك فهم هنا في ميدان قتال!

إذن .. هي حرب سياسية!

هي إذن حرب .. ولا حرب!



تقدم بلا نصر ..

ورجوع بلا هزيمة ..

هي حرب سياسية فقط....

والنغمة الثانية أن أساطير من المبالغات كانت تؤلف، حول قوة العدو العسكرية.

لقد فوجئت القوات بمقاومة مستعمرة الدنجور. ولم تكن تعرف عنها شيئًا وسمعت واحدا من زملائنا، يروى كيف أن أبراجا تعمل بالكهرباء، كانت تطلع إلى سطح الأرض، وتطلق النار في كل اتجاه، ثم تهبط تحت الأرض بالكهرباء أيضا!

ولم أكن مشتركًا في هذا الحديث..

ولكني لم أستطع السكوت.

والتفت إلى زميلنا أسأله:

كيف عرفت أنها تعمل بالكهرباء؟ إنك لا تستطيع أن تقطع بهذا، إلا إذا كنت دخلت المستعمرة، وفحصت قواعد هذه الأبراج .. فهل فعلت ذلك؟

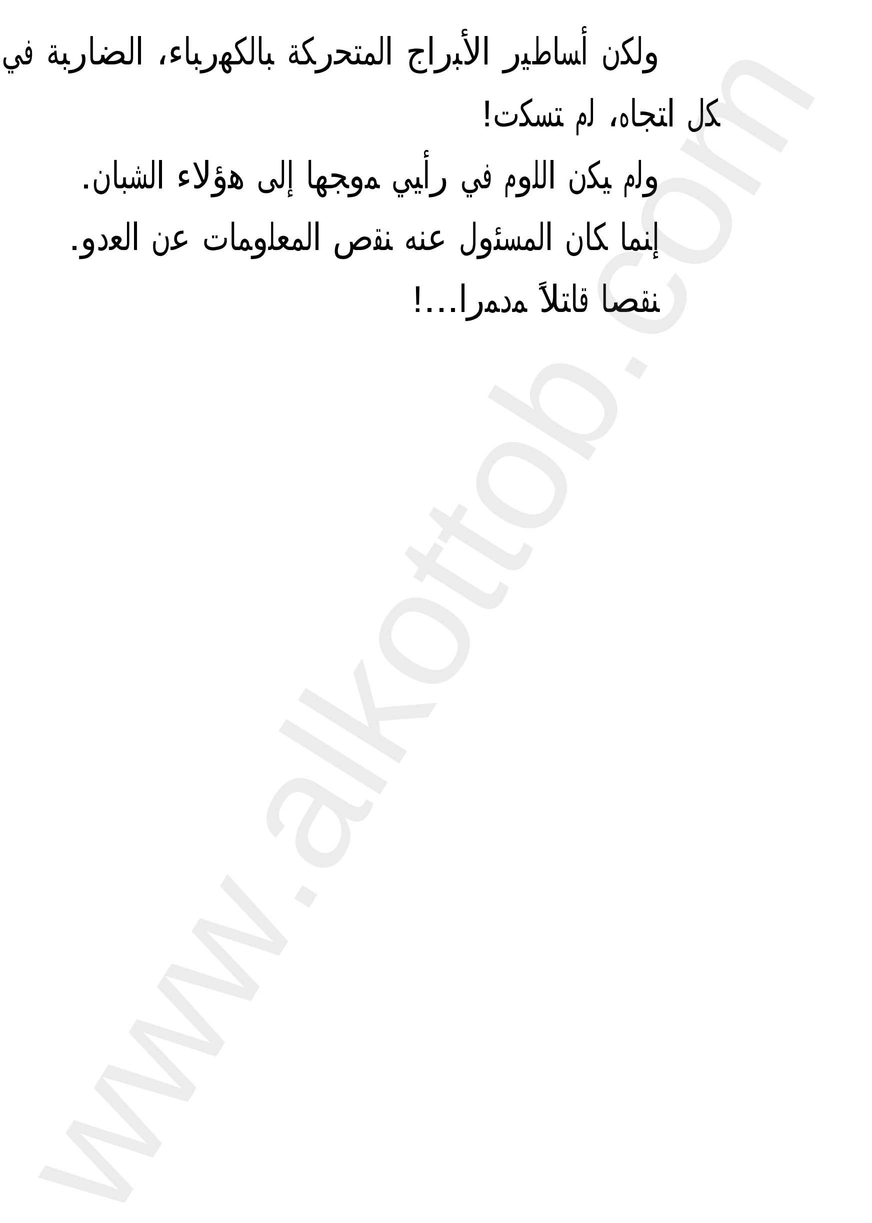
وسكت زميلنا!

ولكن أساطير الأبراج المتحركة بالكهرباء، الضاربة في كل اتجاه، لم تسكت!

ولم يكن اللوم في رأيي موجها إلى هؤلاء الشبان.

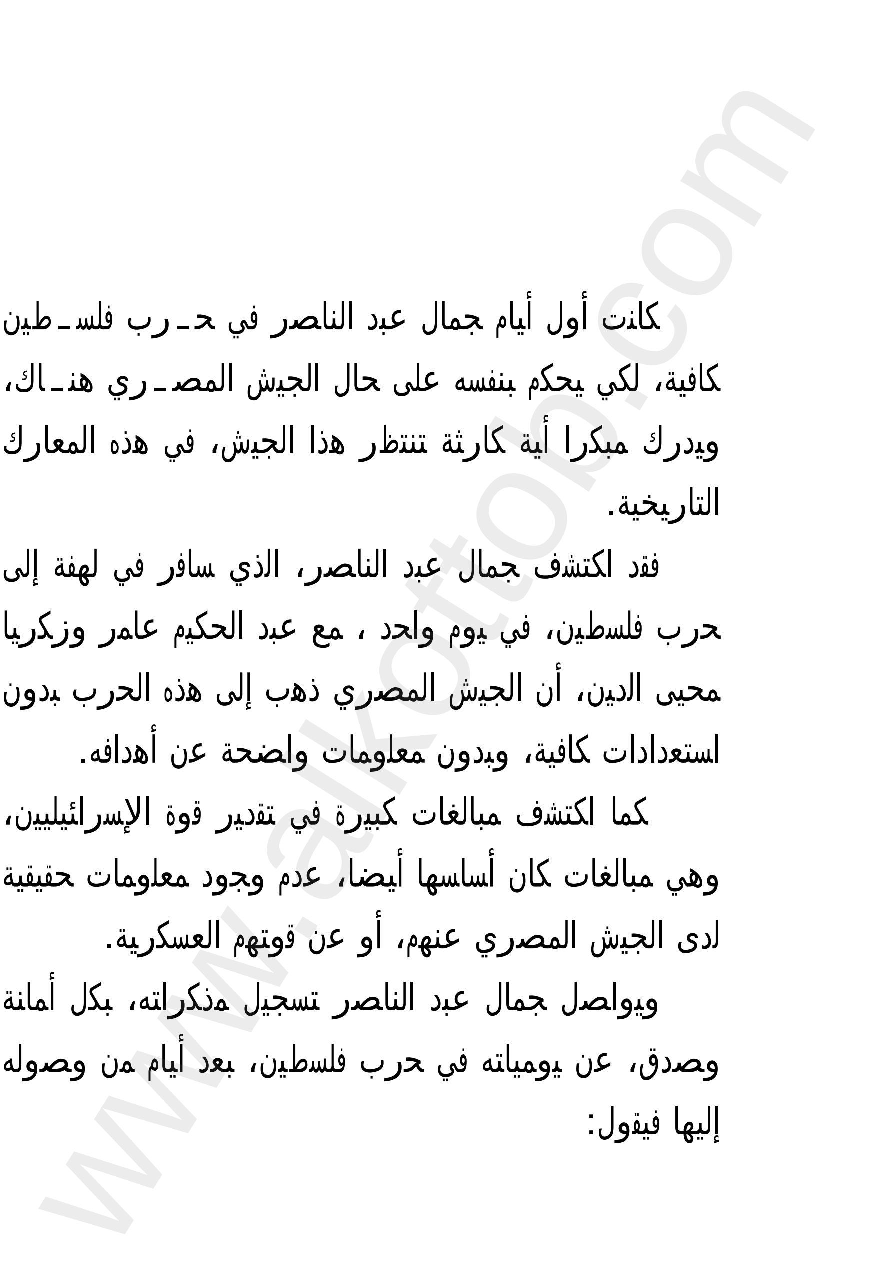
إنما كان المسئول عنه نقص المعلومات عن العدو.

نقصا قاتلاً مدمرا...!



الفصل التاسع

من أجل المقاتلين .. اشتروا جبنة وزيتون !



كانت أول أيام جمال عبد الناصر في حـرب فلسـطين كافية، لكي يحكم بنفسه على حال الجيش المصـري هنـاك، ويدرك مبكرا أية كارثة تنتظر هذا الجيش، في هذه المعارك التاريخية.

فقد اكتشف جمال عبد الناصر، الذي سافر في لهفة إلى حرب فلسطين، في يوم واحد ، مع عبد الحكيم عامر وزكريا محيى الدين، أن الجيش المصري ذهب إلى هذه الحرب بدون استعدادات كافية، وبدون معلومات واضحة عن أهدافه.

كما اكتشف مبالغات كبيرة في تقدير قوة الإسرائيليين، وهي مبالغات كان أساسها أيضا، عدم وجود معلومات حقيقية لدى الجيش المصري عنهم، أو عن قوتهم العسكرية.

ويواصل جمال عبد الناصر تسجيل مذكراته، بكل أمانة وصدق، عن يومياته في حرب فلسطين، بعد أيام من وصوله إليها فيقول:

" وبدأتُ بعدها، كأركان حرب للكتيبة السادسة، أشـعر بالحيرة والعجز، اللذين كانا يحكمان قيادتنا العليا، أكثر مـن غيري"!

كانت مئات من العوامل تتنازعني ..

ولم أكن أعرف الوسيلة التي ُأعبر بها عما أحس.

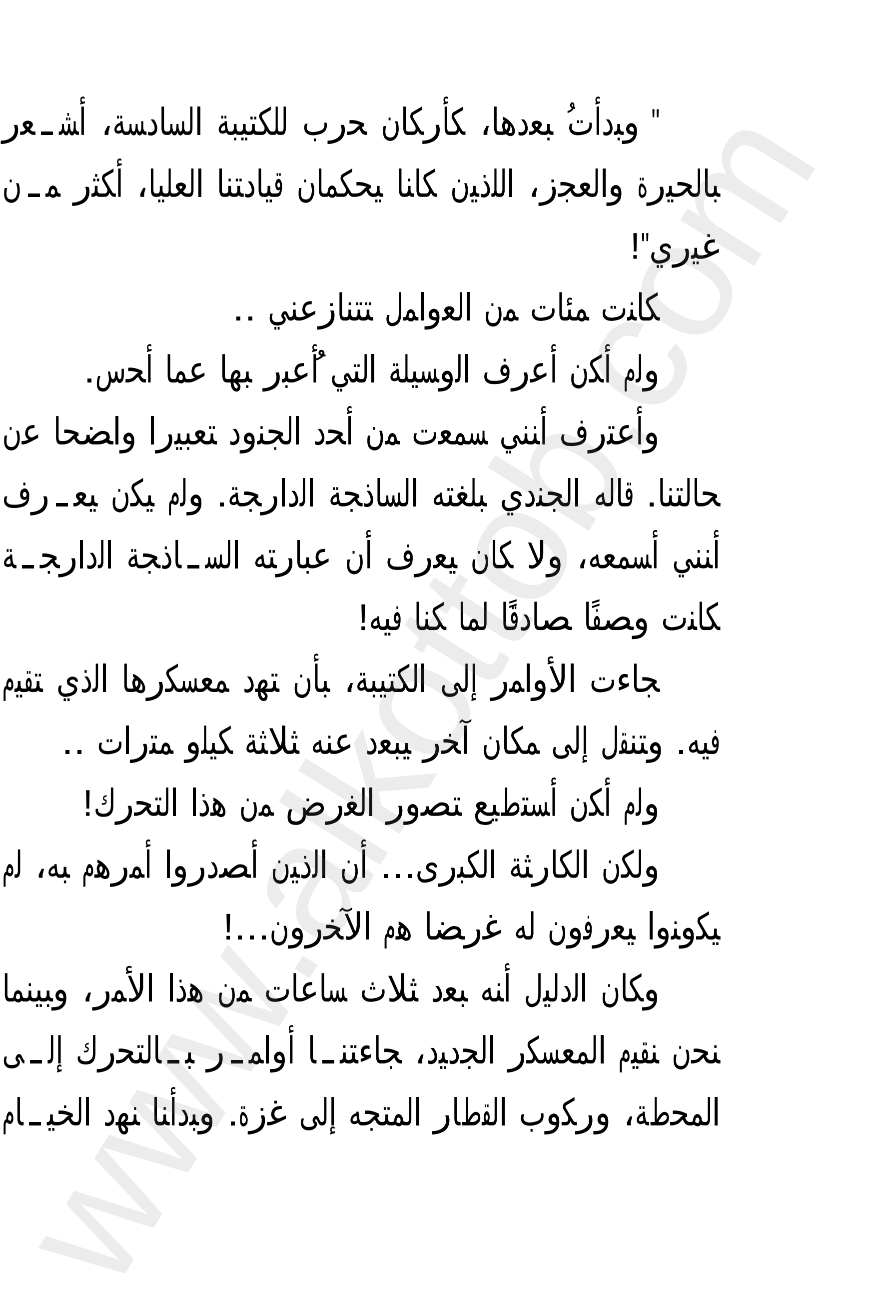
وأعترف أنني سمعت من أحد الجنود تعبيرا واضحا عن حالتنا. قاله الجندي بلغته الساذجة الدارجة. ولم يكن يعـرف أنني أسمعه، ولا كان يعرف أن عبارته السـاذجة الدارجـة كانت وصفًا صادقًا لما كنا فيه!

جاءت الأوامر إلى الكتيبة، بأن تهد معسكرها الذي تقيم فيه. وتنتقل إلى مكان آخر يبعد عنه ثلاثة كيلو مترات ..

ولم أكن أستطيع تصور الغرض من هذا التحرك!

ولكن الكارثة الكبرى... أن الذين أصدروا أمرهم به، لم يكونوا يعرفون له غرضا هم الآخرون...!

وكان الدليل أنه بعد ثلاث ساعات من هذا الأمر، وبينما نحن نقيم المعسكر الجديد، جاءتنـا أوامـر بـالتحرك إلـى المحطة، وركوب القطار المتجه إلى غزة. وبدأنا نهد الخيـام



التي لم نكد نفرغ من إقامتها. وجاء أحد الجاويشية إلى جندي كان منهمكًا في إقامة إحدى الخيام......

وقال له: يا عسكري .. هِد الخيمة ....

ونظر الجندي في دهشة إلى الجاويش.

ولما علم بأن أوامر جديدة بالتحرك لركوب القطار قـد صدرت، بدأ يهد الخيمة التي هدها في الصباح من مكانهـا، وبدأ عند الظهر يقيمها في مكان جديد، ثم أمر بهـدها مـرة أخرى، قبل أن يفرغ من إقامتها.

وسمعت الجندي بأذني يقول:

يا خيبتنا .. يا خيبتنا...... !

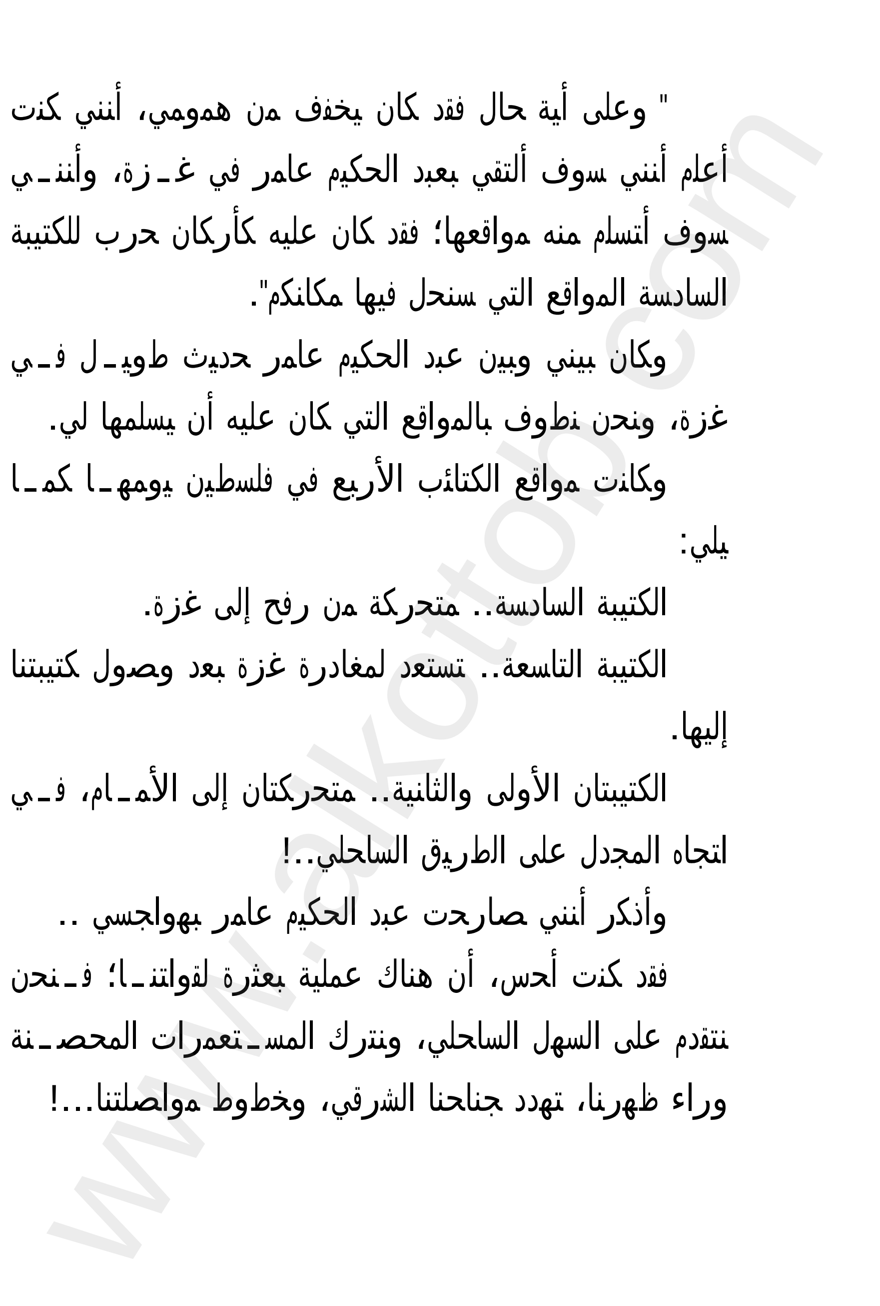
قالها منغمة ممدودة .. بلهجة ريفية ساخرة.....!

وأحسست أن الشكوك التي كانت تساورني، حول عجز قيادتنا وترددها، قد وصلت إلى الجنود. وأن هذا هو التعبير البسيط الساذج عنها.

وركبنا القطار إلى غزة وفي قلبي هموم ....!

***

ويكمل جمال عبد الناصر مذكراته قائلاً:



" وعلى أية حال فقد كان يخفف من همومي، أنني كنت أعلم أنني سوف ألتقي بعبد الحكيم عامر في غـزة، وأننـي سوف أتسلم منه مواقعها؛ فقد كان عليه كأركان حرب للكتيبة السادسة المواقع التي سنحل فيها مكانكم".

وكان بيني وبين عبد الحكيم عامر حديث طويـل فـي غزة، ونحن نطوف بالمواقع التي كان عليه أن يسلمها لي.

وكانت مواقع الكتائب الأربع في فلسطين يومهـا كمـا يلي:

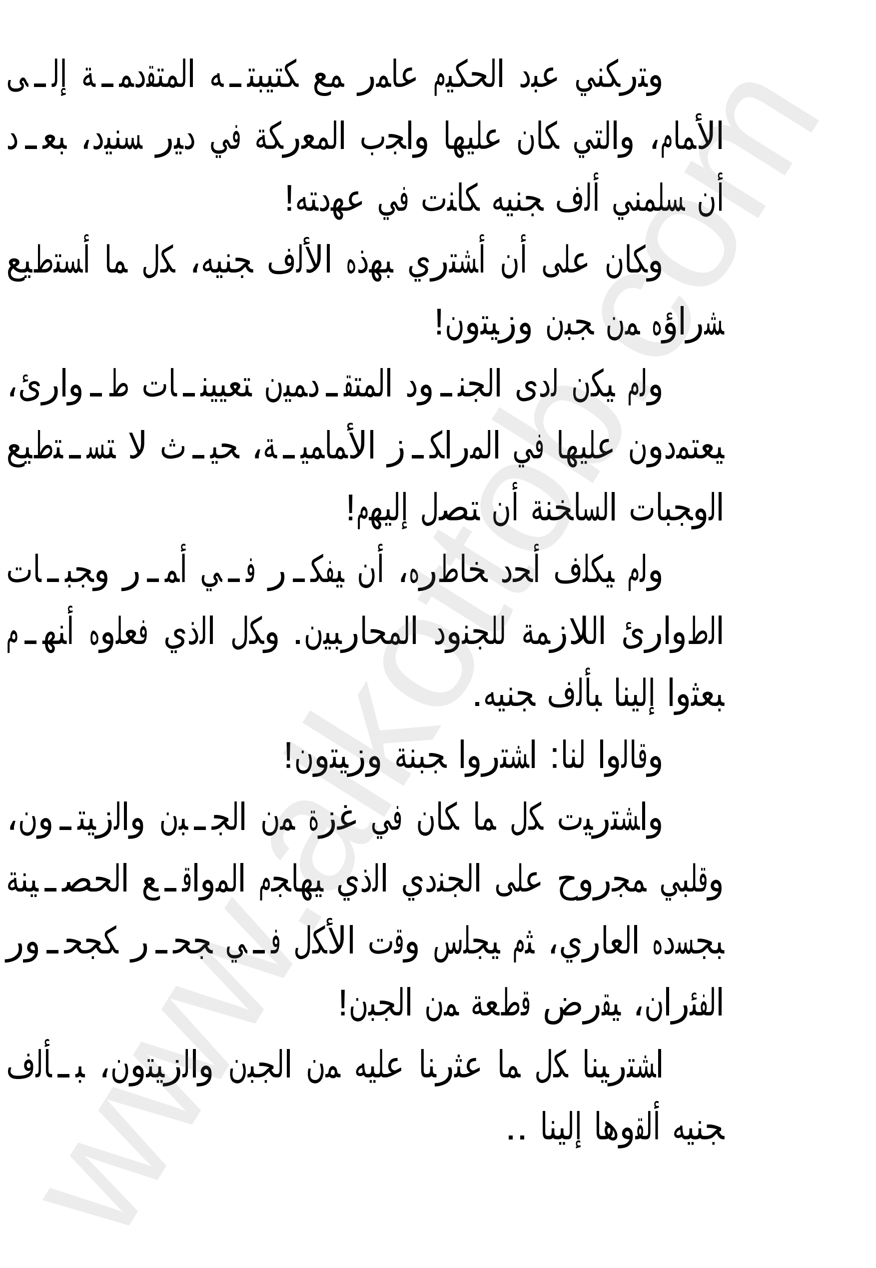
الكتيبة السادسة.. متحركة من رفح إلى غزة.

الكتيبة التاسعة.. تستعد لمغادرة غزة بعد وصول كتيبتنا إليها.

الكتيبتان الأولى والثانية.. متحركتان إلى الأمـام، فـي اتجاه المجدل على الطريق الساحلي..!

وأذكر أنني صارحت عبد الحكيم عامر بهواجسي ..

فقد كنت أحس، أن هناك عملية بعثرة لقواتنـا؛ فـنحن نتقدم على السهل الساحلي، ونترك المسـتعمرات المحصـنة وراء ظهرنا، تهدد جناحنا الشرقي، وخطوط مواصلتنا...!



وتركني عبد الحكيم عامر مع كتيبته المتقدمة إلى الأمام، والتي كان عليها واجب المعركة في دير سنيد، بعد أن سلمني ألف جنيه كانت في عهدته!

وكان على أن أشتري بهذه الألف جنيه، كل ما أستطيع شراؤه من جبن وزيتون!

ولم يكن لدى الجنود المتقدمين تعيينات طوارئ، يعتمدون عليها في المراكز الأمامية، حيث لا تستطيع الوجبات الساخنة أن تصل إليهم!

ولم يكلف أحد خاطره، أن يفكر في أمر وجبات الطوارئ اللازمة للجنود المحاربين. وكل الذي فعلوه أنهم بعثوا إلينا بألف جنيه.

وقالوا لنا: اشتروا جبنة وزيتون!

واشتريت كل ما كان في غزة من الجبن والزيتون، وقلبي مجروح على الجندي الذي يهاجم المواقع الحصينة بجسده العاري، ثم يجلس وقت الأكل في جحر كجحور الفئران، يقرض قطعة من الجبن!

اشترينا كل ما عثرنا عليه من الجبن والزيتون، بألف جنيه ألقوها إلينا ..

وقالوا لنا: تصرفوا....!

وكان قلبي المجروح يهتف بي في كل دقة من دقاته:

هذه .. ليست حربا...!

وبدأت وأنا في مكان في غزة ألاحق تطورات معركـة "دير سنيد"، التي كانت قد بدأت بالفعل، ألاحقها دقيقة بدقيقة.

فقد كنت أسمع دوي المدافع عن بعد ..

وكان الجرحى من رجالنا يصلون أفواجا بعـد أفـواج، إلى مستشفي غزة. وكانت ليلـة ٢٠ مـايو أتعـس ليـالي حياتي...!

قضيت هذه الليلة في مستشفي غزة العسكري، والأسِرة كلها حولي مليئة بجرحى معركة "دير سنيد" التي مـا تـزال مستعمرة..!

كل هذا وراديو القاهرة يذيع بلاغًا، أصـدرته القيـادة العامة، تقول فيه أن قواتنا احتلت مسـتعمرة ديـر سـنيد، واقتحمتها اقتحاما رائعا بالمشاة......!

وكانت هذه كذبة مؤلمة....!

فإن المستعمرة لم تكن قد احتلت بعد. وإن كان الشـيء الوحيد الصحيح في البلاغ الرسمي، هو أن المشاة كانت تقوم بعملية اقتحام رائعة..!

وكانت في أعماقي ثورة على الذي كان يحدث أمـام دير سنيد وتصل لي أخباره ..

أية معركة هذه...؟

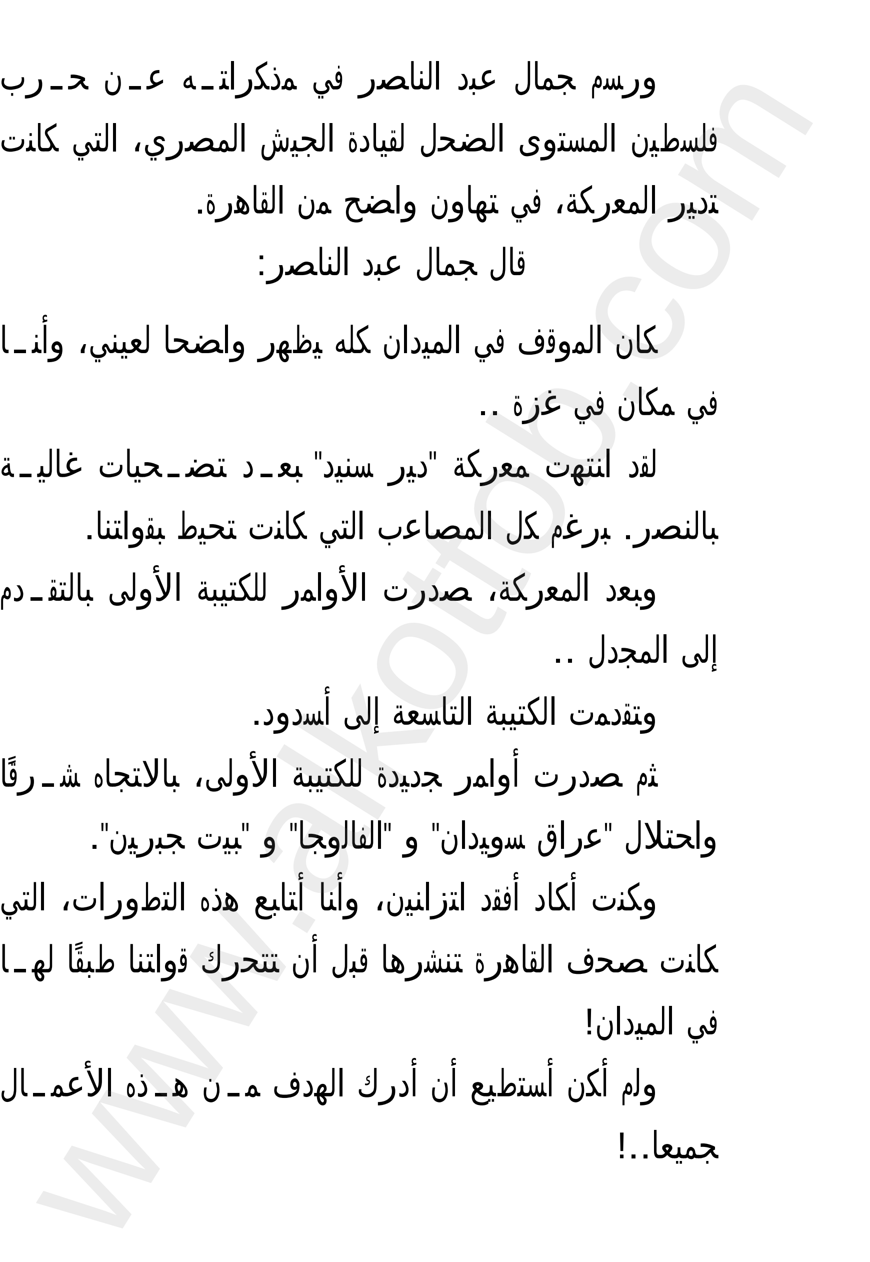
هذه التي يستهلك فيها جنود المشـاة، بهـذه الطريقـة المروعة، في هجمات نهارية مكشوفة، وأجسـاد عاريـة لا تحميها قوات مدرعة، أمام تحصينات قوية، ومدافع ماكينـة متحفزة في أيدٍ معدة مدربة....؟

صحيح أن موجات مشاتنا لم تتوقف ..

كانت موجة منهم تسقط أمام النار، فتجيء موجة عددها غير هيابة ولا خائفة..!

ولكن أكنا نسوق جنودنا إلى معركة.. أم كنا ندفع بهـم في غير رحمة إلى مجزرة ....!

***



ورسم جمال عبد الناصر في مذكراته عن حرب فلسطين المستوى الضحل لقيادة الجيش المصري، التي كانت تدير المعركة، في تهاون واضح من القاهرة.

قال جمال عبد الناصر:

كان الموقف في الميدان كله يظهر واضحا لعيني، وأنا في مكان في غزة ..

لقد انتهت معركة "دير سنيد" بعد تضحيات غالية بالنصر. برغم كل المصاعب التي كانت تحيط بقواتنا.

وبعد المعركة، صدرت الأوامر للكتيبة الأولى بالتقدم إلى المجدل ..

وتقدمت الكتيبة التاسعة إلى أسدود.

ثم صدرت أوامر جديدة للكتيبة الأولى، بالاتجاه شرقًا واحتلال "عراق سويدان" و "الفالوجا" و "بيت جبرين".

وكنت أكاد أفقد اتزانين، وأنا أتابع هذه التطورات، التي كانت صحف القاهرة تنشرها قبل أن تتحرك قواتنا طبقًا لها في الميدان!

ولم أكن أستطيع أن أدرك الهدف من هذه الأعمال جميعا..!

لقد كان هم قيادتنا أن تحتل أكبر مساحة مـن الأرض. وكانت النتيجة أن الكتائب الأربع توزعـت علـى خطـوط طويلة. وأصبحت قواتنا المبعثرة لا هم لها إلا حماية نفسـها ومواصلاتها.

ولم يعد هناك تحت تصرف القيادة احتياطي متحـرك، تستطيع أن توجهه لضرب العدو.

وأصبح قائد الجيش المحارب .. قائدا بلا جنود!

أو هو في الكثير يحكم مجموعة مـن نقـط الحـراس المبعثرة على جبهة واسعة!

وكنت أرى بوضوح أننا فقدنا تماما القدرة على المبادأة. وأسلمناها للعدو طائعين مختارين!

وكان هذا الذي كنت أراه في مكان في غـزة واضـحا أمام الضباط والجنود في الخنادق، وكان له أثره المدمر على الروح المعنوية.

كان كل جندي يشعر بالنقص في السلاح ..

وأكثر منه يشعر بالنقص في الخطط..

وأحس كل واحد منا، أن القائد العام فـي الميـدان، لا يملك من أمر قواته شيئًا، وأنه لا يتصرف طبقًا لاحتياجـات

الميدان. وإنما هو يتصرف تحت تأثير عوامل أخـرى مـا أبعدها عن حسابه في ظروف الميدان!

وكان شعور الضباط والجنود أنهم تحت رحمة العدو! هناك.. في مراكزهم المعزولة المتنـاثرة، كـان هـذا يجعلهم يشعرون بأنهم هدف منعزل محدد ثابت، أمام عـدو قادر على الحركة السريعة!

وعاد الكلام في الخنادق مرة أخـرى عـن "الحـرب السياسية"!

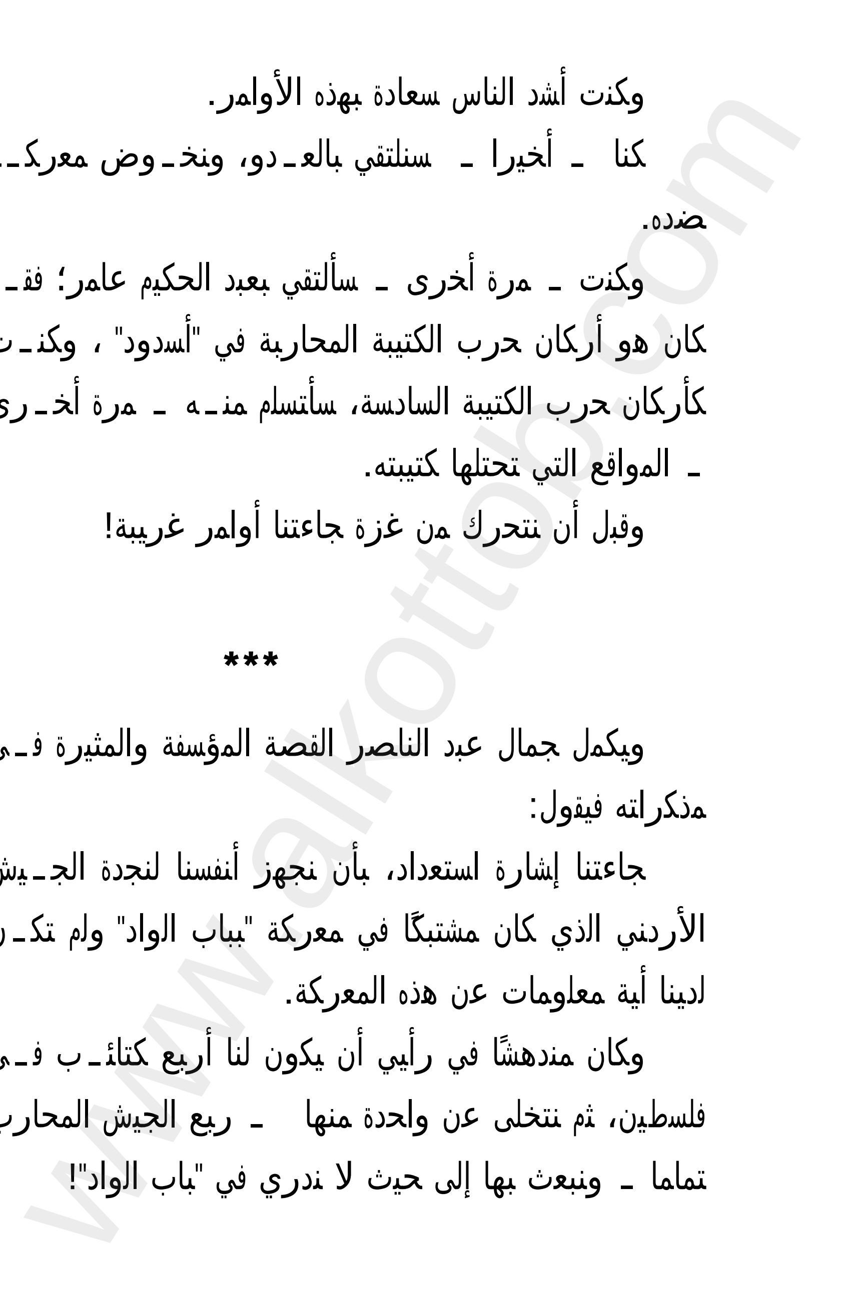
وكان هذا أبغض شئ إلى تفكيري في تلك الظروف؛ فقد كنت أعرف من عبر التاريخ، أنه ما من جيش دخل حربـا سياسية إلا هزم فيها. وكانت آخر الأمثال في ذاكرتي هزيمة "ويفل" في معركة اليونان.

إن الحرب يجب أن تكون حربا....!

وكان لنا قائد .. ولكن ليس له جنود ...!

لأنه بعثرهم على جبهة واسعة؛ بحيث أصبحوا قـوات حراسة، تكاد مع التفاؤل الشديد تكفي لحماية نفسها فقط!

ووصلت لي الأوامر، بأن أسـلمها قطـاع غـزة، لأن كتيبتنا كان عليها أن تتقدم إلى الأمام، وتحتل مراكز "أسدود".



وكنت أشد الناس سعادة بهذه الأوامر.

كنا - أخيرا - سنلتقي بالعـدو، ونخـوض معركـة ضده.

وكنت - مرة أخرى - سألتقي بعبد الحكيم عامر؛ فقـد كان هو أركان حرب الكتيبة المحاربة في "أسدود" ، وكنـت كأركان حرب الكتيبة السادسة، سأتسلم منـه - مرة أخـرى - المواقع التي تحتلها كتيبته.

وقبل أن نتحرك من غزة جاءتنا أوامر غريبة!

***

ويكمل جمال عبد الناصر القصة المؤسفة والمثيرة فـي مذكراته فيقول:

جاءتنا إشارة استعداد، بأن نجهز أنفسنا لنجدة الجـيش الأردني الذي كان مشتبكًا في معركة "بباب الواد" ولم تكـن لدينا أية معلومات عن هذه المعركة.

وكان مندهشًا في رأيي أن يكون لنا أربع كتائـب فـي فلسطين، ثم نتخلى عن واحدة منها - ربع الجيش المحارب تماما - ونبعث بها إلى حيث لا ندري في "باب الواد"!

ولكن الأوامر من حسن الحظ ألغيت!

وكنا على استعداد للتحرك. ومضينا إلى حيث كان علينا أن نمضي أولاً.

إلى " أسدود" ..

إلى حيث سنلتقي ـ أخيرا ـ بالعدو وجها لوجه!

والتقيت بعبد الحكيم عامر في "أسدود".

وكان كمن تركتُه آخر مرة ...!

ابتسامته التي تبعث على الثقة، وروحه الطليقة.

وقضينا معا ليلة لا أنساها....!

كان فراشه في حفرة في حديقة برتقال ..

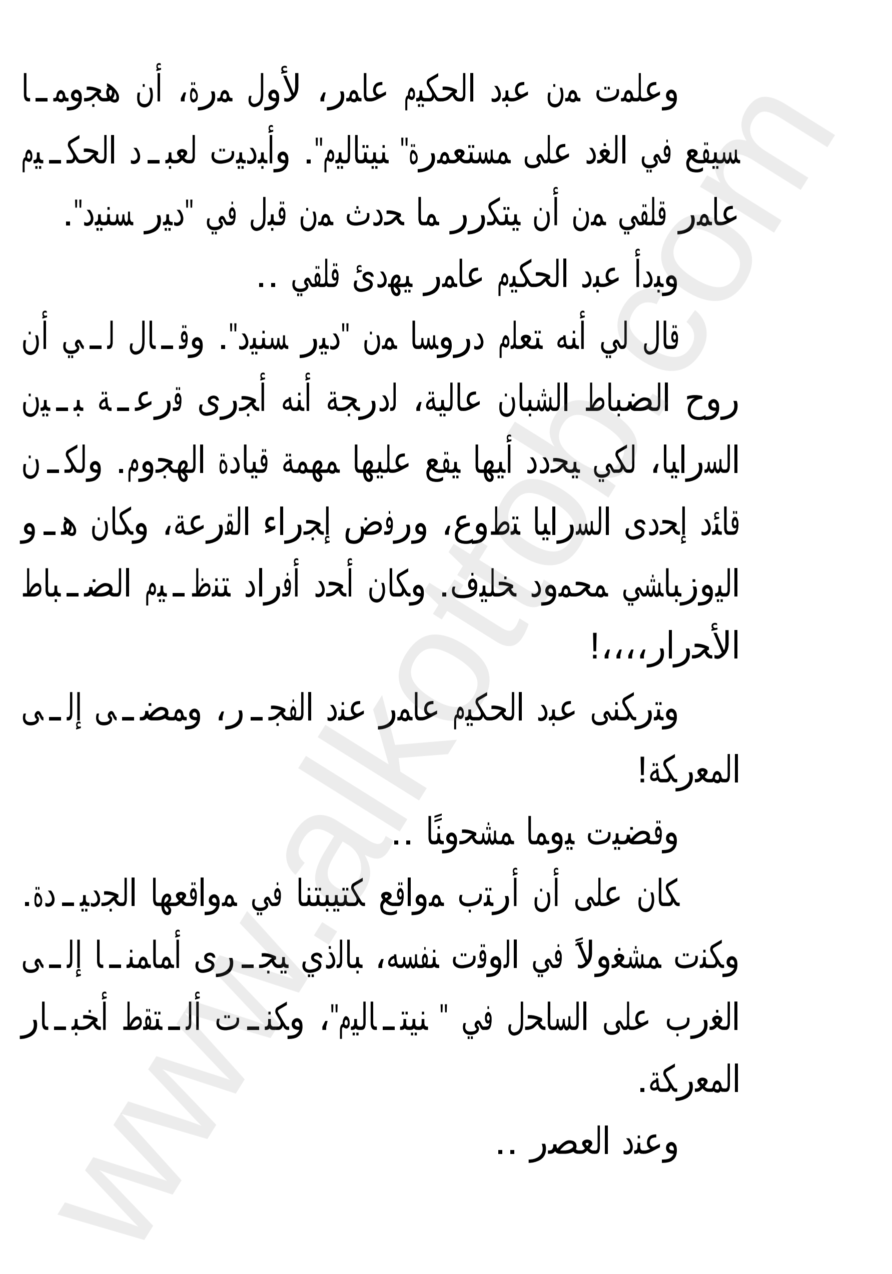
ووضعتُ فراشي في نفس الحفرة، على الناحية الأخرى من شجرة البرتقال.

ولم ننم طوال الليل.

كان الجو غريبا مثيرا.

كنا في أقصى المواقع الأمامية قرب العدو.

وكان جهاز اللاسلكي بجوار عبد الحكيم عـامر، ينقـل إليه التطورات دقيقة بدقيقة.



وعلمت من عبد الحكيم عامر، لأول مرة، أن هجومـا سيقع في الغد على مستعمرة" نيتاليم". وأبديت لعبـد الحكـيم عامر قلقي من أن يتكرر ما حدث من قبل في "دير سنيد".

وبدأ عبد الحكيم عامر يهدئ قلقي ..

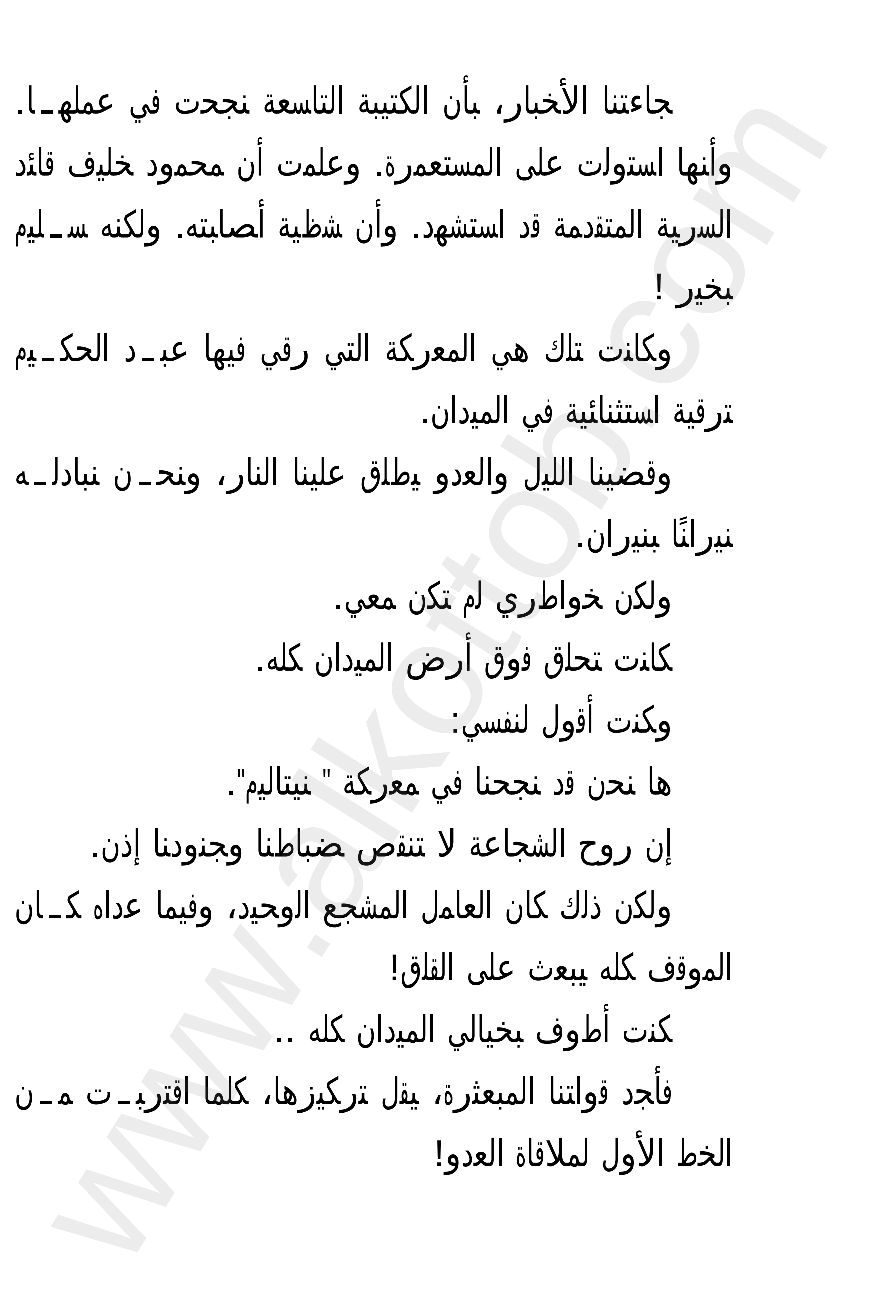
قال لي أنه تعلم دروسا من "دير سنيد". وقـال لـي أن روح الضباط الشبان عالية، لدرجة أنه أجرى قرعـة بـين السرايا، لكي يحدد أيها يقع عليها مهمة قيادة الهجوم. ولكـن قائد إحدى السرايا تطوع، ورفض إجراء القرعة، وكان هـو اليوزباشي محمود خليف. وكان أحد أفراد تنظـيم الضـباط الأحرار،،،،!

وتركنى عبد الحكيم عامر عند الفجـر، ومضـى إلـى المعركة!

وقضيت يوما مشحونًا ..

كان على أن أرتب مواقع كتيبتنا في مواقعها الجديـدة. وكنت مشغولاً في الوقت نفسه، بالذي يجـرى أمامنـا إلـى الغرب على الساحل في " نيتـاليم"، وكنـت ألـتقط أخبـار المعركة.

وعند العصر ..



جاءتنا الأخبار، بأن الكتيبة التاسعة نجحت في عملها. وأنها استولت على المستعمرة. وعلمت أن محمود خليف قائد السرية المتقدمة قد استشهد. وأن شظية أصابته. ولكنه سليم بخير !

وكانت تلك هي المعركة التي رقي فيها عبد الحكيم ترقية استثنائية في الميدان.

وقضينا الليل والعدو يطلق علينا النار، ونحن نبادله نيرانًا بنيران.

ولكن خواطري لم تكن معي.

كانت تحلق فوق أرض الميدان كله.

وكنت أقول لنفسي:

ها نحن قد نجحنا في معركة " نيتاليم".

إن روح الشجاعة لا تنقص ضباطنا وجنودنا إذن.

ولكن ذلك كان العامل المشجع الوحيد، وفيما عداه كان الموقف كله يبعث على القلق!

كنت أطوف بخيالي الميدان كله ..

فأجد قواتنا المبعثرة، يقل تركيزها، كلما اقتربت من الخط الأول لملاقاة العدو!

كانت منتشرة على مساحات واسعة من الأرض، علـى عددها القليل وكانت كما قلت، قد تحولت إلى نقط حراسـة، عليها أن تحمي نفسها...!

ولم يكن هناك فائض قوات يمكن استخدامه في هجوم.

ولم نكن نحارب كجيش..!

وإنما تحولنا بعد دخول فلسطين إلى جماعات، متفرقـة على مراكز واسعة الانتشار...!

وكانت النتيجة أن العدو نجح في تثبيتنا فيها...!

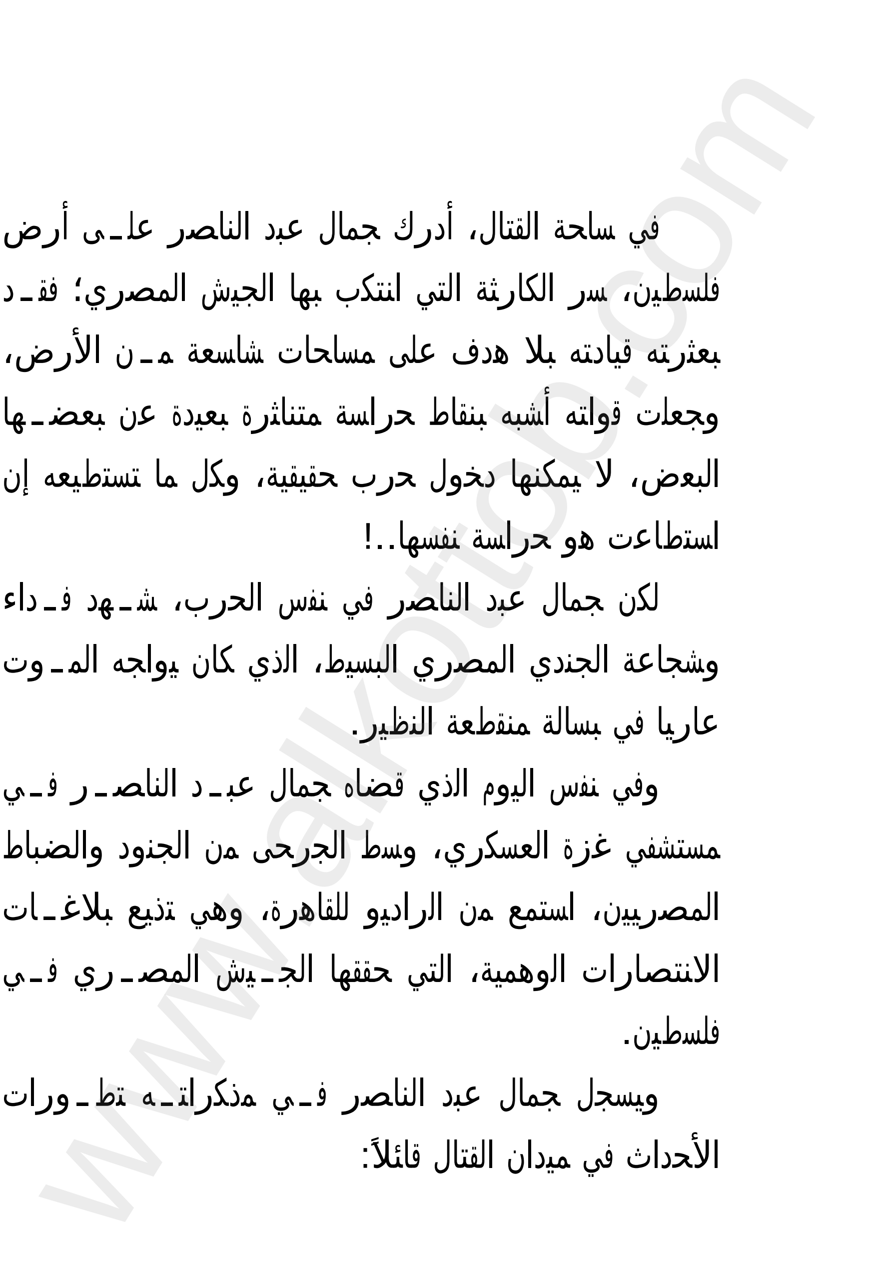
واحتكر لنفسه حق الحركة، وحشد القـوات، والهجـوم علينا من حيث يريد!

وكنت أسأل نفسي وألح في سؤالها:

- لماذا فعل قائدنا ذلك...؟
- لماذا شتت قواته وبعثرها بهذه الطريقة ...!
- ولماذا سمح لنفسه، أن يندفع في خط طويل، مكشوف من كل ناحية أمام العدو.......؟!

الفصل العاشــر

طعمية في المستشفي .. لجمال عبد الناصر..!

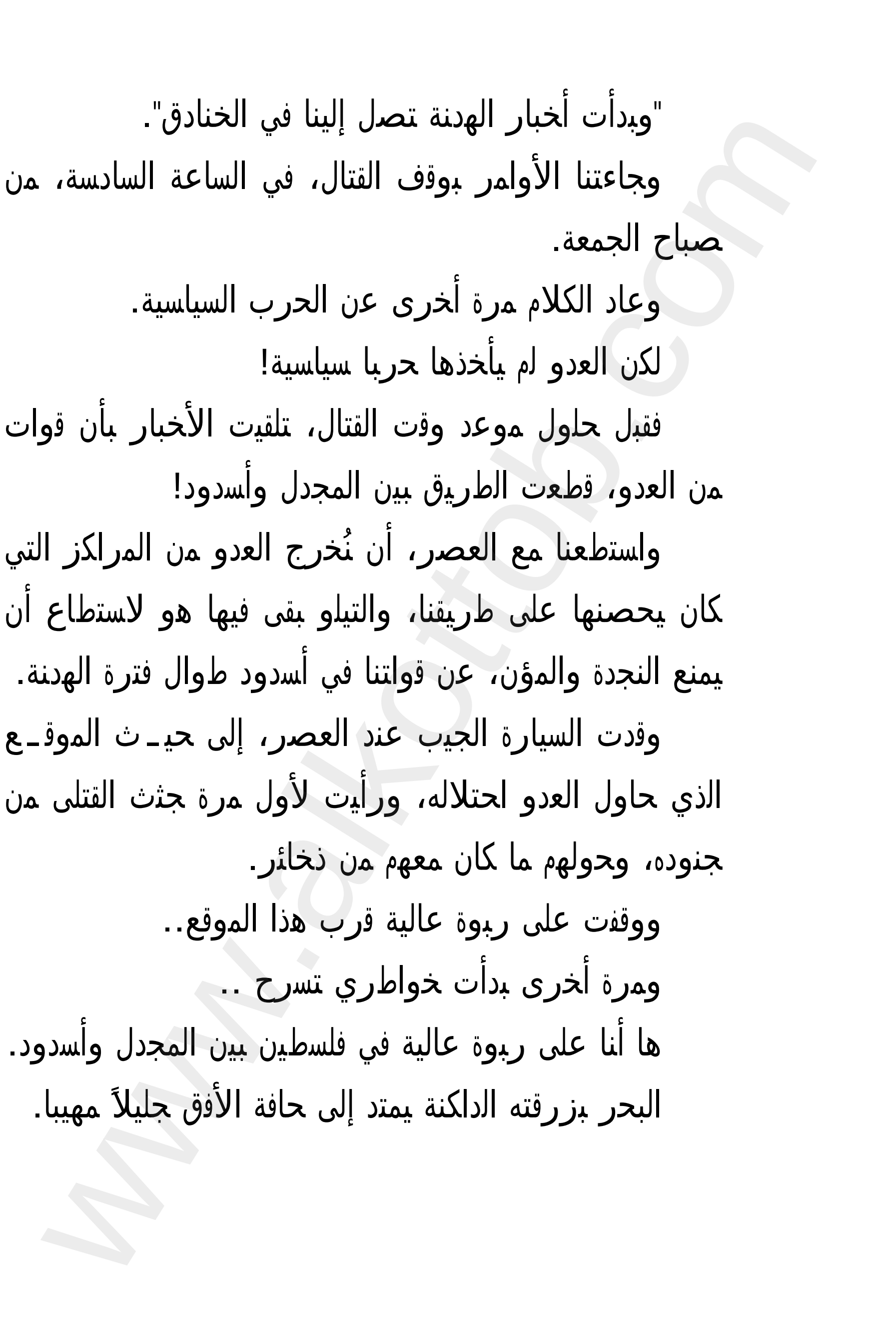


في ساحة القتال، أدرك جمال عبد الناصر علـى أرض فلسطين، سر الكارثة التي انتكب بها الجيش المصري؛ فقـد بعثرته قيادته بلا هدف على مساحات شاسعة مـن الأرض، وجعلت قواته أشبه بنقاط حراسة متناثرة بعيدة عن بعضـها البعض، لا يمكنها دخول حرب حقيقية، وكل ما تستطيعه إن استطاعت هو حراسة نفسها..!

لكن جمال عبد الناصر في نفس الحرب، شـهد فـداء وشجاعة الجندي المصري البسيط، الذي كان يواجه المـوت عاريا في بسالة منقطعة النظير.

وفي نفس اليوم الذي قضاه جمال عبـد الناصـر فـي مستشفي غزة العسكري، وسط الجرحى من الجنود والضباط المصريين، استمع من الراديو للقاهرة، وهي تذيع بلاغـات الانتصارات الوهمية، التي حققها الجـيش المصـري فـي فلسطين.

ويسجل جمال عبد الناصر فـي مذكراتـه تطـورات الأحداث في ميدان القتال قائلاً:



"وبدأت أخبار الهدنة تصل إلينا في الخنادق".

وجاءتنا الأوامر بوقف القتال، في الساعة السادسة، من صباح الجمعة.

وعاد الكلام مرة أخرى عن الحرب السياسية.

لكن العدو لم يأخذها حربا سياسية!

فقبل حلول موعد وقت القتال، تلقيت الأخبار بأن قوات من العدو، قطعت الطريق بين المجدل وأسدود!

واستطعنا مع العصر، أن نُخرج العدو من المراكز التي كان يحصنها على طريقنا، والتيلو بقى فيها هو لاستطاع أن يمنع النجدة والمؤن، عن قواتنا في أسدود طوال فترة الهدنة.

وقدت السيارة الجيب عند العصر، إلى حيـث الموقـع الذي حاول العدو احتلاله، ورأيت لأول مرة جثث القتلى من جنوده، وحولهم ما كان معهم من ذخائر.

ووقفت على ربوة عالية قرب هذا الموقع..

ومرة أخرى بدأت خواطري تسرح ..

ها أنا على ربوة عالية في فلسطين بين المجدل وأسدود.

البحر بزرقته الداكنة يمتد إلى حافة الأفق جليلاً مهيبا.

والشمس الحمراء في موكب الغروب، وألوانه الرائعـة تهبط وراء البحر.

وبالقرب من جثثِ عدوٍ، يحاول أن يقتلنا، وقد نجحنا في قتله.

وإلى الشرق.. مواقع قواتنا المتناثرة.

التي أدت كل ما طُلب منها حتى الآن، رغـم العقبـات التي واجهتها، والمصاعب التي سدت طريقها. رغم الجبهـة الشاسعة. رغم القوات المشـتتة المبعثـرة. رغـم الحـرب السياسية. رغم النار تندفع إليها بلا دروع تحميها..!

وإلى الجنوب مقر قيادتنا ..

التي تعيش في ميدان القتال. وتحارب حربا سياسية...!

وإلى الجنوب الشرقي عاصمتنا ..

التي تتحكم في أمرنا، وتوجهنا إلى حيث تريد.

وإرادتها اليوم .. حرب .. ولا حرب!

وهناك بعيدا في نيويورك مجلس الأمن.

حيث مجموعة من إحدى عشر رجلًا قرروا، فيما بينهم أن تقف المعركة التي نعيش فيها، وعلينا أن نطيع...!

وملأت رئتي بهواء البحر..

واستدرت عائدا إلى سيارتي، عبر جثث العدو المبعثرة قرب الطريق...

وأنا أسأل نفسي:

ماذا بعد ذلك .. ترى ما الذي يخبئه لنا القدر؟!

***

ولم يكن ممكنا، أن يعود جمال عبد الناصر من حـرب فلسطين فقط..!

كان القدر يخبئ له، أن يحصـل علـى هـذه الأرض العربية الغالية. على أغلى وسام يمكن أن يحمله محارب في أي حرب شريفة !

وكان هذا الوسام .. هو رصاصة تلقاها جمـال عبـد الناصر في صدره في ساحة الميدان..!

ورغم ذلك .. فقد تحامل البطل على نفسه...!

وتجلد كما يفعل المقاتلون الأشداء.

وفي مستشفي مجدل العسكري فحصه أحد الأطباء.

ومضى جمال عبد الناصر في مذكراته يكتب تفاصـيل ما حدث قائلاً:

" نظرت إلى الطبيب الذي فحصني، بعد أن وصلت إلى مستشفي المجدل في دهشة .. وأنا لا أكاد أصدق ما يقول"!

لقد كان تحليله لظروف الرصاصـة، التـي أصـابت صدري، أغرب من أن يقبل بسهولة!

كنت قد دخلت عليه وأنا واثق من موضع الرصاصـة، ومن نزيف الدم في صدري، أن الجرح نافذ، وأن الرصاصة وصلت إلى حدود القلب..!

ورفعت منديلي الغارق بالدماء.

والذي كنت أحاول به وقف الدم المتدفق من صدري.

وقلت له: صارحني بالحقيقة ولا تتردد..!

بدأ الطبيب مرة أخرى يفحص الجرح، وهو يهز رأسه بطريقة، لم أستطع إدراك مدلولها.

ونظرت إلى الطبيب ..

وقلت له: أهو جرح نافذ...؟

ابتسم الطبيب وهو ما يزال يهز رأسه،

وقال: اعذرني .. فإننا لا نرى مثل هذه الحالة كل يوم!

ثم سألني:

هل تعرف ما حدث لك؟

قلت: أعرف أهم ما فيه على الأقـل.. لقـد أصـابتني رصاصة في صدري....!

قال: هذا صحيح .. ولكن هل تعرف كيف أصابتك؟

بدأت أضيق بهذه المناقشة..

وقلت له: كما يصيب الرصاص أي واحد من التاكسي!

هز الطبيب رأسه ينفي نفيا قاطعا .

وقال: لا .. لقد أصابتك رصاصة .. ولكـن بطريقـة تختلف عن إصابة بقية الناس بالرصاص .. إن الطلقة التـي أصابتك اصطدمت بالجدار المصفح للحمالـة التـي كنـت تركبها، فحدث لها شئ غريب لا يحـدث للرصـاص. لقـد انفصلت الرصاصة نفسها عن غلافها المعـدني، وطاشـت الرصاصة عنك، أما الذي دخل إلى صدرك فكـان غلافهـا المعدني فقط !

واستلقيت أمام الطبيب على مائدة العمليات ..

وبدأت مشارطه تجري حول مكان الإصابة، وبعد عشر دقائق قال لي وهو يناولني قطعا من شظايا النيكل الممزق:

خذ .. احتفظ بها !

وأمسكت الشظايا الممزقة التـي كانـت مسـتقرة فـي صدري. ووضعتها في راحة يدي .. ورحت أتأملها.

وحين سألت نفسي :

ماذا كان يمكن أن يحدث لو أن الأمر جرى على العكس .. لو كان الغلاف هو الذي طاشن وكانت الرصاصة نفسـها هي التي اتجهت إلى صدري؟!

حين سألت نفسي هذا السؤال ..

وجدت روحي كلها أقرب ما تكون إلى ا ، وأنا أغمغم في سري:

الحمد !

***

وفي إنسانية رائعة ....

وبساطة مذهلة... يمضي جمال عبد الناصر عائدا إلـى أيامه في فلسطين، لحظة بلحظة، ودقيقـة بدقيقـة، وسـاعة بساعة، ويوما بيوم. حتى يشعر من يقرأ هذه المذكرات، أنه عاش هذه الحادثة مع أبطالها الحقيقيين:

ويكمل جمال عبد الناصر حديثه، عـن ذكرياتـه فـي مستشفي المجدل، بعد إصابته برصاصة في صدره ونجاتـه من الموت .. فيقول:

" كان مستشفي المجدل كله خاليا إلا مني"!

وكنت حين وصلت إليه في الصباح، النزيل الوحيد في كل عنابره.

وقتٌ طويلٌ ... وطلبتُ فنجانًا مـن الشـاي السـاخن. أخذت أحتسيه في هدوء ، وعقلي مازال يدور حول الطريقة الغريبة التي نجوت بها.

وأحسست بعد فنجان الشاي، أن شهيتي قـد انفتحـت، وأنني أشعر بالجوع كما لم أشعر به أبدا !

وتلقيت صدمة حياتي......

حين قيل لي: ليس عندنا طعام.....!

قلت بدهشة: كيف .. إنني جائع؟

قيل لي: المفروض أن تبعث إليك كتيبتك بطعامك إلـى هنا!

نظرت إلى الذي قالها لي ..

وقلت مستنكرا : كتيبتي....؟

وعدت أكرر من جديد :

كتيبتي .. كتيبتي...؟!

ثم نظرت إليه أقول:

أين هي كتيبتي..؟

وقفز فجأة إلى خيالي وإلى أعصابي إحساسي بكتيبتي !

أين هي؟

لقد تركتها لآخر مرة منذ ساعات قليلة، فـي وضـع لا تُحسد عليه.

تركتها مشتتة على مواقع مكشوفة مفتوحة !

تركتها، وقد أصدرتْ إليها قيادتنا أمرا بأن تدخل وسط العدو لكي تحاصره.

وهززت رأسي، والصورة الكاملة للحالة، التي تركـت عليها كتيبتي تملأ وجداني.

وعدت أقول، وكأنني أكلم نفسي بصوتٍ عالٍ..!

نعم .. هذا هو الذي فعلوه تماما .. قالوا لنا ادخلوا وسط العدو لكي تحاصروه، وهو يحيط بنا من كل جانب..؟!

لقد حدث ما كان يجب أن يحدث !

حين أصبحنا وسط قوات العدو، أصبحت قواته هي التي تحاصرنا وليس نحن الذين نحاصر قواته !

نعم .. كيف؟

وكيف فكروا في هذا !

وأفقتُ من خواطري، على صوت الـذي طلبـت منـه الطعام في مستشفي المجدل...

وهو يقول: هيه .. هل رتبت مع كتيبتك أن تبعث إليك بطعام؟

قلت له، ونصف ابتسامة مغْتصبة تمر على شفتي.

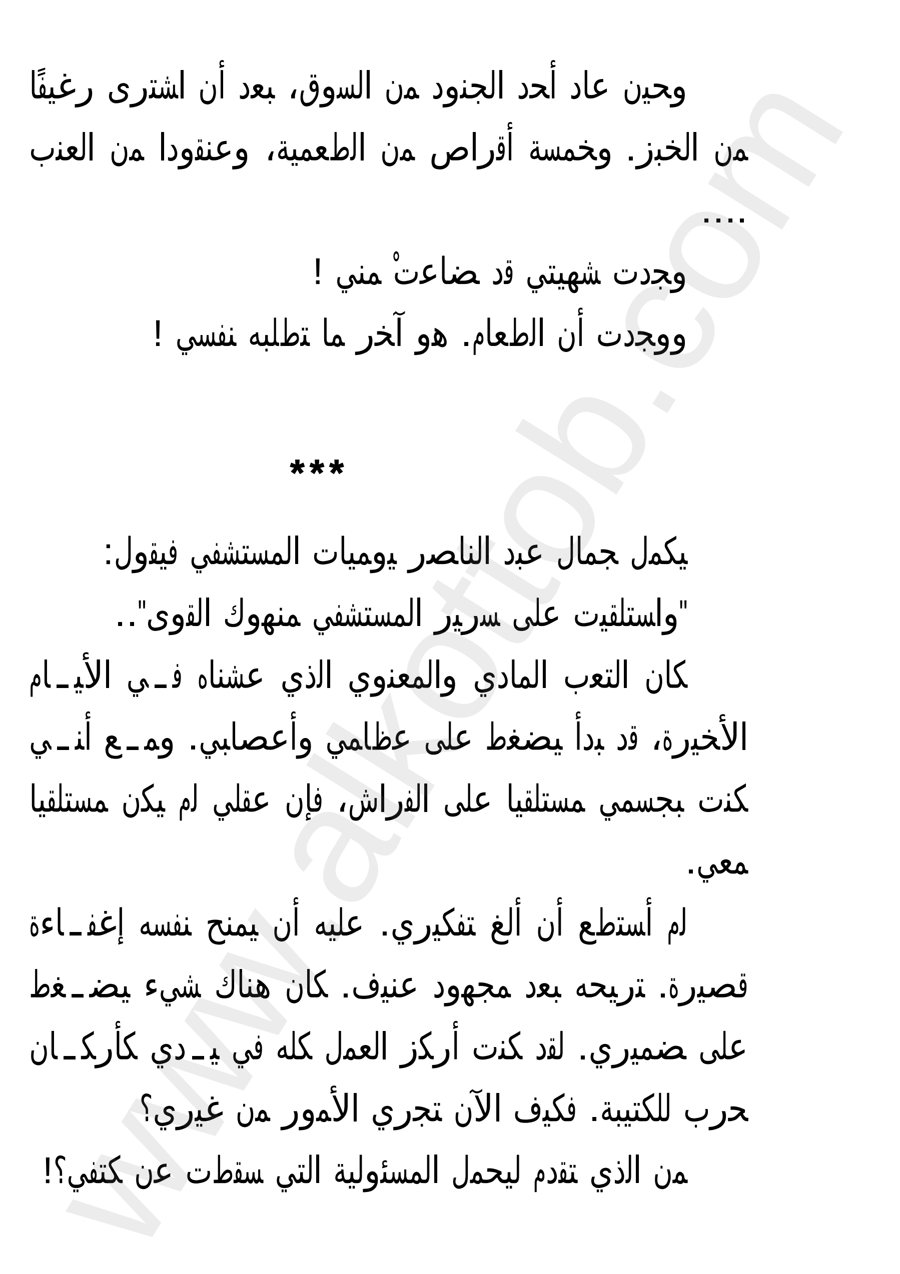
ليت كتيبتي، في مواقعها التي هي فيها، تجد من يبعـث إليها بطعام !

نظر إلي الرجل ..

وقال لي: لا أفهمك !

قلت له وأنا أنهي المناقشة:

ليست هذه مشكلة ملحة على أية حال .. هل أجد عندك من يذهب إلى السوق لكي يشترى لي طعاما؟



وحين عاد أحد الجنود من السوق، بعد أن اشترى رغيفًا من الخبز. وخمسة أقراص من الطعمية، وعنقودا من العنب ....

وجدت شهيتي قد ضاعتْ مني !

ووجدت أن الطعام. هو آخر ما تطلبه نفسي !

***

يكمل جمال عبد الناصر يوميات المستشفي فيقول:

"واستلقيت على سرير المستشفي منهوك القوى"..

كان التعب المادي والمعنوي الذي عشناه في الأيام الأخيرة، قد بدأ يضغط على عظامي وأعصابي. ومع أنني كنت بجسمي مستلقيا على الفراش، فإن عقلي لم يكن مستلقيا معي.

لم أستطع أن ألغ تفكيري. عليه أن يمنح نفسه إغفاءة قصيرة. تريحه بعد مجهود عنيف. كان هناك شيء يضغط على ضميري. لقد كنت أركز العمل كله في يدي كأركان حرب للكتيبة. فكيف الآن تجري الأمور من غيري؟

من الذي تقدم ليحمل المسئولية التي سقطت عن كتفي؟!

وما هو تأثير عمله على الضباط والجنود في مواقعهم؟

وهتف بي خاطر:

- ماذا تفعل أنت هنا .. وهم وحدهم هناك؟

ومضى الخاطر الهاتف:

- إن حرصك غير نافذ .. فما هو معنـى بقائـك فـي المستشفي .. إنها مجرد شظايا تيكل دخلت صدرك؟

- وصممتُ أن أقوم ..

- ارتكزت بمرفقي على حافة الفراش..

- وبدأت أرفع جسدي .

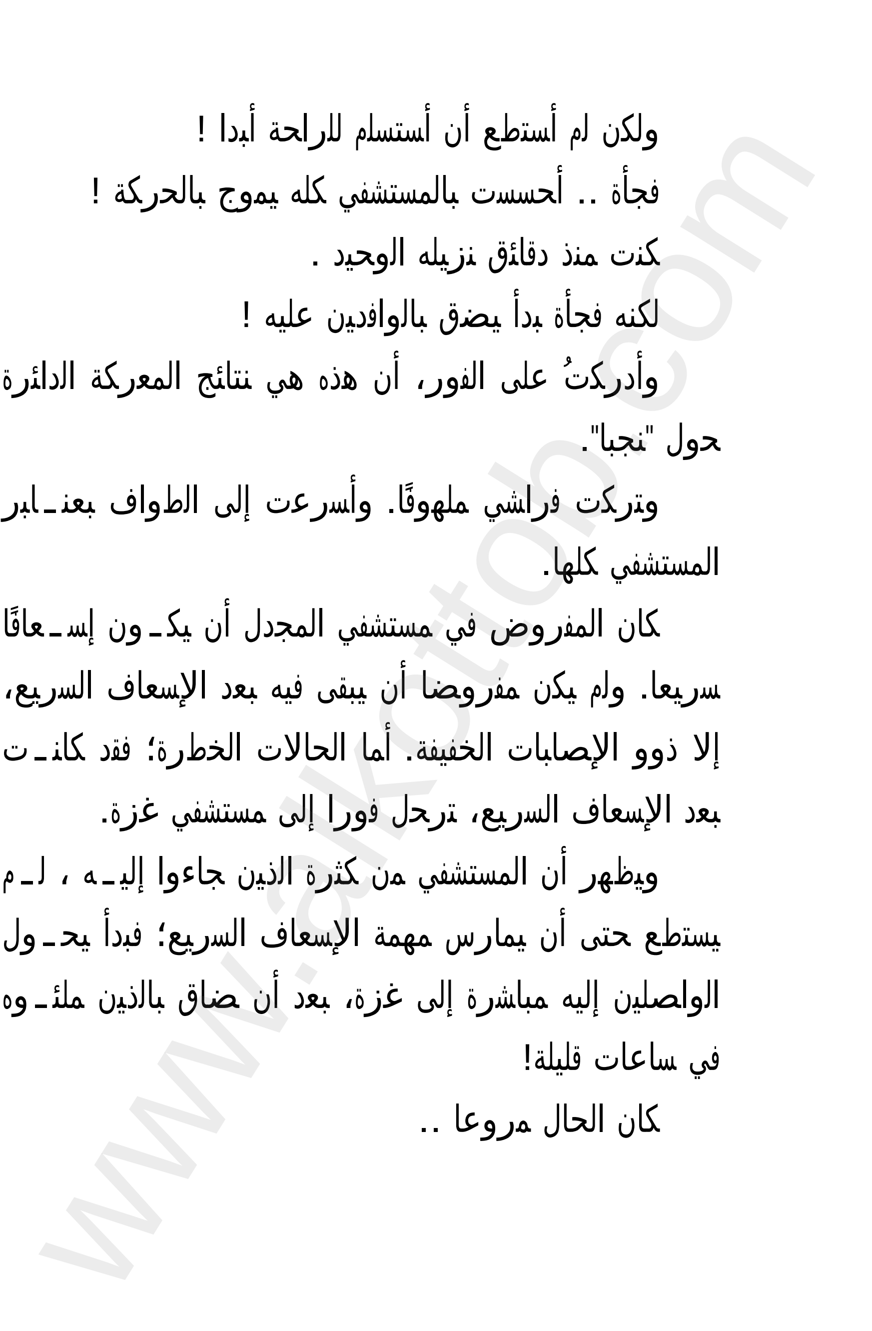
ولكني لم أستطع أن أمضي في المحاولة إلى آخرها !

وتركت الجزء الذي كنت قد تمكنت مـن رفعـه مـن جسدي، يعود فيرتمي على الفراش من جديد.

كنت متعبا ..

وكان تأثير الصدمة " صدمة الإصابة"، وتأثير الدم الذي نزف من صدري، مازالا طاغيين على أعصابي .

وعزمت فيما بيني وبين نفسي، أن أستسلم للراحة قليلاً. ثم أهب بعدها لكي ألحق بكتيبتي، في مواقعها التي تركتُهـا عندها.



ولكن لم أستطع أن أستسلم للراحة أبدا !

فجأة .. أحسست بالمستشفي كله يموج بالحركة !

كنت منذ دقائق نزيله الوحيد .

لكنه فجأة بدأ يضق بالوافدين عليه !

وأدركتُ على الفور، أن هذه هي نتائج المعركة الدائرة حول "نجبا".

وتركت فراشي ملهوقًا. وأسرعت إلى الطواف بعنابر المستشفي كلها.

كان المفروض في مستشفي المجدل أن يكون إسعافًا سريعا. ولم يكن مفروضا أن يبقى فيه بعد الإسعاف السريع، إلا ذوو الإصابات الخفيفة. أما الحالات الخطرة؛ فقد كانت بعد الإسعاف السريع، ترحل فورا إلى مستشفي غزة.

ويظهر أن المستشفي من كثرة الذين جاءوا إليه ، لم يستطع حتى أن يمارس مهمة الإسعاف السريع؛ فبدأ يحول الواصلين إليه مباشرة إلى غزة، بعد أن ضاق بالذين ملئوه في ساعات قليلة!

كان الحال مروعا ..

كانت هناك تأوهات، وآلام، يحاول أصحابها أن يكبتوها ويتشجعوا..!

كان هناك زميل سلاح، اخترقتْ رصاصةٌ خوذته فـوق رأسه، ومزقت فروة الرأس.

وتأملتُ خوذته وإصابته ..

وأحسستُ أنني أكثر من محظوظ..!

وكان هناك زميل سلاح آخر أصيب بصدمة عصبية..!

كان شابا وكنت أعرفه؛ فقد كان تلميـذي يـوم كنـت مدرسا في الكلية الحربية، وكان يهذي من صـدمته بمـا لا يعي.

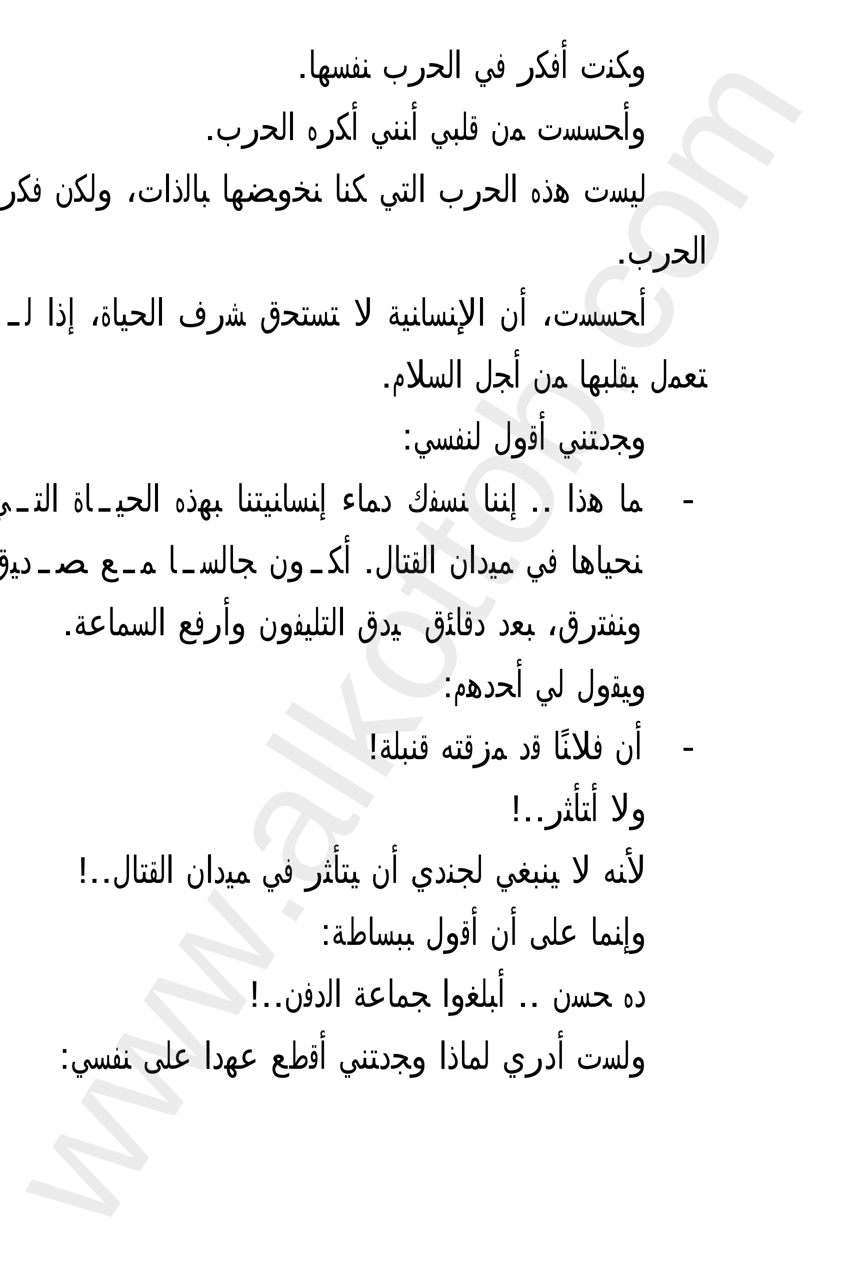
وتصورته - يوم جاءنا في الكلية أول مرة - يرتـدى الملابس المدنية.

وتذكرته في مراحله المختلفة، ونحن نصنع منه جنـديا مقاتلاً.

وها هو ذا يعيش التجربة التي كنا نعده لها.. !

وقضيت الليل كله ساهرا لا يقترب النوم من عيني.

كنت أفكر في من حولي، وفـي البعـدين عنـي فـي المعركة.



وكنت أفكر في الحرب نفسها.

وأحسست من قلبي أنني أكره الحرب.

ليست هذه الحرب التي كنا نخوضها بالذات، ولكن فكرة الحرب.

أحسست، أن الإنسانية لا تستحق شرف الحياة، إذا لـم تعمل بقلبها من أجل السلام.

وجدتني أقول لنفسي:

- ما هذا .. إننا نسفك دماء إنسانيتنا بهذه الحيـاة التـي نحياها في ميدان القتال. أكـون جالسـا مـع صـديق ونفترق، بعد دقائق يدق التليفون وأرفع السماعة.

ويقول لي أحدهم:

- أن فلانًا قد مزقته قنبلة!

ولا أتأثر..!

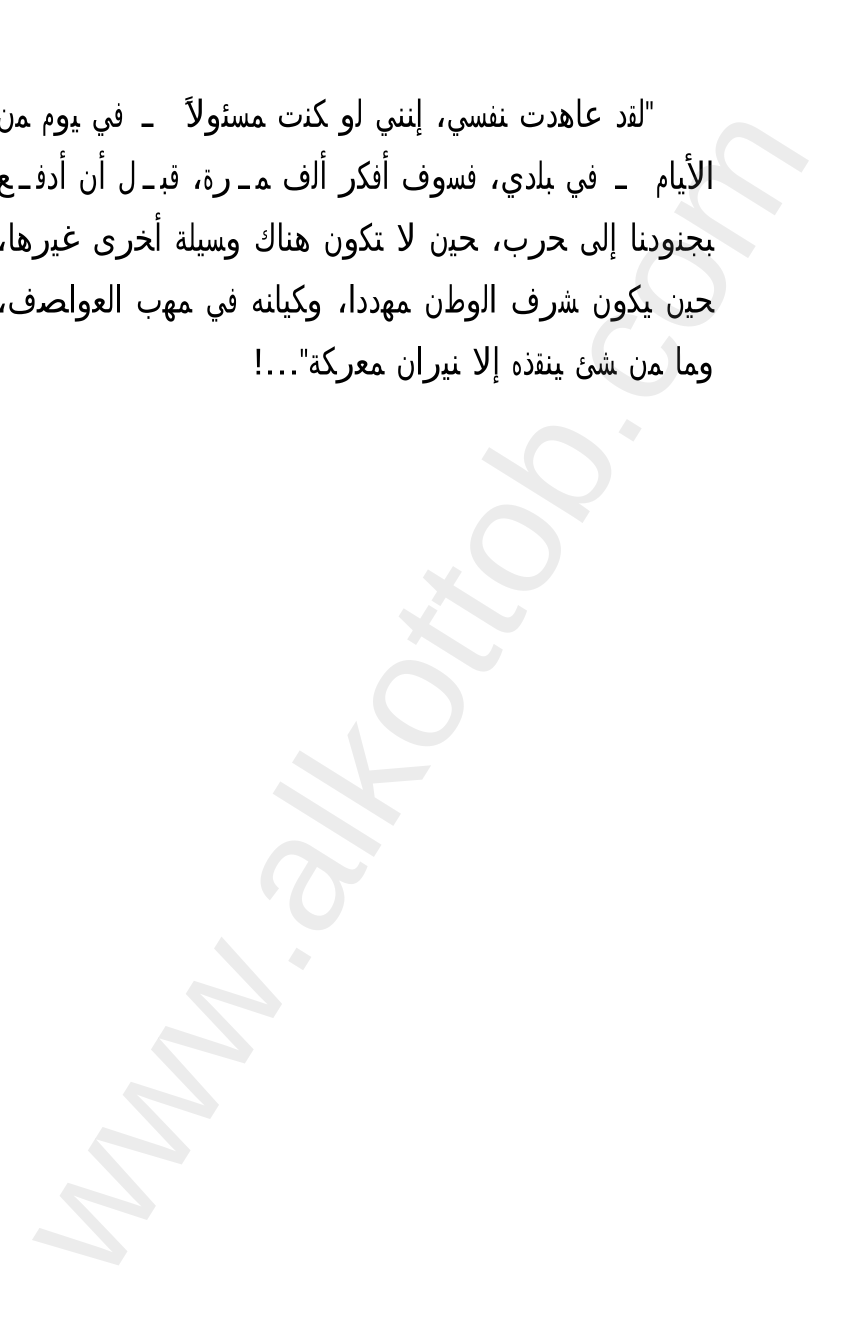
لأنه لا ينبغي لجندي أن يتأثر في ميدان القتال..!

وإنما على أن أقول ببساطة:

ده حسن .. أبلغوا جماعة الدفن..!

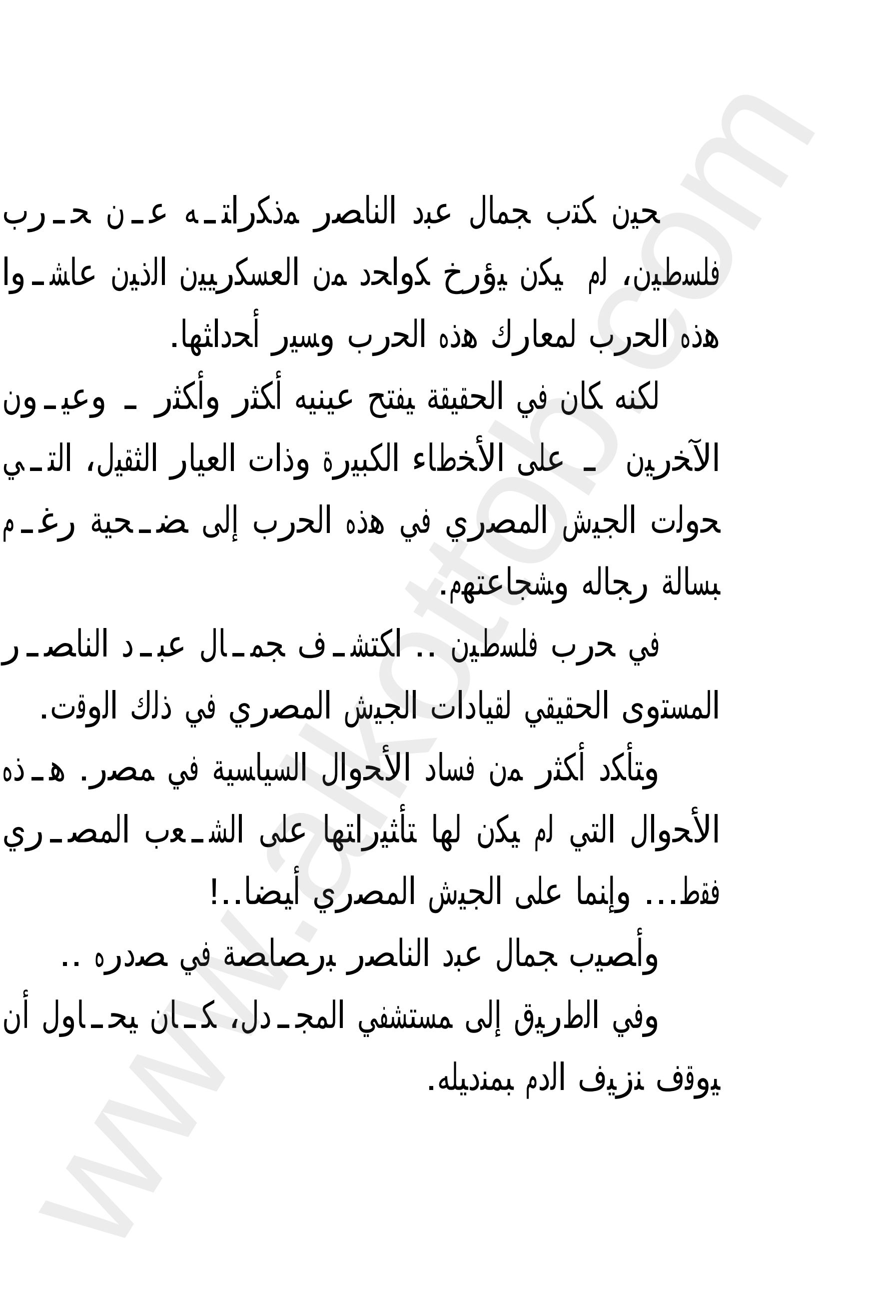
ولست أدري لماذا وجدتني أقطع عهدا على نفسي:

"لقد عاهدت نفسي، إنني لو كنت مسئولاً ـ في يوم من الأيام ـ في بلادي، فسوف أفكر ألف مـرة، قبـل أن أدفـع بجنودنا إلى حرب، حين لا تكون هناك وسيلة أخرى غيرها، حين يكون شرف الوطن مهددا، وكيانه في مهب العواصف، وما من شئ ينقذه إلا نيران معركة"...!



الفصل الحادي عشــر

ذكريات .. أطلال معسكر مهجور...!



حين كتب جمال عبد الناصر مذكراته عن حرب فلسطين، لم يكن يؤرخ كواحد من العسكريين الذين عاشوا هذه الحرب لمعارك هذه الحرب وسير أحداثها.

لكنه كان في الحقيقة يفتح عينيه أكثر وأكثر - وعيون الآخرين - على الأخطاء الكبيرة وذات العيار الثقيل، التي حولت الجيش المصري في هذه الحرب إلى ضحية رغم بسالة رجاله وشجاعتهم.

في حرب فلسطين .. اكتشف جمال عبد الناصر المستوى الحقيقي لقيادات الجيش المصري في ذلك الوقت.

وتأكد أكثر من فساد الأحوال السياسية في مصر. هذه الأحوال التي لم يكن لها تأثيراتها على الشعب المصري فقط... وإنما على الجيش المصري أيضا..!

وأصيب جمال عبد الناصر برصاصة في صدره ..

وفي الطريق إلى مستشفي المجدل، كان يحاول أن يوقف نزيف الدم بمنديله.

وفي الطريق إلى المستشفي، كان يشد أنفاس السـيجارة التي ظنها آخر سيجارة في حياته.!

وفكر لأول مرة في أسرته.

وفكر في قوات كتيبته التي تركها وسط المعركة.

وبقى في المستشفي مضطرا، بعد أن نوى على أن يعود إلى كتيبته فور أن يتماثل للشفاء.

ومضى جمال عبد الناصر في مذكراته يدون أيام العلاج في مستشفي المجدل قائلاً:

واستيقظت في الصباح على إحساس غريب..

إحساس بأن أحدا ينظر لي ويحملق...!

وفتحت عيني ..

ووجدت عينين ساهرتين على في ذهول..!

وكان زميلاً من أصدقائنا في رئاسة القوات. قال وفمـه مازال مفتوحا من الدهشة:

أنت هنا؟

قلت له: نعم .. أية غرابة في ذلك؟

قال :لقد كتبنا اسمك أمس في قائمة الخسائر، في قائمـة القتلى. وظننت حين رأيتك على هـذا السـرير، أننـي أرى جثتك، أو أرى شبحك.!

قلت له : ها أنذا تراني حيا أمامك !

ثم استدركت قائلاً له:

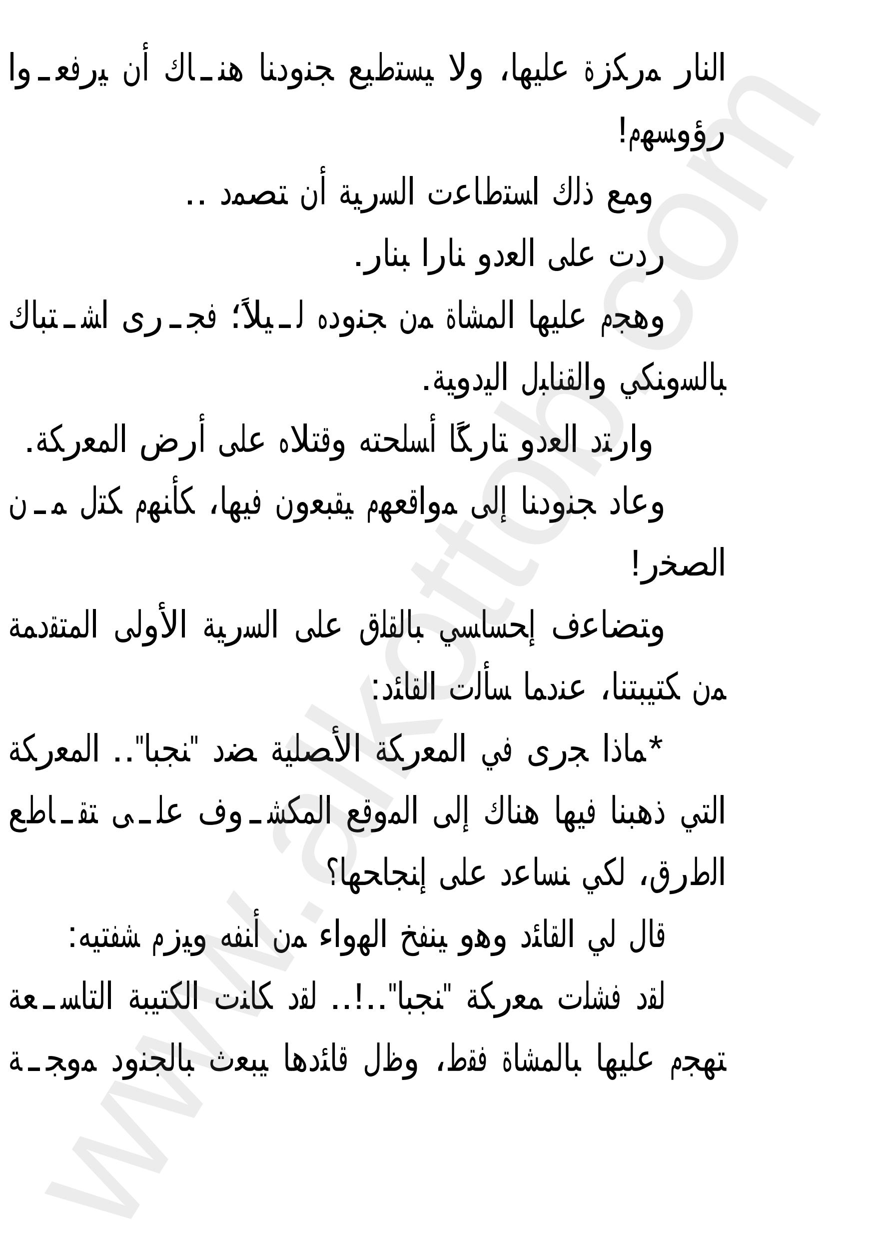
هل تستطيع أن تُخطِر رياسة القوات. أنني لم أمت بعد، حتى لا تتلقى أسرتي إشارة تنعاني إليها شهيدا فـي ميـدان القتال؟!

ولم تكن تمضي ساعات قليلة من النهار، حتـى دخـل القائد، وقبل أن يسألني عما كنت أحاول أن أطمئن منه على حالة كتيبتنا، وقبل أن يسألني عما جرى لي .....

(ولم يكن في الذي سمعته كله شيء واحد يدعو إلـى الاطمئنان!)

قال:

إن السرية الأمامية التي تقدمت معها في الفجر، إلـى مواقعها على تقاطع الطـرق بـين "نجبـا" والمسـتعمرات الأخرى، قد أصبحت في خطر. والعدو لم يعطهـا الفرصـة لكي تحفر خندقًا، أو تحصن موقعا، أو تمد سلكًا شـائكًا. إن



النار مركزة عليها، ولا يستطيع جنودنا هنـاك أن يرفعـوا رؤوسهم!

ومع ذلك استطاعت السرية أن تصمد ..

ردت على العدو نارا بنار.

وهجم عليها المشاة من جنوده لـيلاً؛ فجـرى اشـتباك بالسونكي والقنابل اليدوية.

وارتد العدو تاركًا أسلحته وقتلاه على أرض المعركة.

وعاد جنودنا إلى مواقعهم يقبعون فيها، كأنهم كتل مـن الصخر!

وتضاعف إحساسي بالقلق على السرية الأولى المتقدمة من كتيبتنا، عندما سألت القائد:

*ماذا جرى في المعركة الأصلية ضد "نجبا".. المعركة التي ذهبنا فيها هناك إلى الموقع المكشـوف علـى تقـاطع الطرق، لكي نساعد على إنجاحها؟

قال لي القائد وهو ينفخ الهواء من أنفه ويزم شفتيه:

لقد فشلت معركة "نجبا"..!.. لقد كانت الكتيبة التاسـعة تهجم عليها بالمشاة فقط، وظل قائدها يبعث بالجنود موجـة

بعد موجة، متقدمين تحت نار العدو، حتى سقط مـنهم عـدد كبير.

واكتشف قائد الكتيبـة التاسـعة أن نصـف ضـباطه وجنوده، قد سقطوا على أرض المعركة.

وهو يأمرهم جماعة .. بعد جماعة !

تقدموا .. تقدموا ..!

واضطر بعدها أن يوقف الهجوم، ويعطى أمرا للباقيين من قواته أن ينسحبوا من مواقعهم.

ومضى قائد كتيبتنا يعلق على ما حدث قائلاً..!

هل يمكن أن ينجح هجوم على مستعمرة محصنة .. من غير دبابات..؟

وكان عقلي قد شرد إلى وضع سريتنا الأولى المتقدمة، السرية التي ذهبت معهـا، ووضـعتها فـي مكانهـا بـين المستعمرات؛ لكي تمنع وصول إمدادات مـن الخلـف إلـى "نجبا".

ماذا جرى لها؟

سوف تتحول قوات العدو كلها إليهـا بعـد أن توقفـت المعركة الأصلية .

وسألت قائد كتيبتنا في لهفة:

هل سحبت هذه السرية المتقدمة من مكانها؟

هز الرجل رأسه وقال بحسرة:

لا...!

قلت وأنا أهم قاعدا على سريري:

لا لم تسحبها..؟ لماذا..؟ هل تريد أن تتركهـا لينـزل عليها العدو، بكل قواته ويبيد جنودها واحدا واحدا..؟

قال القائد في يأس:

- ماذا أصنع .. لقد اتصلت برياسة اللواء الثاني، الذي تتبعه كتيبتنا، أطلب منهم الأمر لكي أسحبها؛ فقـالوا لـي لا شأن لك بنا، أنت تابع للواء الرابع، لأن المعركة التي دخلتها في معاونة الكتيبة التاسعة، وهي تابعة للواء الرابع..!

صحت بالقائد:

ولماذا لم تتصل باللواء الرابع..؟

قال القائد واليأس يمزق ألفاظه:

اتصلت بهم .. وقالوا لي أنت تابع للواء الثاني، وعليك أن تتلقى منه أوامرك.

وهنا قفزت أرتدي ملابسي..!

وأنا أقول لقائد كتيبتنا:

هيا بنا إلى هناك.. لقد جـن هـؤلاء النـاس وفقـدوا صوابهم...!

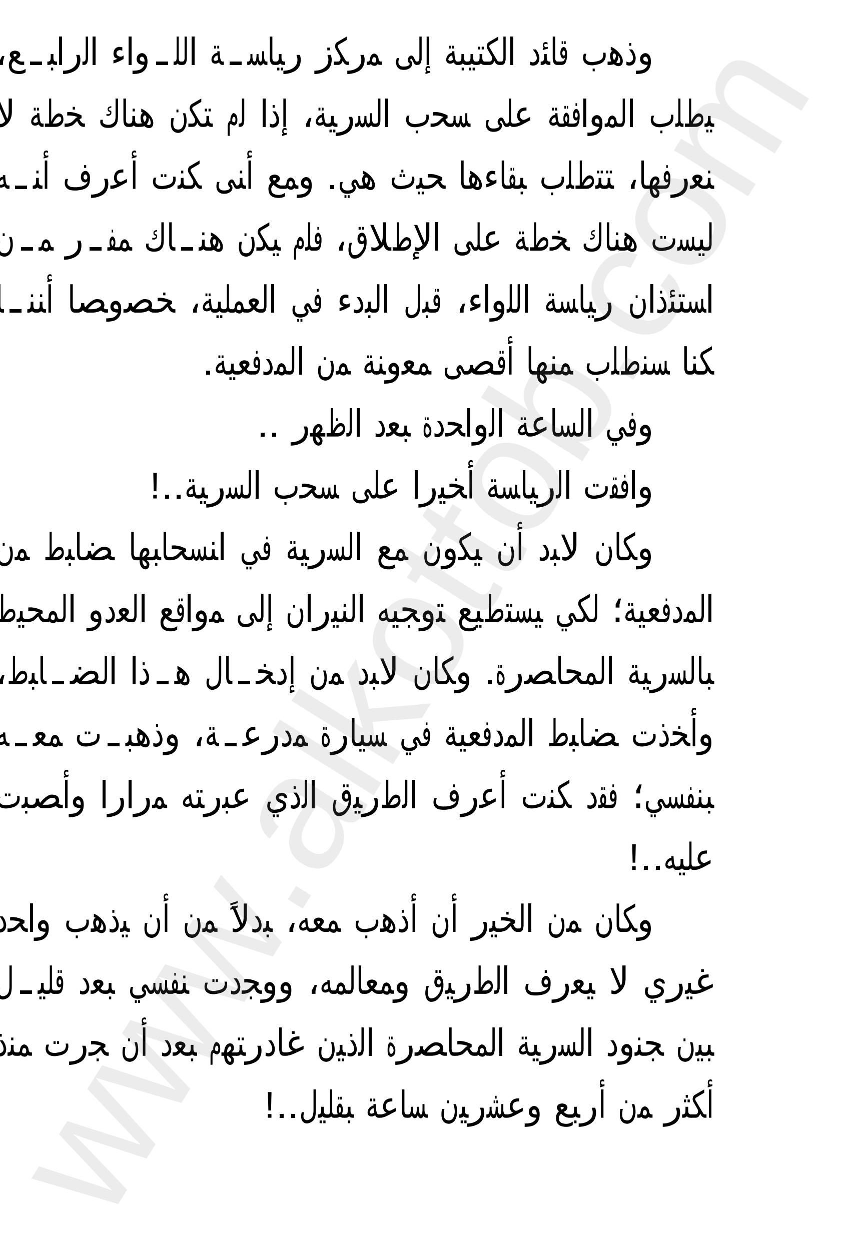
هكذا غادر جمال عبد الناصر مستشفي المجدل، وهو لم يتماثل للشفاء بعد، خوفًا على زملائه من الضباط والجنـود، أن يتعرضوا إلى حصار من القوات اليهودية، يكـون فيـه أبادتهم وفناؤهم.

ويروى جمال عبد الناصر في مذكراته ما حـدث بعـد ذلك فيقول:

كان أول ما فعلته حين دخلت مركز رياسة كتيبتنـا، أن أسرعت فاتصلت بالسرية الأولى، أحاول أن أعـرف علـى وجه التحديد موقفها.

وكان حالها أخطر مما تصوره خيالنا..!

كان العدو يحاصرها من ثلاث جهات، وكان لابد مـن خطة مدروسة هي آخر التفاصيل؛ لكي نستطيع إنقاذها مـن هذا الوضع الذي تُركت فيه، وكان لابد في رأيي من معونـة المدفعية.



وذهب قائد الكتيبة إلى مركز رياسة اللواء الرابع، يطلب الموافقة على سحب السرية، إذا لم تكن هناك خطة لا نعرفها، تتطلب بقاءها حيث هي. ومع أنى كنت أعرف أنه ليست هناك خطة على الإطلاق، فلم يكن هناك مفر من استئذان رياسة اللواء، قبل البدء في العملية، خصوصا أننا كنا سنطلب منها أقصى معونة من المدفعية.

وفي الساعة الواحدة بعد الظهر ..

وافقت الرياسة أخيرا على سحب السرية..!

وكان لابد أن يكون مع السرية في انسحابها ضابط من المدفعية؛ لكي يستطيع توجيه النيران إلى مواقع العدو المحيط بالسرية المحاصرة. وكان لابد من إدخال هذا الضابط، وأخذت ضابط المدفعية في سيارة مدرعة، وذهبت معه بنفسي؛ فقد كنت أعرف الطريق الذي عبرته مرارا وأصبت عليه..!

وكان من الخير أن أذهب معه، بدلاً من أن يذهب واحد غيري لا يعرف الطريق ومعالمه، ووجدت نفسي بعد قليل بين جنود السرية المحاصرة الذين غادرتهم بعد أن جرت منذ أكثر من أربع وعشرين ساعة بقليل..!

وكانوا كعفاريت الجن..!

رغم كل ما حدث لهم، كانت المنـاطق كلهـا مغطـاة بالرمل الصاب المتماسك قطعا قطعا، وكانوا هم على الرمل الصاب كتماثيل من الصخر، ومدافعهم في أيـديهم متجهـةً نحو العدو!

وشرحت لقائد السرية خطة الانسحاب ..

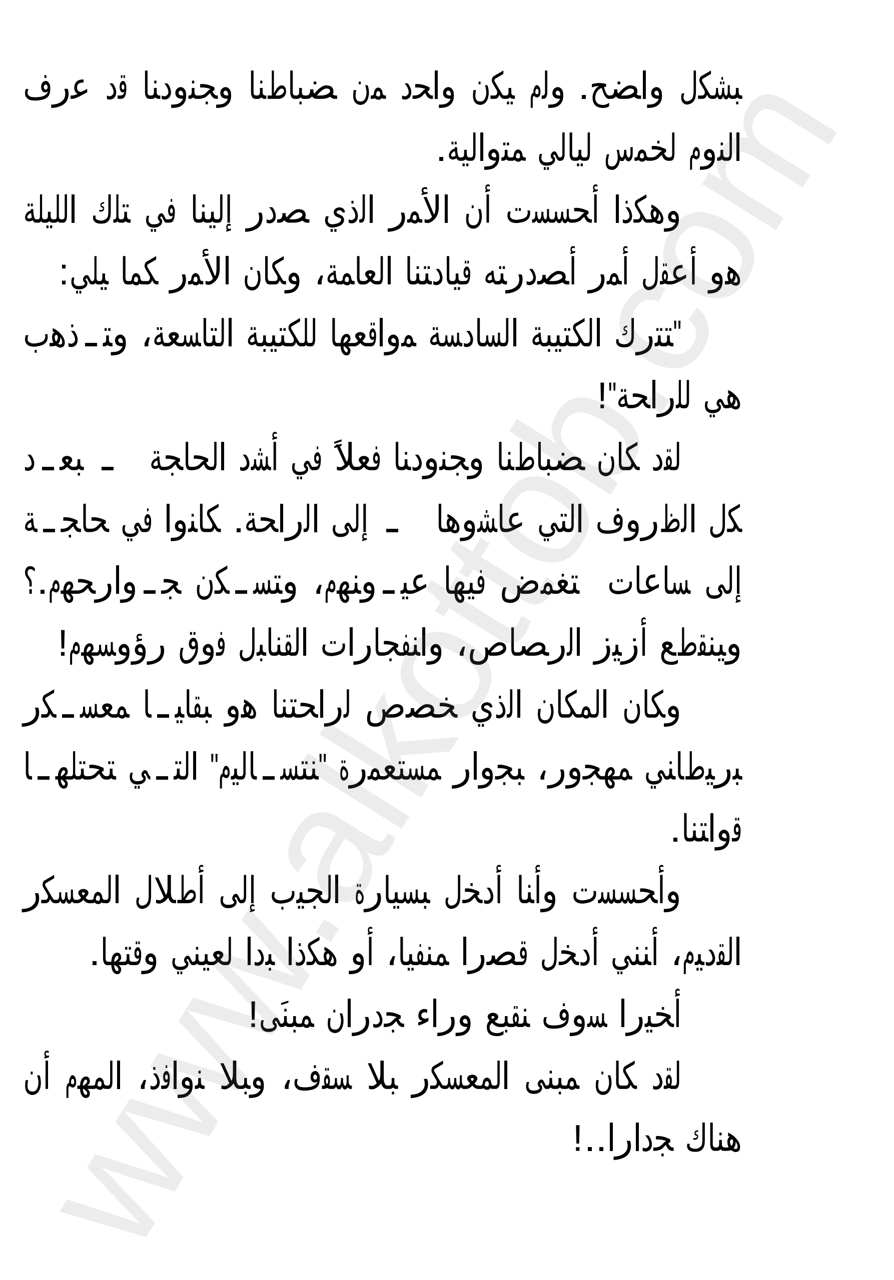
وبدأ ضابط المدفعية يساعد مدافعنا على تسجيل أهدافها من مواقع العدو. وبدأت مدفعيتنا الثقيلة تهدر، ثم جـاء دور قنابل الدخان، ونجحت في إجبارهم علي الانسـحاب، رغـم الجهد الذي بذله العدو ليعوق نجاحها..!

***

ويصف جمال عبد الناصر في مذكراته ما حـدث بعـد ذلك قائلاً:

" كان حال كتيبتنا في ذلك اليوم يدعو للرثاء"!

لقد تجمعت كل السرايا، ولم يعد العدو يحاصر بعضها. هذا صحيح، ولكن التعب كان قد نال من جنودها وضـباطها



بشكل واضح. ولم يكن واحد من ضباطنا وجنودنا قد عرف النوم لخمس ليالي متوالية.

وهكذا أحسست أن الأمر الذي صدر إلينا في تلك الليلة هو أعقل أمر أصدرته قيادتنا العامة، وكان الأمر كما يلي:

"تترك الكتيبة السادسة مواقعها للكتيبة التاسعة، وتـذهب هي للراحة"!

لقد كان ضباطنا وجنودنا فعلاً في أشد الحاجة - بعـد كل الظروف التي عاشوها - إلى الراحة. كانوا في حاجـة إلى ساعات تغمض فيها عيـونهم، وتسـكن جـوارحهم.؟ وينقطع أزيز الرصاص، وانفجارات القنابل فوق رؤوسهم!

وكان المكان الذي خصص لراحتنا هو بقايـا معسـكر بريطاني مهجور، بجوار مستعمرة "نتسـاليم" التـي تحتلهـا قواتنا.

وأحسست وأنا أدخل بسيارة الجيب إلى أطلال المعسكر القديم، أنني أدخل قصرا منفيا، أو هكذا بدا لعيني وقتها.

أخيرا سوف نقبع وراء جدران مبنَى!

لقد كان مبنى المعسكر بلا سقف، وبلا نوافذ، المهم أن هناك جدارا..!

وفرشت أمتعتي في إحدى الغرف.

واستلقيت على ظهري، ونجوم السماء تطل على، مـ ن حيث لا سقف فوقي..!

ولكن استمتاعي بنجوم السماء لم يدم طويلاً..!

بعد خمس دقائق فقط ..

دخل أحد الجنود غرفتني ـ التي لا باب لها ـ ليقدم لي إشارة من الرئاسة، تطلب منا أن نبعث بإحدى سرايا الكتيبة، لكي تساعد في معركة ناشبة في "أسدود"...!

واستيقظت في الصباح على إشارة ثانية، تطلب سـ رية ثانية، لكي تعاون الكتيبة التاسعة عند "عزت سويدان"، ومـ ع أنني أطعت الأوامر، وبعثت بالسريتين المطلـ وبتين، إلا أن سخطي لم يكن له حدود...!

لقد كنت أريد أن تستريح الكتيبة، وتسنح لها الفرصـ ة لكي تعيد تنظيم نفسها، وتحسب خسائرها وتنظم صـ فوفها، لتكون جاهزة عندما تدعوها حاجة إلى المعركة. ولكن بـ دلاً من ذلك، ها هي السرايا تُسحب منها واحدة بعد واحدة.

وبلغ سخطي مداه عندما طلبوا منا سرية ثالثة..!

ولكن ظروف طاب السرية الثالثة كانـت مختلفـة؛ إذْ كانت قيادتنا العامة قد بدأت معركة ضد مسـتعمر "بيـرون إسحاق"، الواقعة أمام غزة، ومع أن القائـد العـام للقـوات، ومدير العمليات، وقائد الطيران كانوا جميعا بأنفسهم يشرفون على المعركة الجديدة، فإن الهجوم على مسـتعمرة "بيـرون إسحاق" كان نموذجا للعمليات التي جرت قبل ذلك في "ديـر سنيد" وفي "نجبا"!

مشاه بلا دروع..!

أمام مواقع محصن...!

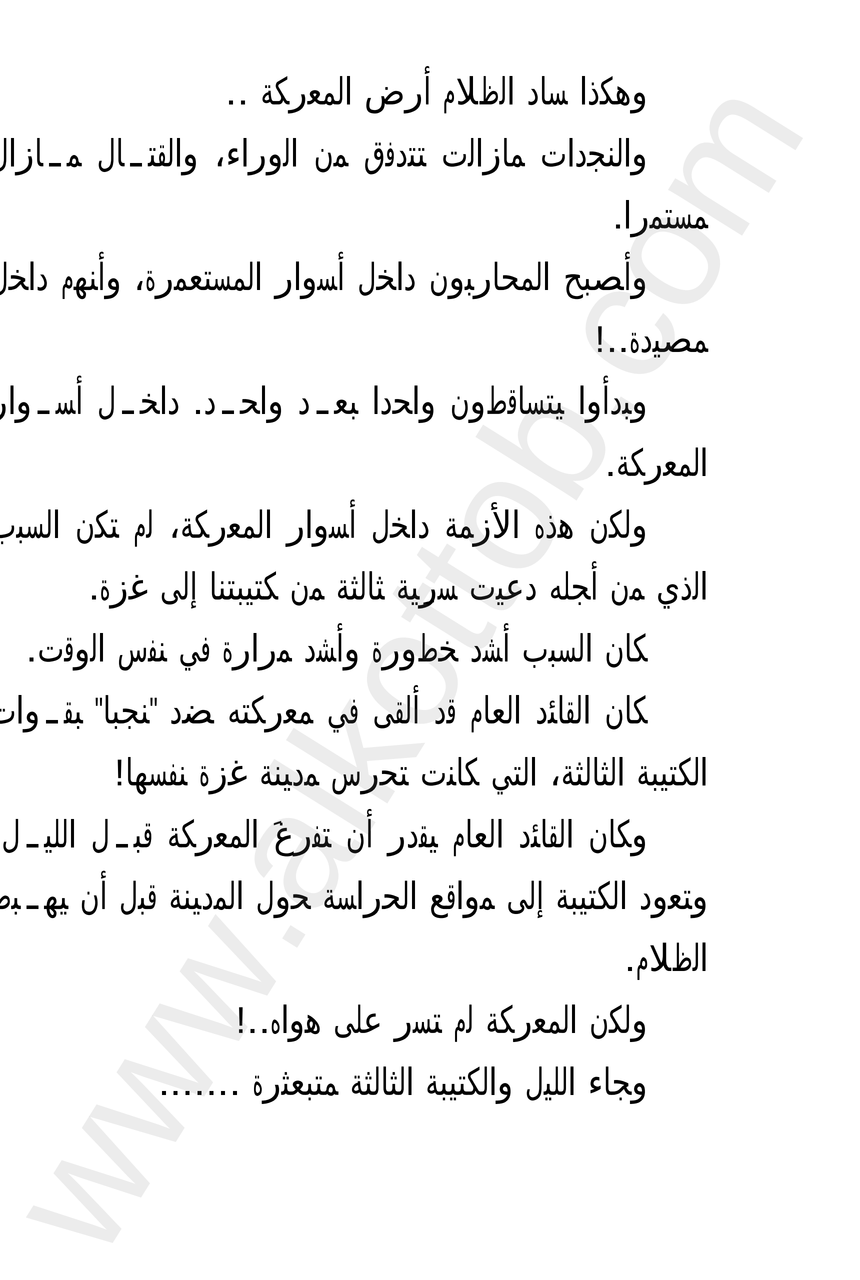
واستطاع رجال المشاة أن يدخلوا المستعمرة ..

وحاربوا فيها من بيت إلى بيت، حتى أن مراقبي الهدنة طلبوا من القائد العام، أن يأمر بوقف القتال، لأن المستعمرة سوف تستسلم.. ورفض القائد العام واستمرت المعركة..!

ولكن القائد العام كان قد نسى اعتبارين ..

أولهما.. أنه ترك طريق الإمداد وراء "بيرون إسـحاق" مفتوحا. فبدأت النجدات تتدفق على المستعمرة اليائسة..!

والاعتبار الثاني.. أن الشمس تغرب آخر النهار ويهبط الليل!



وهكذا ساد الظلام أرض المعركة ..

والنجدات مازالت تتدفق من الوراء، والقتـال مـازال مستمرا.

وأصبح المحاربون داخل أسوار المستعمرة، وأنهم داخل مصيدة..!

وبدأوا يتساقطون واحدا بعـد واحـد. داخـل أسـوار المعركة.

ولكن هذه الأزمة داخل أسوار المعركة، لم تكن السبب الذي من أجله دعيت سرية ثالثة من كتيبتنا إلى غزة.

كان السبب أشد خطورة وأشد مرارة في نفس الوقت.

كان القائد العام قد ألقى في معركته ضد "نجبا" بقـوات الكتيبة الثالثة، التي كانت تحرس مدينة غزة نفسها!

وكان القائد العام يقدر أن تفرغ المعركة قبـل الليـل، وتعود الكتيبة إلى مواقع الحراسة حول المدينة قبل أن يهـبط الظلام.

ولكن المعركة لم تسر على هواه..!

وجاء الليل والكتيبة الثالثة متبعثرة ....

نصفها داخل المستعمرة في المصيدة. والنصف الثـاني خارجها يتميز غيظًا. أما غزة نفسها فكانت دون حراسة في الليل..!

وكانت السرية المطلوب منا سوف تكلـف بالحراسـة، واحتلال المواقع الدفاعية التي تحمى غزة، حتـى لا يجـيء العدو بالليل، ويتمشى إلى داخل المدينة، تحت نجوم السـماء المتلألئة..!

***

ويكمل جمال عبد الناصر مذكراته التي كتبها بمداد من المرارة والحسرة على ما كانت عيناه تشـاهدانه فـي سـاح المعركة قائلاً:

"وسمعت ليلتها أخبار راديو القاهرة ..

وكان من بينها أن مجلس الأمن عاد مرة أخرى؛ فأوقف حرب فلسطين. وأن وقف القتال سوف يبـدأ فـي السـاعة الخامسة من بعد ظهر الغد..!

وتوقعت أن يعود العدو؛ فيكرر الليلة والغد نفس الـذي حاول أن يصنعه من قبل، حين صدرت أوامر وقف القتـال المرة الأولى..!

سوف يحاول العدو أن يحتل مواقع حاكمة في الساعات الأخيرة، لكي يحتشد وراءها ويستعد، ويعود ليضربنا عندما يستريح..!

وعرفت أن العدو لم يخيب ظني فيه..!

فقد طلب إلينا أن نبعث بسرية من سرايانا، لكي تساعد في المعركة التي هجم فيها العدو، ليحاول أن يقطع الطريـق بين "عراق سويدان" و"المجدل"، عند نقطة "كراتيا".

وكنت أتابع هذه الأخبار كلها، وأنا قابع فـي أطـلال المعسكر البريطاني المهجور الذي تُرك بـلا نوافـذ، وبـلا أبواب.

ولم يكن عندي ما أصنعه غير أن أتابع..!

فقد كان أركان حرب كتيبة.. بلا كتيبة..!

وكانت سرايانا كلها معارة للكتائب الأخرى.

وكنا رياسة الكتيبة.. وحدنا في المعسكر المهجور..!

ووقفت أمام المعسكر المهجور، عصر اليوم الذي كـان يجب أن يقف فيه القتال.

وقفت والخواطر تزحم رأسي ..

هدنة أخرى تُدِر بها الأوامر من نيويورك ونطيع.

أهي حرب حقيقية.. أم لعبة شطرنج..؟!

إنني لا أشك في الذي سوف يحدث.. سوف نعود فنشهد صورة للذي شهدناه من قبل..

سوف نأخذها سلاما.. ولكن العدو لن يزعن للسلام.!

سوف يدعم مواقعه ويحشد قواتـه، ويعطيهـا فرصـة لتستريح، ثم يضربنا حيث يشاء، ويضرب معنا قرار وقـف القتال الصادر من نيويورك..!

وبدأت الساعة تقترب من الخامسة ..

وبدأت أصيغ السمع في اتجاهـات الأفـق المفتوحـة، وكأنني أريد أن أتسمع إلى المدافع، وأشعر بها عندما تلتـزم الصمت، حين يصل عقرب الساعة إلى تمام الخامسة..

ووصل عقرب الساعة إلى الخامسة ..

وبدأ يمشى بعدها ..

لقد بدأت الهدنة.

بدأ السلام الذى لا يعرف أحد كيـف ينتهـي، وأيـن ينتهي، ومتى ينتهي..!"

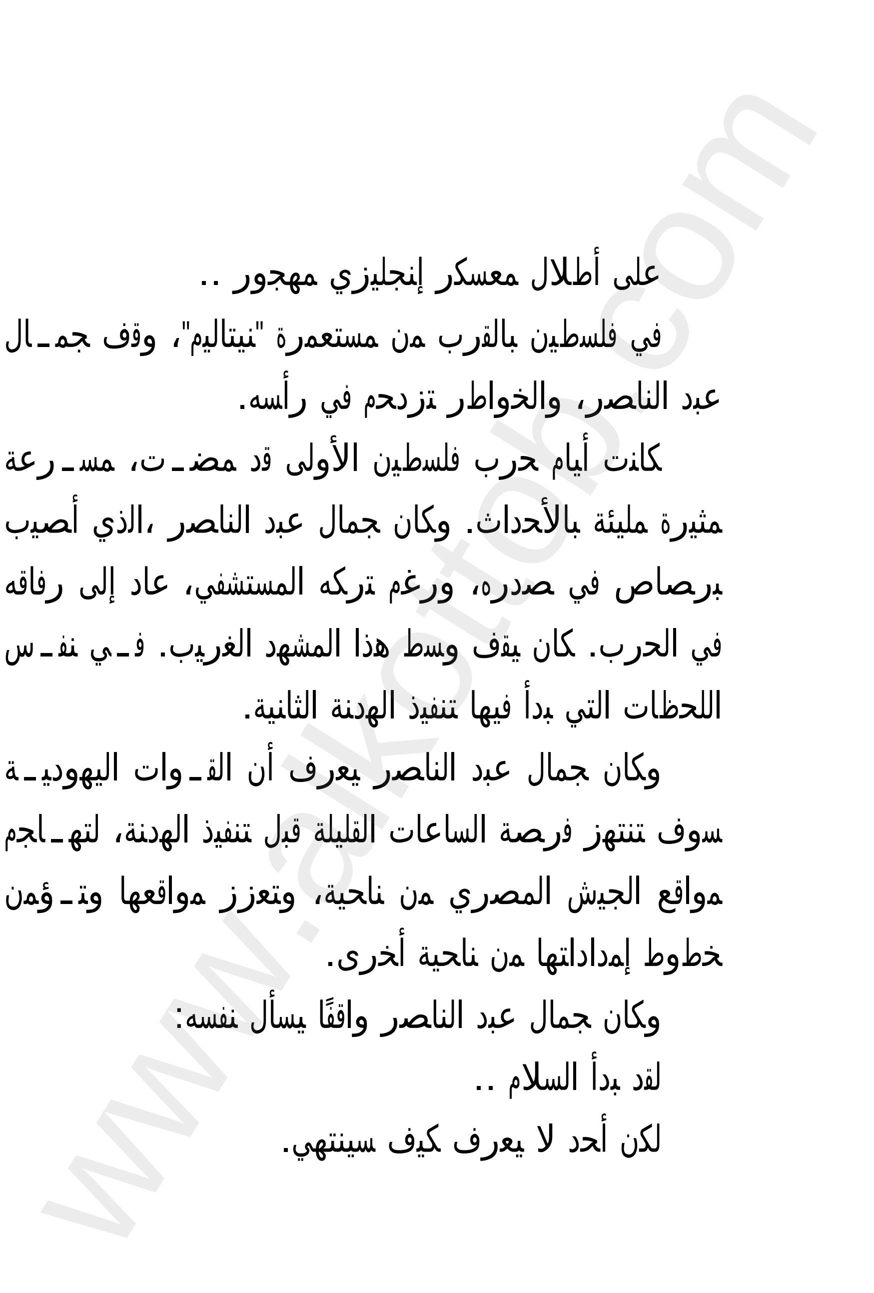
***

وأفاق جمال عبد الناصر من خواطره. وهو يقف علـى أطلال المعسكر البريطاني المهجور، في اللحظات والـدقائق الأولى بعد الهدنة الثانية.

أفاق .. ليشاهد بعينيه جريمة قتل..!

الفصل الثاني عشر

جمال عبد الناصر .. في أجازة !



على أطلال معسكر إنجليزي مهجور ..

في فلسطين بالقرب من مستعمرة "نيتاليم"، وقف جمـال عبد الناصر، والخواطر تزدحم في رأسه.

كانت أيام حرب فلسطين الأولى قد مضـت، مسـرعة مثيرة مليئة بالأحداث. وكان جمال عبد الناصر ،الذي أصيب برصاص في صدره، ورغم تركه المستشفي، عاد إلى رفاقه في الحرب. كان يقف وسط هذا المشهد الغريب. فـي نفـس اللحظات التي بدأ فيها تنفيذ الهدنة الثانية.

وكان جمال عبد الناصر يعرف أن القـوات اليهوديـة سوف تنتهز فرصة الساعات القليلة قبل تنفيذ الهدنة، لتهـاجم مواقع الجيش المصري من ناحية، وتعزز مواقعها وتـؤمن خطوط إمداداتها من ناحية أخرى.

وكان جمال عبد الناصر واقفًا يسأل نفسه:

لقد بدأ السلام ..

لكن أحد لا يعرف كيف سينتهي.

لا متى.... وأين ينتهي..!

وفي نفس تلك اللحظة ..

رفع جمال عبد الناصر عينيه.. ليشهد جريمة مروعة..!

***

يروى جمال عبد الناصر القصة في مذكراته قائلاً:

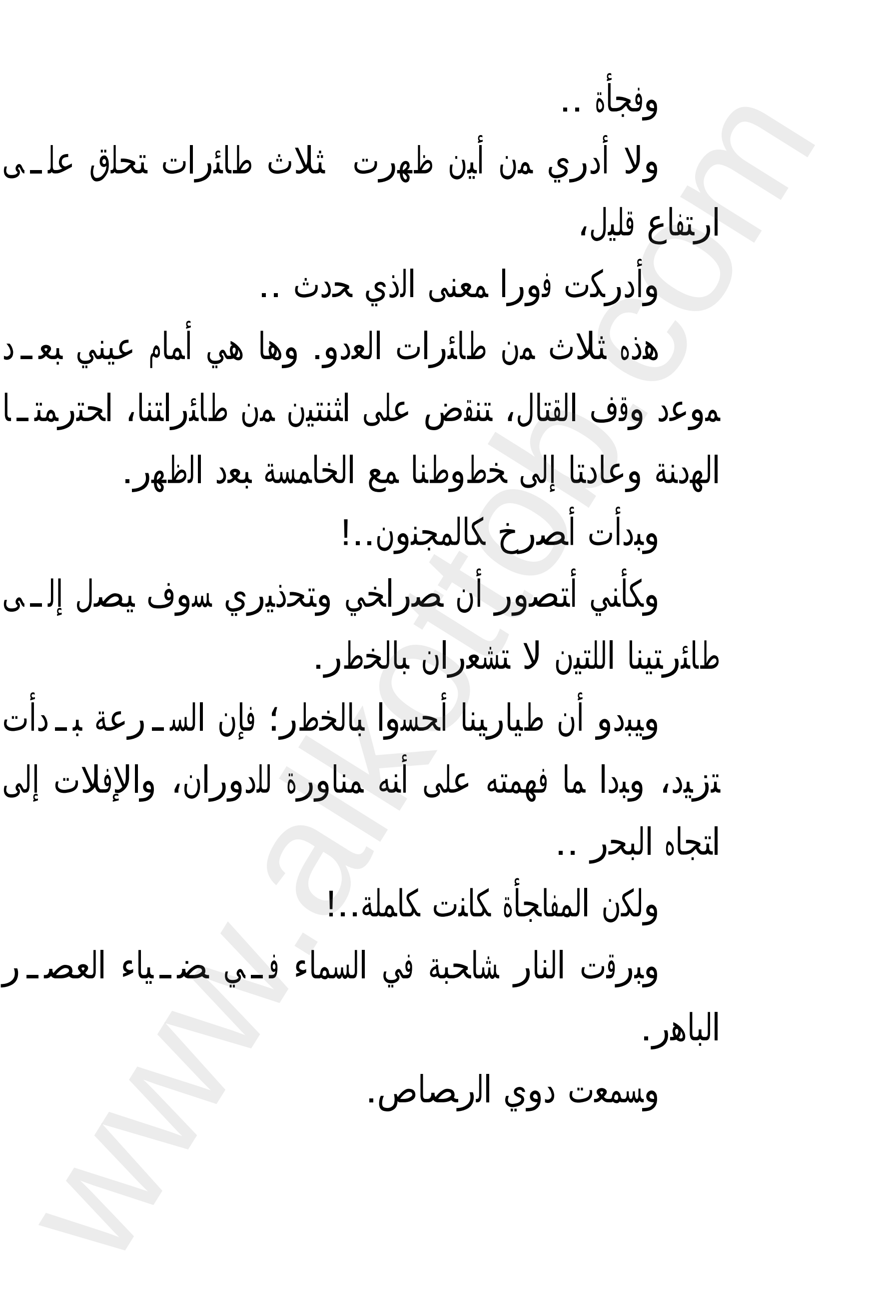
" فجأة .. لمحت عند الأفق طائرتين عائدتين من اتجـاه الشمال..

وأدركت أنهما من طائراتنا..

لابد أنهما كانتا في دورية فوق أرض العدو، ثم عادتـا مع موعد وقف القتال، في الساعة الخامسة تماما، احترامـا لقرار الهدنة.

ومضيت أرقب الطائرتين.. تتقدمان فوق مواقعنا.. على ارتفاع بسيط.. متجهتين إلى قاعدتهما دون شك.

وأحسست بحنان غريب نحو زملائنـا فـي السـلاح، المحاربين من الجو، ومضيت وعينـاي علـى الطـائرتين، أرقبهما وهما تسيران في الهواء كأنهما - في تلك السـاعة من العصر - تعبران بحرا من الضياء الباهر!



وفجأة ..

ولا أدري من أين ظهرت ثلاث طائرات تحلق علـى ارتفاع قليل،

وأدركت فورا معنى الذي حدث ..

هذه ثلاث من طائرات العدو. وها هي أمام عيني بعـد موعد وقف القتال، تنقض على اثنتين من طائراتنا، احترمتـا الهدنة وعادتا إلى خطوطنا مع الخامسة بعد الظهر.

وبدأت أصرخ كالمجنون..!

وكأنني أتصور أن صراخي وتحذيري سوف يصل إلـى طائرتينا اللتين لا تشعران بالخطر.

ويبدو أن طيارينا أحسوا بالخطر؛ فإن السـرعة بـدأت تزيد، وبدا ما فهمته على أنه مناورة للدوران، والإفلات إلى اتجاه البحر ..

ولكن المفاجأة كانت كاملة..!

وبرقت النار شاحبة في السماء فـي ضـياء العصـر الباهر.

وسمعت دوي الرصاص.

وفي أسرع من لمح البصر، كانت إحدى طائراتنا تهوى محترقة إلى الأرض، بينما أفلتت الثانية إلى اتجاه البحر.

وأحسست أنى أفقد صوابي.

أنى أهذي .. وأنى أريد أن أنفجر!

ولم يلبث ضابط مخابرات كتيبتنا، أن خرج إلى موقـع سقوط الطائرة، ثم عاد ليؤكد لنا مصرع طيارها.

وكنت أعرفه. فقد كان طيـارا شـابا حـديث العهـد بالمعارك، وكانت تلك أول عملية له في فلسطين..!

ولكن الذي يؤلمني، أن الفرصة لم تتح له لكـي يقاتـل دفاعا عن حياته..

لقد قتل غيلة وغدرا ...!

كان عائدا مطمئنًا إلى القرار الذي صدر في نيويورك. طلبت منه قيادته أن يحترمه؛ فانقض عليه الذين طلبت منهم قيادتهم ألا يحترموا شيئًا......!

لم يكن الذي رأيته في السماء ـ وبصري معلق علـى السماء ـ معركة.

إنما كان جريمة قتل غادرة.!

واستلقيت ليلتها في غرفتـي فـي أطـلال المعسـكر البريطانى المهجور، غرفتي التي لاسقف لها، والنجوم تطـل على من أبراجها. وكان في رأسي خاطر واحد:

" سوف نلقَى جميعا نفس المصير"!

المصير الذي رأيت هذا الشاب الطيار الصديق يلاقيـه، مادام حال الذين يوجهوننا من القاهرة ، ومن قيادتنا العامـة في الميدان، هو هذا الحال..!

لن تتاح لأحد منا أن يحـارب فـي معركـة شـريفة، متكافئة، مع هذه الحال، دفاعا عن حياته وشرف بلاده.

لن تتاح لنا هذه الفرصة أبدا ..

ليس أمامنا إلا أن نُقتل .. هكذا .. غيلةً وغدرا .!

***

تمضى أيام الهدنة..

يتوقف أزيز الرصاص وهدير المدافع..

لكن ليس طويلاً....!"

ويمضي جمال عبد الناصر قائلاً في مذكراته عن هـذه الأيام:

"مضت علينا أيام الهدنة الجديدة، كما مضت قبلها أيـام الهدنة الأولى...

كأننا ما فعلنا شيئًا.....!

كأنما الدماء التي سالت، كأنما الجهود التي بذلت، كأنما الأرواح التي أُعطيتْ في سـخاء، كأنمـا السـهر الطويـل المستمر، كأنما أهوال المعارك في الليل والنهـار.. كأنهـا جميعا لم تكن...!

عدنا إلى الانتظار الذي ليس له حد نعرفـه، وإن كـان العدو يعرف منه حدا، يعرف أين يبدأ، ويعرف أين ينتهـي، ويعرف كيف يستفيد بين البداية والنهاية، والنهاية قوة لنفسـه .. قوة علينا...!

ولقد كان في الخنادق هذه المرة - على أيـة حـال - شـعور جديـد.. شـعور بـالمرارة.............. لقد حاربنا في فترة ما بين الهدنتين، بكل طاقة في أجسـادنا العارية من الدروع ، ومع ذلك لم نكد نمضي في الحرب، و يعلو ضجيج المعركة على صوت الهمسات التي كانت تتردد في خنادقنا، عن الحرب السياسية، حتى جاءت السياسة مـرة ثانية؛ فأوقفت القتال طاعة لمجلس الأمن في نيويورك.

إذن ماذا فعلنا..؟

فيم كانت كل هذه التضحيات..؟

إلى أين ينتهي بنا المطاف..؟

هل سنحارب..؟

هل سنهادن...؟

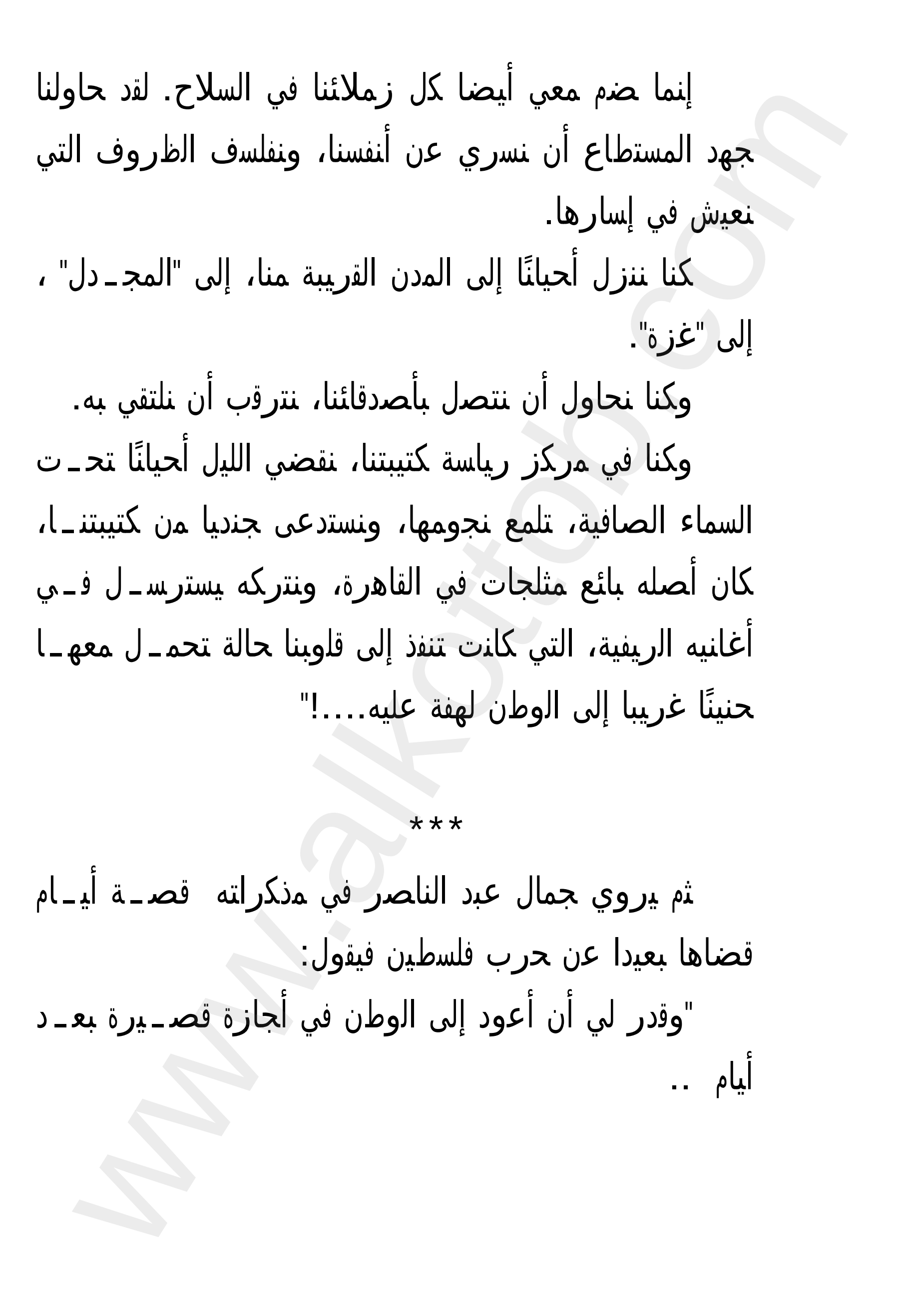
أم كُتب علينا جميعا نفس مصير الطيـار الـذي لقـي مصرعه أمام عيني، بعد نصف ساعة مـن الهدنـة؛ فنقتـل جميعا غيلةً غورا، ودون فرصةٍ ندافع فيهـا عـن الـوطن والشرف والحياة..؟

لم يكن هناك من يستطيع أن يجيب على هذا كله ..

وكانت المرارة المكتومة، والغيظ المكبوت ، يزرحـان على خنادقنا، إجابة خالصة لكل من يريد جوابـا علـى أي سؤال..!

وبدأتُ أشعر بالملل في مكاني من أنقـاض المعسـكر المهجور، الذي لا سقف له ولا نوافذ، والذي كنا مـا نـزال ننتظر فيه..!

أمن شك أن الشعور بهذا الملل، لم يحاصـرني وحدي.!



إنما ضم معي أيضا كل زملائنا في السلاح. لقد حاولنا جهد المستطاع أن نسري عن أنفسنا، ونفلسف الظروف التي نعيش في إسارها.

كنا ننزل أحيانًا إلى المدن القريبة منا، إلى "المجـدل" ، إلى "غزة".

وكنا نحاول أن نتصل بأصدقائنا، نترقب أن نلتقي به.

وكنا في مركز رياسة كتيبتنا، نقضي الليل أحيانًا تحـت السماء الصافية، تلمع نجومها، ونستدعى جنديا من كتيبتنـا، كان أصله بائع مثلجات في القاهرة، ونتركه يسترسـل فـي أغانيه الريفية، التي كانت تنفذ إلى قلوبنا حالة تحمـل معهـا حنينًا غريبا إلى الوطن لهفة عليه....!"

***

ثم يروي جمال عبد الناصر في مذكراته قصـة أيـام قضاها بعيدا عن حرب فلسطين فيقول:

"وقدر لي أن أعود إلى الوطن في أجازة قصـيرة بعـد أيام ..

وفجعتني القاهرة حين ألقيت عليها أول نظرة. أنا عائـد من ميدان القتال. لم تكن القاهرة عاصمة بلد يحـارب فـي معركة حياة أو موت. كان كل شيء فيها كمـا تعـودت أن أراه، سلاما هادئًا، يكاد يغفو من النعاس في بعض الأحيان.

وأحسست بانقباض غريب في العاصمة المائجة بالحياة العادية. بينما إحدى سيارات التاكسي، تقطع بي الطريق من ميدان المحطة إلى منزلي.

وحين اقتربت من بيتي أحسست ببعض العزاء ..

فقد شعرت أن هناك بين أفراد الشعب العادي، من يحس بالذي نصنعه في فلسطين؛ فقد رفض سائق التاكسي أن يأخذ الأجر الذي حسبه العداد. وحاولت بشتى فنـون المنطـق أن أقنعه. ولكن الرجل تمسك بمنطقه الطيب الساذج..!

لقد كنت في رأيه ـ كما لاحـظ ورأى ـ عائـدا مـن ميدان القتال، فهل يجوز له أن يتقاضى مني أجر الركوب..؟

إن السيارة لم تكن ملكه.. ولكن ماذا به...؟

في منطقه مسألة ثانية ..!

اقتربت أدخل من باب البيت، بعد المناقشة الطويلـة مع سائق التاكسي، وإذا العمال في بعض الورش والمحـال

القريبة من بيتنا، يلمحونني وأنا في الطريق إليه، وكنت دائما على علاقة طيبة بهم، يبد أنهم افتقدوا غيبتي الطويلـة فـي ميدان القتال. ومن يدرى فقد يكون بينهم من ظن أنـى لـن أعود أبدا، وأشفق على المصير الذي قُدر لي أن ألقاه...!

وهكذا هرع إلى جمع منهم ..

بعضهم يسلم، ويعضهم يصفق، أو يقول كلمة تشـجيع بسيطة في معناها ولكنها صادرة من القلب.

وكانت أيام الأجازة الأربعة مشحونة..!

اتصلت بأصدقائي الذين كانوا في العاصمة. بينهم عبـد الحكيم عامر، الذي كان قد عاد ليدخل المستشفي، لكي تجرى له عمليه جراحية، في إحدى يديه بعـد إصـابتها بشـظية، وتلوثت الإصابة في ميدان القتال.

والتقيت بحسن إبراهيم.

ومررت على رئاسة الجيش أتنسم الأخبـار. وسـمعت معلومات عن معدات جديدة في طريقها إلينا.

ولقد صدقت أماني ما سمعتُ ..

ولكن عقلي والتجربة الواقعية التي عشتها في الميـدان كذبا.. وأصرا على التكذيب...!!

في أول يوم العيد ..

كان لابد أن تنتهي أجازتي .

وذهبت في الصباح مع ابنتي هدى إلى حديقة الحيوانات ، ثم عدنا إلى البيت لكي أحزم أمتعتي، وأقول لأسرتي مـرة ثانية: وداعا..!

ثم أستقل القطار في اتجاه جبهة القتال ..

أعود إلى الميدان الذي كنت قد تركته منذ أربعة أيام.

ولم يكن هناك شيء قد تغير فيه.

كان تماما كما تركته .

سلام وسط الحرب.. وحرب وسط السلام..!

وبين السلام الضائع والحرب الضائعة، كانت خنادقنـا تعيش في حيرة خطيرة.

وعدت إلى ظلال المعسكر المهجور....!

وعدت إلى النجوم المتلألئة أنام تحتها...!

كل ليلة في غرفتي التي لا سقف لها...!

وأقضي الساعات أتأملها في ارتفاعها الشاهق فوقي.

وأسرح بأحلامي بين أفلاكها..!

ومرت الأيام ..

وفي صباح الخميس ٩ سبتمبر، دعينا إلى مؤتمر فـي رياسة القوات. وهناك علمنا أن كتيبتنا سوف تتسـلم خطـاً جديدا، هو الخط بين "عراق المنشية" و"بيت جبرين".

وسبقت كتيبتي إلى الخط الجديد.

وبدأت سرايانا تصل إلى مواقعها واحدة بعد أخرى.

كان القدر يخبئ لنا مفاجآت، بعضها وراء بعض..!"

***

ماذا حدث في "عراق المنشية"...؟

يروي جمال عبد الناصر القصة في مذكراته قائلاً:

"بدأتُ أستكشف المنطقة من حولي لكي أعرف أين أنا. وبالتالي لكي أستعد إذا ما جاء العدو. كانت "عراق المنشـية" قرية صغيرة، تضيق بمن فيها من سكان، ومن لاجئين. كان تعداد الجميع يتراوح بين١٨٠٠ شخص و ٢٠٠٠ شخص.

وكانت عراق المنشية على الطريـق الرئيسـي الـذي يفصل الشمال عن الجنوب، ويمتد من "المجدل" حتى الخليل.

وكانت مستعمرات العدو تحيط بها من كل جانب!

على بعد كيلو مترين اثنين من الأمام منها كانـت تقـع مستعمرة "جات"......

وفي جنوبها مستعمرات "رحامـة" و"جمامـة"، وفـي شمالها مجمعات أخرى من المستعمرات، في أرض يحتلهـا العدو ويسيطر عليها كلها!

كانت حولنا مجمعة من القرى العربيـة، تقـع داخـل النطاق الذي فرضت علينا حمايته. كان هذا النطاق يمتد إلى ثلاثين كيلو مترا. وعندما وزعت كتيبتنا على النطاق الـذي تحميه، وجدت أن المأساة القديمة قد عادت؛ فكررت نفسـها من جديد.

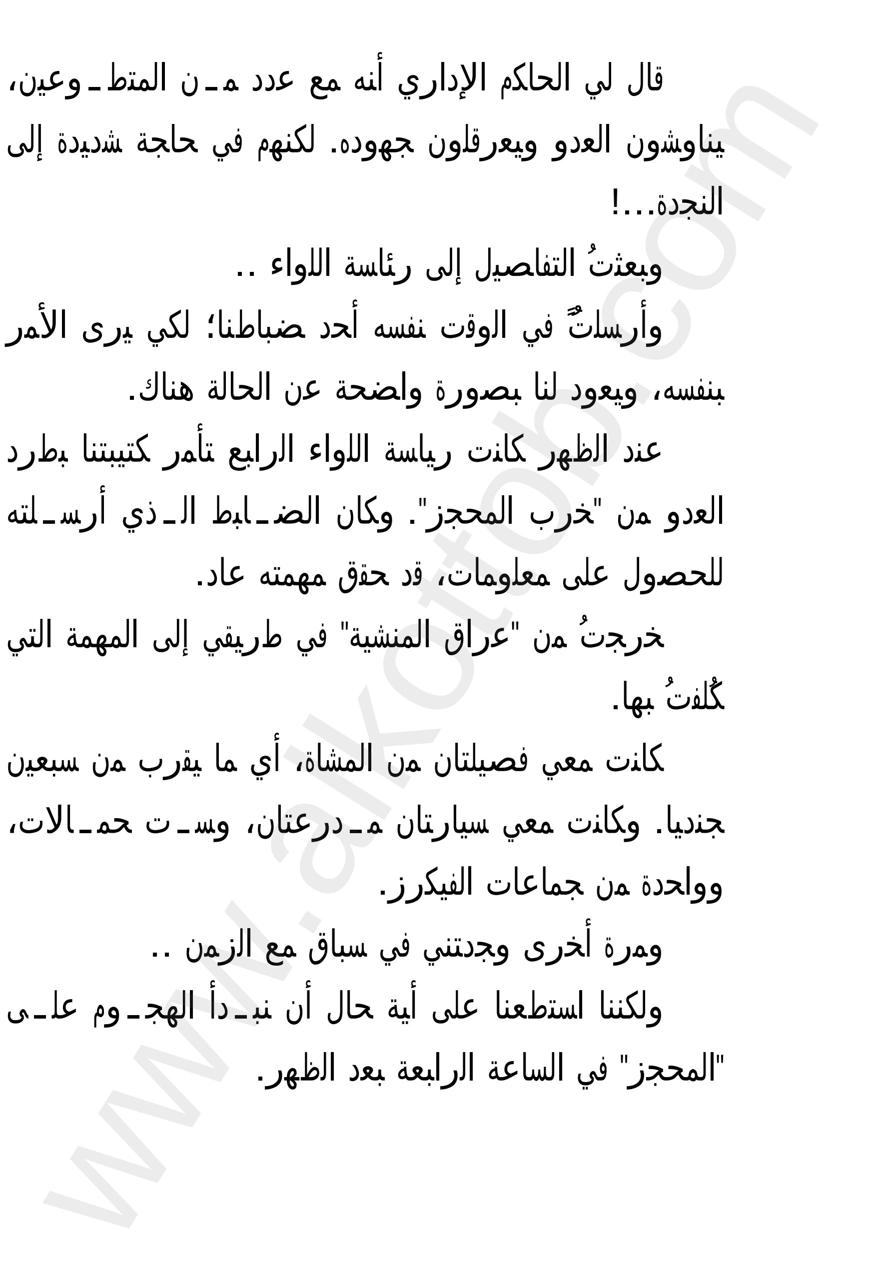
لقد فُرض على قوات كتيبتنا أن تتبعثر علـى منـاطق منعزلة....!

وعليها أن تدافع عن الطريق في هذه البعثرة، وتـدافع عن القرى الواقعة في نطاقها.. وتدافع بالطبع عن نفسها..!

وبدأ النشاط يدب في قطاعنا.

وذات صباح، تلقيـت إشـارة مـن الحـاكم الإداري المصري لبيت "جبرين" يقول فيها :

إن العدو احتل "خربة المحجز". وأن قواته بدأت تحفر خنادقه. وتحصن موقعها الجديد...!



قال لي الحاكم الإداري أنه مع عدد من المتطوعين، يناوشون العدو ويعرقلون جهوده. لكنهم في حاجة شديدة إلى النجدة...!

وبعثتُ التفاصيل إلى رئاسة اللواء ..

وأرسلتُ في الوقت نفسه أحد ضباطنا؛ لكي يرى الأمر بنفسه، ويعود لنا بصورة واضحة عن الحالة هناك.

عند الظهر كانت رياسة اللواء الرابع تأمر كتيبتنا بطرد العدو من "خرب المحجز". وكان الضابط الذي أرسلته للحصول على معلومات، قد حقق مهمته عاد.

خرجتُ من "عراق المنشية" في طريقي إلى المهمة التي كُلفتُ بها.

كانت معي فصيلتان من المشاة، أي ما يقرب من سبعين جنديا. وكانت معي سيارتان مدرعتان، وست حمالات، وواحدة من جماعات الفيكرز.

ومرة أخرى وجدتني في سباق مع الزمن ..

ولكننا استطعنا على أية حال أن نبدأ الهجوم على "المحجز" في الساعة الرابعة بعد الظهر.

وكانت الخطة التي وضعتها.. أن تتقدم الحمالات مـن يمين "المحجز" ، وأن يتقدم المشاة من الشمال.

وبدأت أضع يدي على قلبي ..

لأن الحمالات بعثت لي رسالة تقول فيهـا: أن خـورا واسعا ـ مجرى مائيا جافًا ـ يعترض طريقها، ولا تستطيع عبوره إلى الهدف....!

لكن فصيلة الحمالات حققت أملى فيها أكثر ..

فقد تلقيت منها بعد ذلك إشارة في الخامسة والنصـف، بأنها وجدت طريقًا وأنها ماضية إلى الهدف..!

بعد ربع ساعة أبلغني قائد فصيلة الحمالات.. أنه وسط الهدف..!

أبلغني أنه دخل "المحجز". وأنه مشتبك مع العدو.

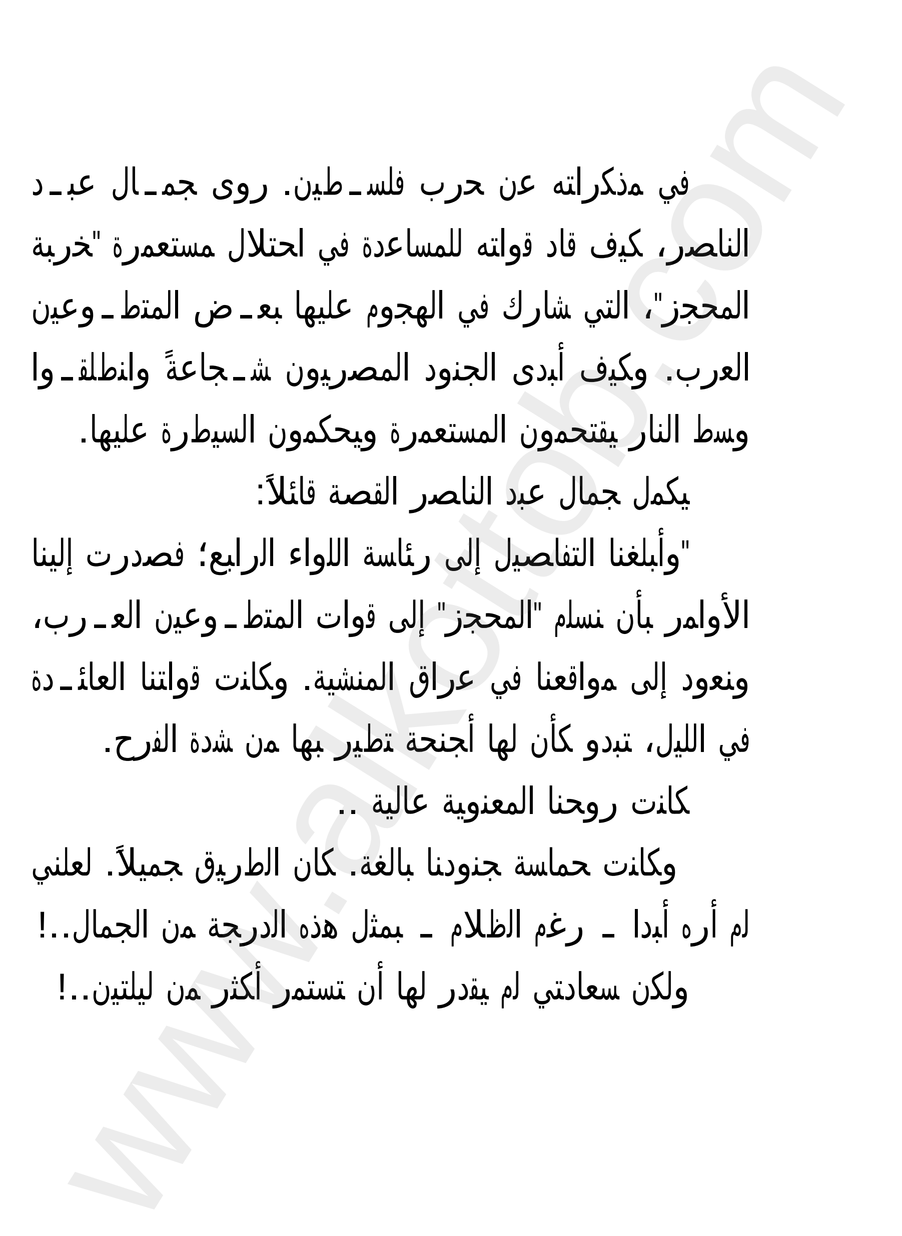
تقدمت المشاة في نفس الوقت، ومعها جماعـات مـن المتطوعين العرب؛ فلم تحن الساعة السادسة والربع، حتـى كانت العملية قد انتهت.

وكان قتلى العدو يملأون أرض المعركة..

الغريب.. الذي مازلت أعجب له حتى الآن.. أن الحـظ حالفنا .. فلم تكن بين قواتنا خسائر على الإطلاق..!

الفصل الثالث عشر

المرة الوحيدة في الحياة..التي شعر فيها عبد الناصر بالخوف!



في مذكراته عن حرب فلسـطين. روى جمـال عبـد الناصر، كيف قاد قواته للمساعدة في احتلال مستعمرة "خربة المحجز"، التي شارك في الهجوم عليها بعـض المتطـوعين العرب. وكيف أبدى الجنود المصريون شـجاعةً وانطلقـوا وسط النار يقتحمون المستعمرة ويحكمون السيطرة عليها.

يكمل جمال عبد الناصر القصة قائلاً:

"وأبلغنا التفاصيل إلى رئاسة اللواء الرابع؛ فصدرت إلينا الأوامر بأن نسلم "المحجز" إلى قوات المتطـوعين العـرب، ونعود إلى مواقعنا في عراق المنشية. وكانت قواتنا العائـدة في الليل، تبدو كأن لها أجنحة تطير بها من شدة الفرح.

كانت روحنا المعنوية عالية ..

وكانت حماسة جنودنا بالغة. كان الطريق جميلاً. لعلني لم أره أبدا ـ رغم الظلام ـ بمثل هذه الدرجة من الجمال..!

ولكن سعادتي لم يقدر لها أن تستمر أكثر من ليلتين..!

فقد كانت أول إشارة تلقيتها في صباح اليوم التـالي، أن العدو عاد فهجم على "المحجز"، وأن المتطوعين الذين كـان عليهم حمايتها، انسحبوا في الفجر تحت نيران العدو!

وجدت بعد هذه الإشارة أمرا إنذاريا من رئاسة اللـواء، بأن نستعد للاستيلاء على "المحجز" مرة أخرى...!

وبدأت أضرب كفًا بكف.

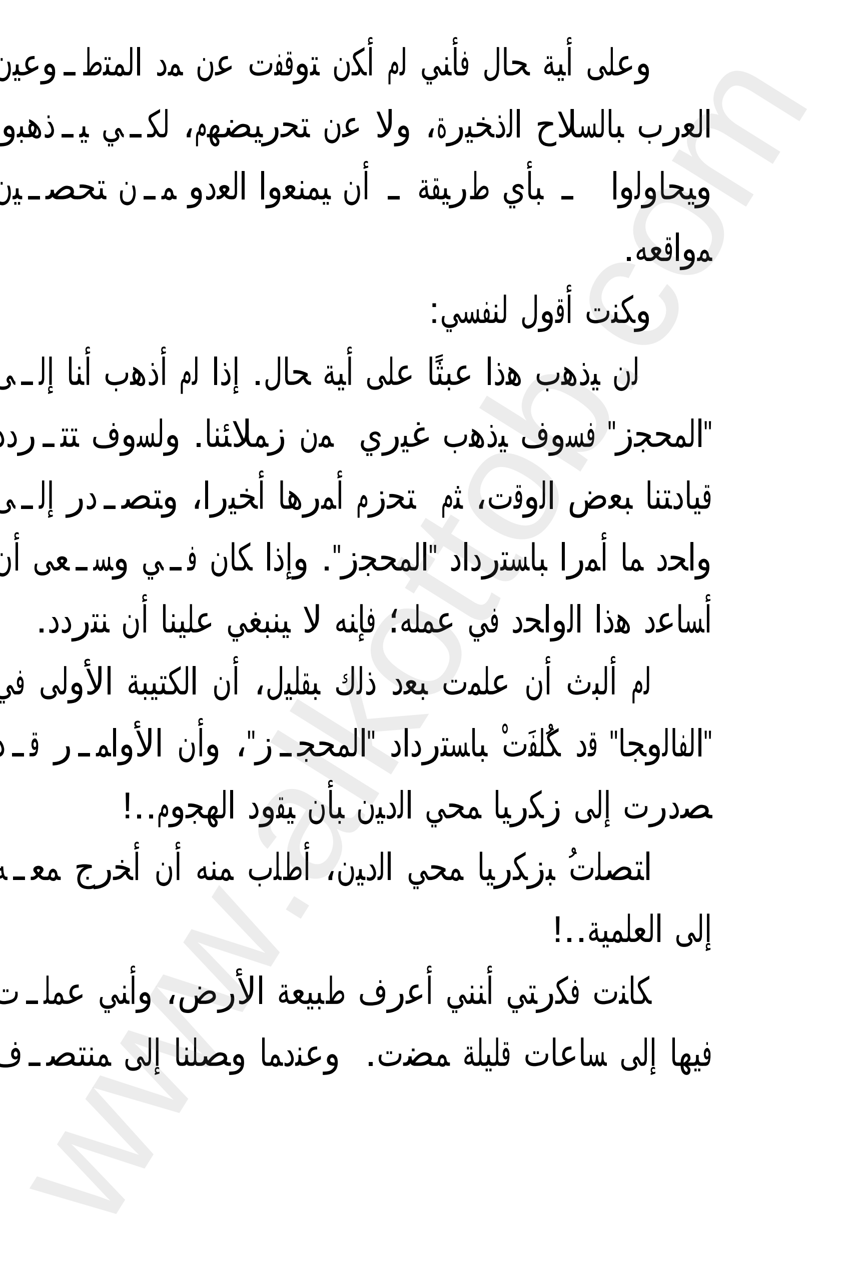
لقد خضنا معركة منتصرة لاستردادها من العدو. ومـع ذلك فرطنا فيها بسهولة. عادوا الآن يقولـون لنـا اذهبـوا فخذوها مرة جديدة !"

***

ويكمل جمال عبد الناصر في مذكراته:

" في تلك الأثناء، كانت هناك إشارات طائرة.. ذاهبـةً قادمةً. وتلقي المسئولية مرة علـى رئاسـة اللـواء الرابـع وأوامرها، مرة على المتطوعين العرب ...!

وفي الساعة الواحدة ظهرا ألغي الأمر الإنذاري...!



وعلى أية حال فأنني لم أكن توقفت عن مد المتطوعين العرب بالسلاح الذخيرة، ولا عن تحريضهم، لكي يذهبوا ويحاولوا - بأي طريقة - أن يمنعوا العدو من تحصين مواقعه.

وكنت أقول لنفسي:

لن يذهب هذا عبثًا على أية حال. إذا لم أذهب أنا إلى "المحجز" فسوف يذهب غيري من زملائنا. ولسوف تتردد قيادتنا بعض الوقت، ثم تحزم أمرها أخيرا، وتصدر إلى واحد ما أمرا باسترداد "المحجز". وإذا كان في وسعي أن أساعد هذا الواحد في عمله؛ فإنه لا ينبغي علينا أن نتردد.

لم ألبث أن علمت بعد ذلك بقليل، أن الكتيبة الأولى في "الفالوجا" قد كُلفَتْ باسترداد "المحجز"، وأن الأوامر قد صدرت إلى زكريا محي الدين بأن يقود الهجوم..!

اتصلتُ بزكريا محي الدين، أطلب منه أن أخرج معه إلى العلمية..!

كانت فكرتي أنني أعرف طبيعة الأرض، وأني عملت فيها إلى ساعات قليلة مضت. وعندما وصلنا إلى منتصف

الطريق إلى "المحجز"، وجدنا أن خير ما فعله هو أن نؤجـل الهجوم إلى الصباح، ونبدأه مع الخيوط الأولى للفجر.

ونمنا في الخلاء ..

زكريا محي الدين .. وأنا...!

فوقنا بطانية .. تحتنا بطانية أخرى...!

وبيننا أحاديث لا تنقطع عن العدو، وعن قيادتنا، وعـن القاهرة أيضا.... !

وبدأتْ المعركة في الصباح ..

واقترحتُ على زكريا، أن يستعين بفصيلة الحمالات من الكتيبة السادسة، وهي التي قادها الجاويش عبد الفتاح، ودخل بها إلى وسط العدو منذ يومين... ووافق زكريا. واتصـلت بكتيبتنا، أطلب منهم أن يبعثوا عبد الفتاح.......

وبعد ساعة واحدة ..

كان الجاويش عبد الفتاح داخل "المحجز" سـيبعث لـي بإشارة، يقول فيها أنه دخل القرية. ويطلب المشاة للتعزيز.

لم أطق صبرا ..

ركبتُ إحدى الحمالات، أسرعتُ بنفسي إلى "المحجز".

كانت القرية حين دخلتها جحيما من النار، فـإن العـدو الحانق المنسحب كان قد صب عليها كل ما استطاعت مدافعه أن تسعه من قنابل. أعترف أنني شعرت بالخوف مرة واحدة في حياتي.. كانت في تلك الساعة في "المحجز"!

ولست أدري ماذا حدث لي، حتى شردت عن المعركـة إلى أسرتي في القاهرة....!

إذن أنا لمدة ثلاث دقائق أفقد روح المحارب واندفاعه.

ومن حسن حظي، أن هذا الشعور فارقني بعـد ثـلاث دقائق. وعدت إلى شعور اللامبالاة، الذي هو عدة المحارب.!

إن الحرص على الحياة - وهذه هي تجربتي في ميدان القتال - أكثر ما يسلب المحارب روح القتال، والاندفاع إلى النصر، كمن في اللامبالاة بالنفس، ونسيان كل شئ عنهـا، ومراعاة المعركة وحدها..!

***

ولو شاء أديب أو روائي عـالمي أن يسـجل مشـاعر المقاتل، وأحاسيس الضباط الجنود في ساح الـوغى، هـذه الأحاسيس العميقة التي تتفجر بالإنسانية والنبل، ما اسـتطاع

أن يرسم مثل هذه الصورة الصادقة التي رسمها جمال عبـد الناصر في مذكراته .. والتي أكمل فيها القصة قائلاً:

"ولم يكن هناك ما أفعله بعدها ..

وأنا مشترك في المعركة بطريقة غيـر رسـمية إلا أن أعود. ولقيتُ زكريا في طريق عودتي. وتمنيتُ لـه حظاً سعيدا. كان هو في طريقه إلى "المحجز".

لم أكد أمضي بعيدا على أية حال، حتى جـاءني مـن يبلغني أن العدو كر مرة فدخل "المحجز"....!!!

وقررت أن أتمهل في العودة ..

في ظني أن أطمئن على زكريا محي الدين؛ فقد تركتـه لآخر مرة متقدما إلى "المحجز" .. وها هو العدو يعود إليها.

علمت بعد قليل، أن زكريا سمع بسقوط "المحجز" مـرة أخرى في يد العدو، قبل أن يصل إليها، فعاد فـي انتظـار أوامر جديدة. لكن الأوامر الجديد تأخرت ثلاثة أيام. كانـت أغلى من الحياة في يد العدو، الذي جعل من القرية حصـنًا منيعا..!!

وحين صدرتْ الأوامر بهجوم جديد عليها، كـان قائـد اللواء نفسه هو الذي سيقود الهجوم، وحشد مجموعات هائلة من القوات.

وقلتُ مرة لقائد مدرعاته:

هل تريدون أن أجيء معكم، لقد ذهبـت كتيبتنـا إلـى "المحجز" قبل ذلك، واستولت عليها مرتين؟

ولم يجب الرجل؟

بل اكتفي بأن رمقني بنظرة مشحونة بالكبرياء، ومضى في طريقه.. ولكن ليس إلى "المحجز"؛ فإن الهجوم الجديد لم يقدر له النجاح. بسبب الأيام الثلاثة الضائعة على الأقل..!

وكنت أتابع التطورات من مواقعنا ففي "عراق المنشية"، وأنا أقرض أسناني من الغيظ ....!!!

وجاء العيد الكبير ..

وصباح يوم العيد، تلقينا رسالة من رئاسة القوات، تقول أن العدو سوف ينتهز فرصة العيد، ويقـوم بهجـوم علـى مواقعنا.

ويظهر أن قيادتنا العامة لم تفعل أكثر من أنهـا بعثـت إلينا بهذه الرسالة، ونسيت عنا كل شـئ، وانهمكـت فـي

استقبال الأميرة السابقة فـايزة، وكـان مقـررا أن تـزور الميدان.!

لقد عرفنا أن العدو سوف ينتهز فرصة العيد ويهـاجم ..

ولكن ماذا أعددنا له..؟

ما هي الخطة التي رسمتها قيادتنا لملاقاته..؟

كانت النتيجة النهائية لرسالة القيادة، أننا أرسـلنا إلـى المواقع نقول لكل جندي:

خلى بالك يا عسكري ...!

لكن ما معنى هذا .. ما قيمته..؟؟

وماذا كان في استطاعتنا أن نفعل غير ذلك..؟

إن قيادتنا بعثت برسالتها التي تقول أن العـدو سـيهجم على كل مواقع اللواءات. وأبلغ اللواءات الأمر إلـى قـواد الكتائب، وانتقل الخبر منهم إلى أركانات حرب كتائبهم، ثـم إلى قواد السرايا الفصائل. ووصل الجنـود فـي الخنـادق بالدرجة الأولى على صورة:

خلى بالك يا عسكري....!

اعتبرت قيادتنا أنها أدت واجبها .. وأكثر...!

ونسيت أنه كان يتعين عليها، أن تعد خططًا مضادة لكل احتمال. وتبعث بها إلينا...!

بدأت الحوادث تجري مسرعة ..

كان اليوم هذا ثالث أيام العيد ..

وبدأ العدو نشاطه في الساعة الحادية عشرة مساء.

وبعثتْ إحدى سرايانا إلى الشـرق، تقـول أن العـدو يتحرك بين "عراق المنشية" وبين "جبـرين" . وبعـث قائـد السرية يقول لي . أنه أرسل إحدى دورياتـه للاستكشـاف؛ فعادت إليه تقول أن العدو نشط على الطريق الرئيسي، وأنه احتل موقعا عليه، وبدأ يحفر حوله ويقيم الأسلاك، وأن ذلك معناه قطع الطريق بين "عراق المنشية" وبين "جبرين".

وقلت لقائد السرية أن يشتبك مع العدو ..

أن يمنعه من تحصين موقعه. واتصلت برياسة اللـواء الرابع أروي لهم ما حدث. وكان الرد أن تقوم كتيبتنـا بـرد العدو عن هذا الموقع.

وفي الساعة الثالثة صباحا ..

كان تجهيز القوة الخارجة لرد العدو يسير علـى قـدم وساق. وكان مفروضا أن أخرج أنا بهذه القوة.

وكان مفروضا أن نخرج مع أول ضوء للفجر ..

وكنت واقفًا بنفسي أمام مركز رياسة كتيبتنـا، أتعجـل ضوء الفجر. لكي نتحرك إلى هدفنا.

كان كل شئ حولنا ساكنًا ..

حتى المستعمرة التي كانت تواجهنا "جات"، بدت وكأنها مستغرقة في نوم عميق.

ودخلتُ مركز الرياسة ..

طلبتُ على التليفون برج المراقبة العالي المشرف مـن مواقعنا فوق الجبل على مسـتعمرة "جـات"، أسـألهم عـن الأحوال حول المستعمرة. كان الرد يؤيد مـا أحسسـتُ بـه بنفسي. أن كل شئ هادئ.

اقتربتْ عقارب الساعة من الخامسة ..

وكان لابد أن نتحرك.

لكن فجأة.. انتهى الهدوء نهاية خاطفة مروعة..!

بدأت النار تنهال على "عراق المنشية" بتركيز لم أشـهد له مثيلاً من قبل!

إذن .. فقد بدأت المعركة هنا.

وإذن .. فيجب أن أبقى لأواجه هذا الهجوم.

ودخلتُ مركز الرياسة أحاول مواجهة المعركة.

دق جرس التليفون في الخامسة والنصف ..

وسمعتُ قائد السرية المواجه لمستعمرة "جات" يقول لي:

إن العدو يتقدم .. بالدبابات...!

وصحتُ فيه أقول:

بماذا....؟ بالدبابات....؟ .. هل أنت متأكد......؟

ومع أن الضابط مضى يؤكدها بشدة؛ فقد تصـورت ـ ظلمت في تصوري ـ أن شدة النار، هي التي جعلته يتصور وجود الدبابات من غير أن تكون هناك دبابات!

ولم يكن العدو قد استعمل الدبابات في فلسـطين أبـدا حتى اليوم ..

لدرجة أن القائد العام لقواتنا في الميدان، طلـب منـي ونحن في طريقنا إلى "عراق المنشية" من مواقعنا القديمة في أسدود ، أن أترك له هناك مدافعنا المضادة للدبابات من عيار ٦ رطل!

ولما حاولت أن أناقشه في هذا الأمر قال:

إن العدو لا يستعمل الدبابات .. ثم إن طبيعـة الأرض التي ستذهب إليها ، لا تصلح بطبيعتها لاستعمال الدبابات!

وأطعتُ القائد!

لكنني أمرتُ أحد جاويشة كتيبتنا، أن يأخذ معه من وراء ظهر القائد العام مدفعين من المدافع المضادة للدبابات.

وكنت أقول في نفسي:

* ولو لمجرد الاحتمال البعيد!

وعاد قائد السرية المواجهة للمستعمرة يقول لي:

إن الدبابات تتقدم على مواقعي..

وأنها عبرت الأسلاك الشائكة...!

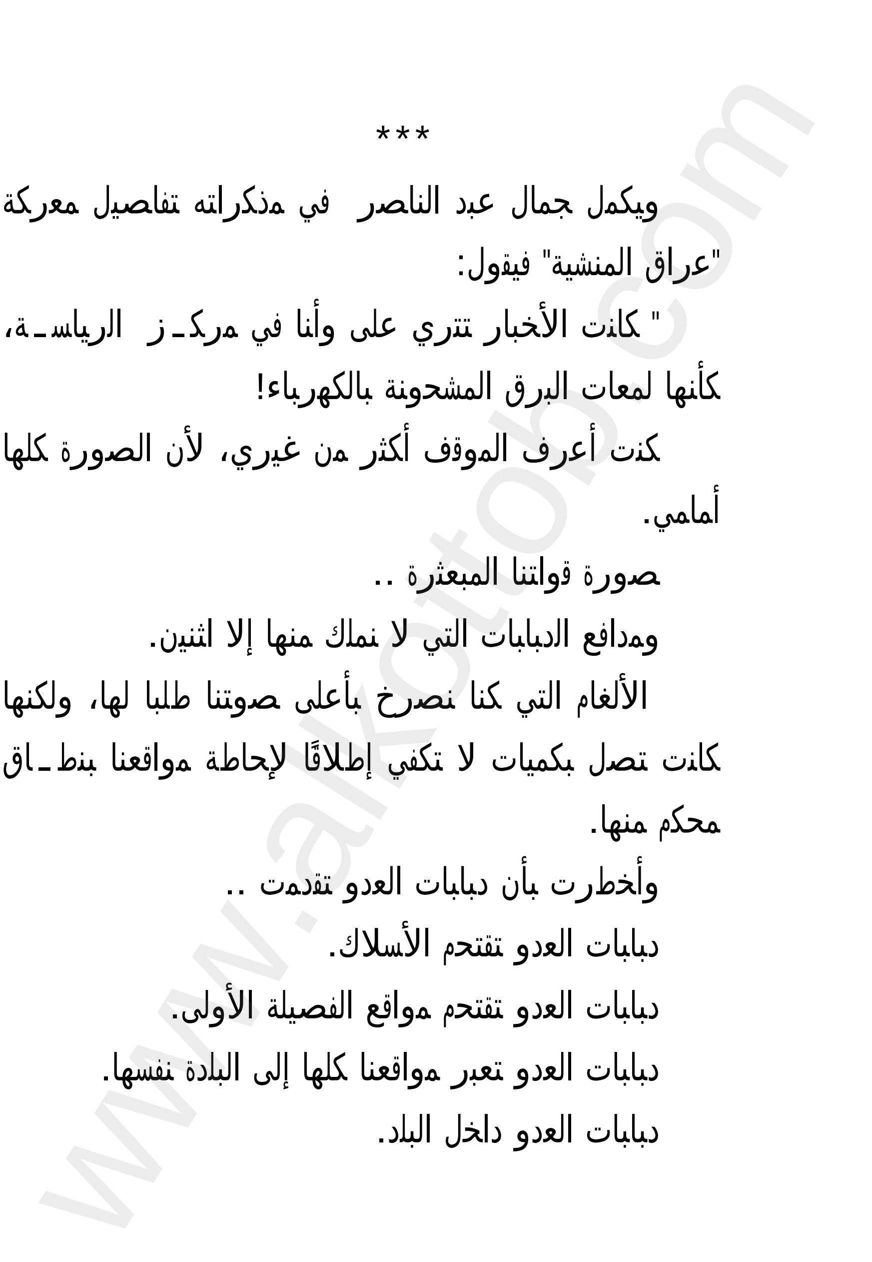
إذن.. فالاحتمال الذي قطع قائدنا العام بعـدم حدوثـه، وحاولت أنا أن أحتاط له .. قد وقع....!

إذن.. أيضا كان يجب أن تبقى معنا مـدافعنا المضـادة للدبابات، لا أن تُسلب مِنا، حتى يهجم العدو علينا بدباباتـه؛ فنحار كيف نصده..!

وإذن فإن اعتمادنا اليوم كله علـى مـدفعين اثنـين، أخذناهما من رواء ظهر القائد العام..!

ونقلت المدافع ..

أقصد المدفعين الاثنين .. إلى مواجهة الدبابات القادمة!"



***

ويكمل جمال عبد الناصر في مذكراته تفاصيل معركة "عراق المنشية" فيقول:

" كانت الأخبار تترى على وأنا في مركـز الرياسـة، كأنها لمعات البرق المشحونة بالكهرباء!

كنت أعرف الموقف أكثر من غيري، لأن الصورة كلها أمامي.

صورة قواتنا المبعثرة ..

ومدافع الدبابات التي لا نملك منها إلا اثنين.

الألغام التي كنا نصرخ بأعلى صوتنا طلبا لها، ولكنها كانت تصل بكميات لا تكفي إطلاقًا لإحاطة مواقعنا بنطـاق محكم منها.

وأخطرت بأن دبابات العدو تقدمت ..

دبابات العدو تقتحم الأسلاك.

دبابات العدو تقتحم مواقع الفصيلة الأولى.

دبابات العدو تعبر مواقعنا كلها إلى البلدة نفسها.

دبابات العدو داخل البلد.

إن الموقف قد تغير إذن. ويجب أن أواجهـه بطريقـة جديدة. لقد كانت قواتنا موزعة على نطاق معين، لصد العدو المهاجم عليها من الخارج. لكن الكارثة التي حلت، هـي أن العدو اخترق هذا النطاق، وأصبح داخل "عراق المنشـية" ، أي داخل النطاق الذي ندافع من حوله!

إن قلب النطاق ليست فيه مقاومة.

المقاومة كانت حوله للصد عنه.

إذن.. فإن العدو سوف يمرح في البلدة، ما شـاءت لـه خطته، لكي يمزق أوصالنا، ويقطع أعصاب واصلاتنا.....!

وسألت في لهفة:

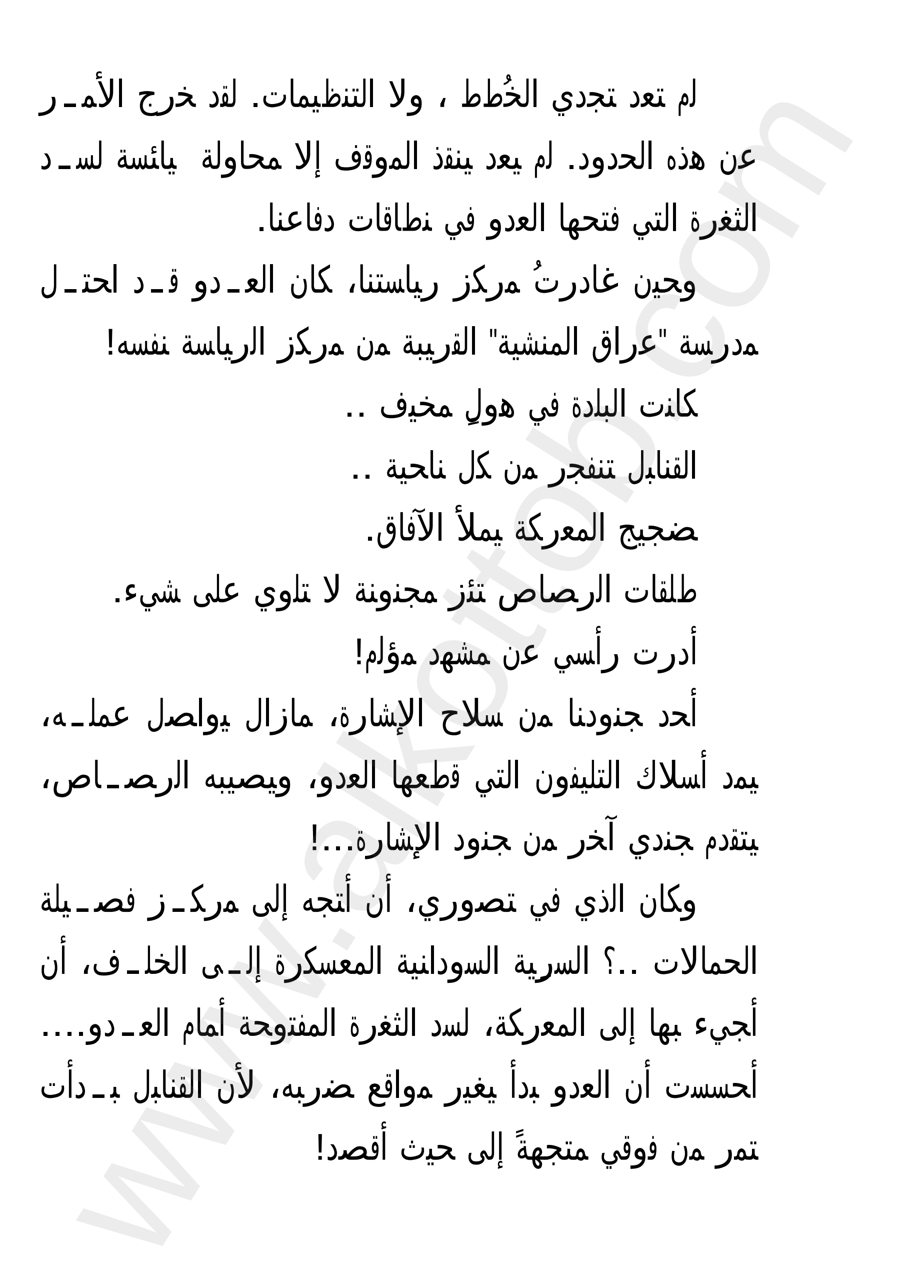
أين المدفعان المضادان للدبابات....؟

كانت المفاجأة المروعة التي صنعها لنا القدر..!

لقد سقطت قنابل "هـاون" فـوق المـدفعين مباشـرة. وتعطلا.. وأصبحا غير قادرين على العمل....!

قفزتُ خارجا من مركز الرئاسة ..

يجب أن أواجه الأمر بنفسي على الطبيعة.



لم تعد تجدي الخُطط ، ولا التنظيمات. لقد خرج الأمـر عن هذه الحدود. لم يعد ينقذ الموقف إلا محاولة يائسة لسـد الثغرة التي فتحها العدو في نطاقات دفاعنا.

وحين غادرتُ مركز رياستنا، كان العـدو قـد احتـل مدرسة "عراق المنشية" القريبة من مركز الرياسة نفسه!

كانت البلدة في هولٍ مخيف ..

القنابل تنفجر من كل ناحية ..

ضجيج المعركة يملأ الآفاق.

طلقات الرصاص تئز مجنونة لا تلوي على شيء.

أدرت رأسي عن مشهد مؤلم!

أحد جنودنا من سلاح الإشارة، مازال يواصل عملـه، يمد أسلاك التليفون التي قطعها العدو، ويصيبه الرصـاص، يتقدم جندي آخر من جنود الإشارة...!

وكان الذي في تصوري، أن أتجه إلى مركـز فصـيلة الحمالات ..؟ السرية السودانية المعسكرة إلـى الخلـف، أن أجيء بها إلى المعركة، لسد الثغرة المفتوحة أمام العـدو.... أحسست أن العدو بدأ يغير مواقع ضربه، لأن القنابل بـدأت تمر من فوقي متجهةً إلى حيث أقصد!

كنت بمدفع "التومي" في يدي أحاول أن أسبق القنابل!

القنابل التي كانت تعبر من فوقي لكي تلاقـي المواقـع التي أتجه إليها.

وفجأة .. أحسست بحافز خفي !

صوت قنبلة مختلف عن باقي الأصوات. كانت القنابـل المندفعة فوق رأسي إلى أهدافها، تصنع في اندفاعها صـوتًا خاصا، بين الأزيز والفحيح السريع الخاطف.

أما هذا الصوت الذي أسمعه فوقي، فهو أشبه بخفـق أجنحة الطير، عندما يصيبه رصـاص الصـائد ؛ فيـرف ويسقط إلى الأرض.!

إني أعرف هذا الصوت ..!

إنه صوت سقوط القنبلة عنـد وصـولها إلـى آخـر مرماها.!

ألقيتُ بنفسي بسرعة على الأرض، في حمـى جـدار منخفض متهدم.

بعد ثانية واحدة أو ثانيتين سمعت الانفجار ..!

رفعتُ رأسي فوجدتُ غبار الانفجار، مايزال كدوامـة الهواء على الناحية الأخرى من الجدار!

إذن .. فقد نجوت بضربة حظ عجيبة ..!

لم يكن هناك مجال للتأمل أو التفكير ؛ فقد اندفعت إلـى منطقة فصيلة الحمالات منطقة الشئون الإدارية. وقلت لأول ضابط وجدته هناك:

خُذ كل الجنود واطلع إلى منطقة المدرسة!

علمت أن السرية السودانية خرجت إلى المعركة قبـل وصولي بقليل.

بدأ كل قادر على حمل السلاح يخرج ..

خرج الطباخون ..

وحتى سائقو السيارات ..

وأقول سائقو السيارات لأنني مازلت أذكر أحدهم.

كان اسمه عزت .. وكان قلبه كالحديد!

ولم يكن يتردد أمام أية مهمة.

وكان دائما ينجو بما يشبه المعجزات.

لقد لقيته أخيرا منذ شهور في مستشفي الجيش، وكـان مريضا في المستشفي، وعرفته، وبدأت أُحدثـه، وأتعـرف حالته، وقال لي وعينه فيها دموع أنه مصـاب بسـل فـي العظام.

وقلت للطبيب الذي يعالجه:

أما من وسيلة....؟

قال :

عندنا.....! لا .. لكنهم قد يستطيعون عمل شيء له في أمريكا!

قلت: إذن.. يسافر أمريكا، لكي يعالج هناك .. إنه خير عندي من مائة من الباشوات، الذين كانت سبل السفر مفتوحة أمامهم.

وإني آسف لأن أجل عزت لم يسعفه؛ فإنه مات بمرضه، قبل أن تتم إجراءات سفره إلى أمريكا.

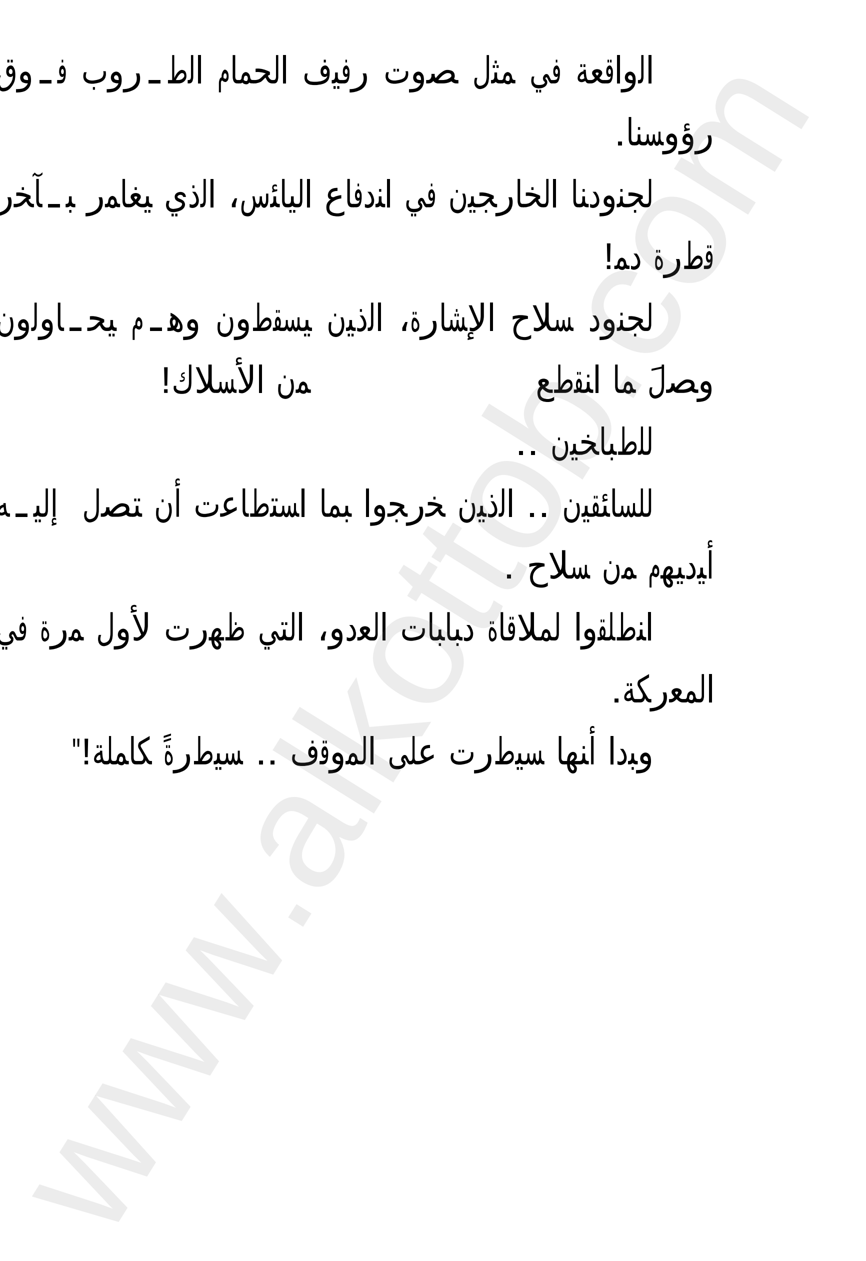
على أية حال ..

أعود للمعركة الناشبة في "عراق المنشية" ..

للعدو الذي اقتحم نطاق دفاعنا ..

للدبابات التي لم يقف في طريقها شيء، واقتحمت الأسلاك الشائكة، واجتاحت المواقع، وأصبحت في قلب البلدة.

للقنابل الطائرة فوق رؤوسنا ..



الواقعة في مثل صوت رفيف الحمام الطـروب فـوق رؤوسنا.

لجنودنا الخارجين في اندفاع اليائس، الذي يغامر بـآخر قطرة دم!

لجنود سلاح الإشارة، الذين يسقطون وهـم يحـاولون وصلَ ما انقطع من الأسلاك!

للطباخين ..

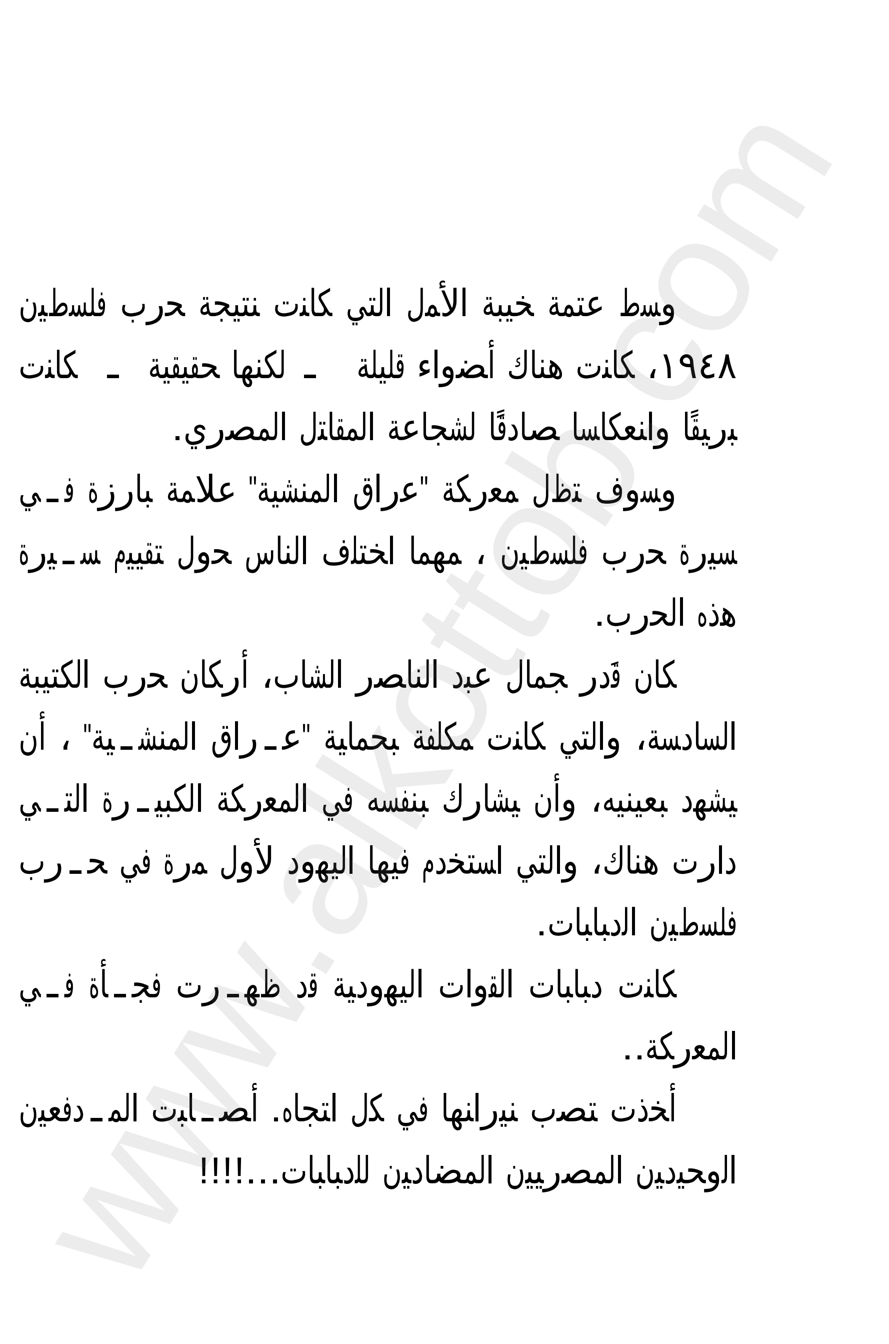
للسائقين .. الذين خرجوا بما استطاعت أن تصل إليـه أيديهم من سلاح .

انطلقوا لملاقاة دبابات العدو، التي ظهرت لأول مرة في المعركة.

وبدا أنها سيطرت على الموقف .. سيطرةً كاملة!"

الفصل الرابع عشر

ا .. كان قائدنا في تلك المعركة



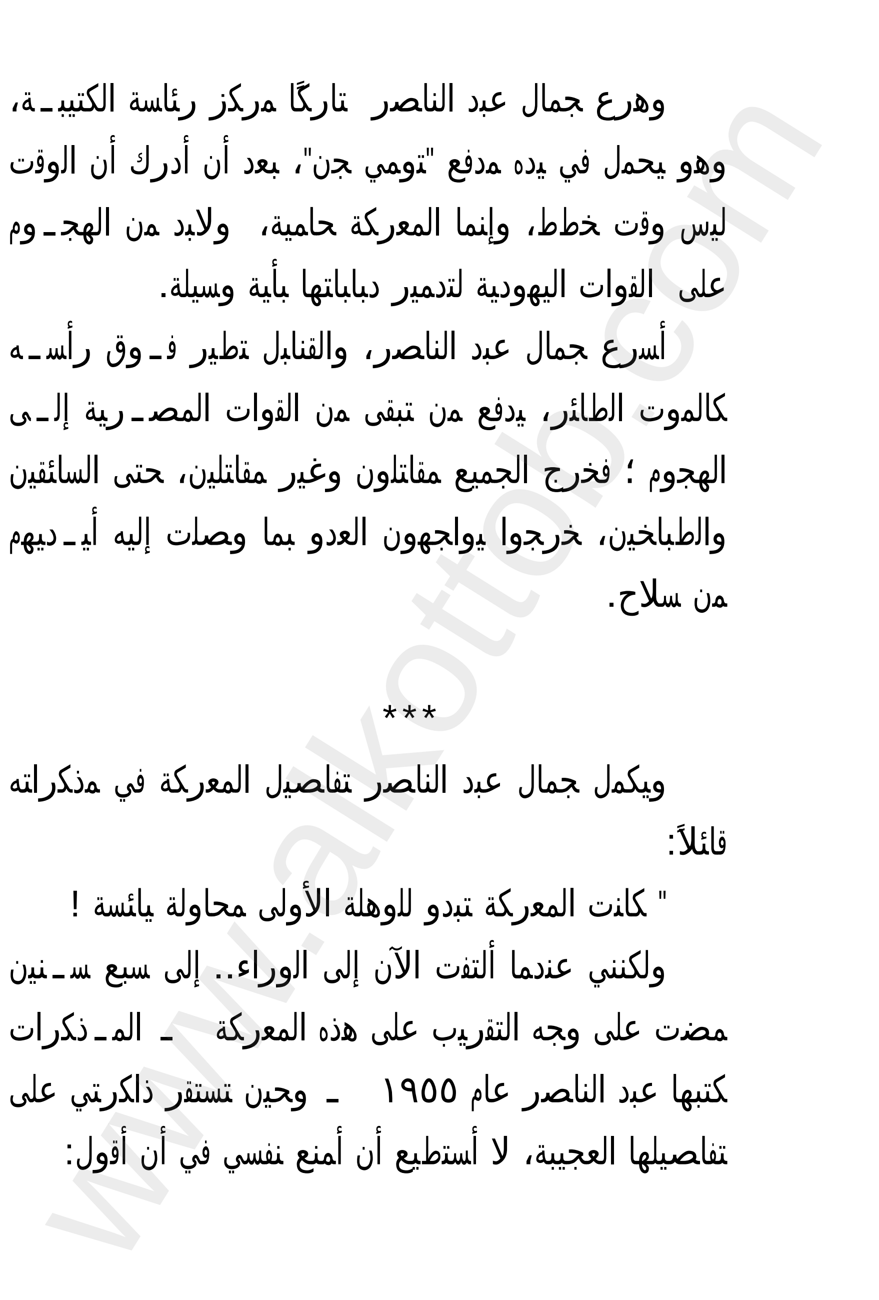
وسط عتمة خيبة الأمل التي كانت نتيجة حرب فلسطين ١٩٤٨، كانت هناك أضواء قليلة - لكنها حقيقية - كانت بريقًا وانعكاسا صادقًا لشجاعة المقاتل المصري.

وسوف تظل معركة "عراق المنشية" علامة بارزة في سيرة حرب فلسطين ، مهما اختلف الناس حول تقييم سيرة هذه الحرب.

كان قَدر جمال عبد الناصر الشاب، أركان حرب الكتيبة السادسة، والتي كانت مكلفة بحماية "عراق المنشية" ، أن يشهد بعينيه، وأن يشارك بنفسه في المعركة الكبيرة التي دارت هناك، والتي استخدم فيها اليهود لأول مرة في حرب فلسطين الدبابات.

كانت دبابات القوات اليهودية قد ظهرت فجأة في المعركة..

أخذت تصب نيرانها في كل اتجاه. أصابت المدفعين الوحيدين المصريين المضادين للدبابات...!!!!



وهرع جمال عبد الناصر تاركًا مركز رئاسة الكتيبـة، وهو يحمل في يده مدفع "تومي جن"، بعد أن أدرك أن الوقت ليس وقت خطط، وإنما المعركة حامية، ولابد من الهجـوم على القوات اليهودية لتدمير دباباتها بأية وسيلة.

أسرع جمال عبد الناصر، والقنابل تطير فـوق رأسـه كالموت الطائر، يدفع من تبقى من القوات المصـرية إلـى الهجوم ؛ فخرج الجميع مقاتلون وغير مقاتلين، حتى السائقين والطباخين، خرجوا يواجهون العدو بما وصلت إليه أيـديهم من سلاح.

***

ويكمل جمال عبد الناصر تفاصيل المعركة في مذكراته قائلاً:

" كانت المعركة تبدو للوهلة الأولى محاولة يائسة !

ولكنني عندما ألتفت الآن إلى الوراء.. إلى سبع سـنين مضت على وجه التقريب على هذه المعركة ـ المـذكرات كتبها عبد الناصر عام ١٩٥٥ ـ وحين تستقر ذاكرتي على تفاصيلها العجيبة، لا أستطيع أن أمنع نفسي في أن أقول:

لقد كان ذلك يوما من أروع أيام حياتنا ...!

حين أمضي أكثر وأكثر، أستعرض الذي حـدث؛ فقـد ظهرت دبابات العدو لأول مرة تهـدر فـي الطريـق إلـى مواقعنا، منذ اكتسحتْ هذه الـدبابات مواقعنـا، واخترقـت نطاقات الدفاع المعدة حولها، ومنذ اقتحمت هـذه الـدبابات طريقًا لنفسها، حتى وصلت إلى قلب "عراق المنشية".

ومنذ خرجت من مبنى الرياسة، حيث لم يعـد يجـرى تنظيم، لكي أدفع كل رجل قادر على حمل السـلاح إلـى أن يحاول بجسده أن يوقف تقدم الدبابات.

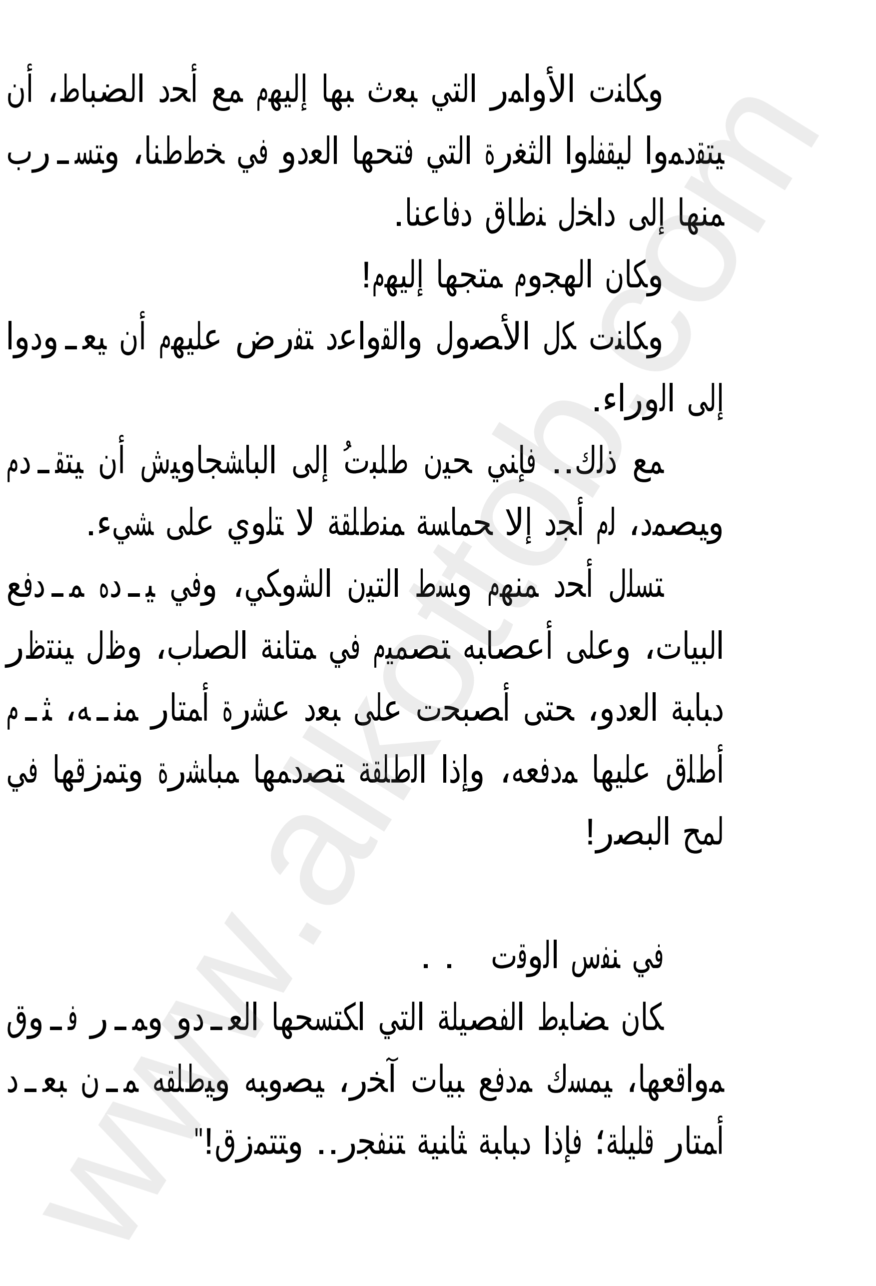
حين أستعرض هذا الذي حدث بكل دقائقه ..

ثم أتذكر كيف تطور هذا الموقف في سـاعة واحـدة، أعود فأقول:

كان قائد هذه المعركة .. هو ا ....!!!

كان كل شئ يتطور بسرعة غير معقولة ..

كانت فصيلة الحمالات قد تقـدمت إلـى وسـط حقـلٍ مزروع بالتين الشوكي. وكانت مدافع البيات الصغيرة التـي تستطيع مقاومة الدبابات من مسافة قريبة، جاهزة في أيديهم. كانوا في انتظار من يصدر إليهم أمرا.



وكانت الأوامر التي بعث بها إليهم مع أحد الضباط، أن يتقدموا ليقفلوا الثغرة التي فتحها العدو في خططنا، وتسرب منها إلى داخل نطاق دفاعنا.

وكان الهجوم متجها إليهم!

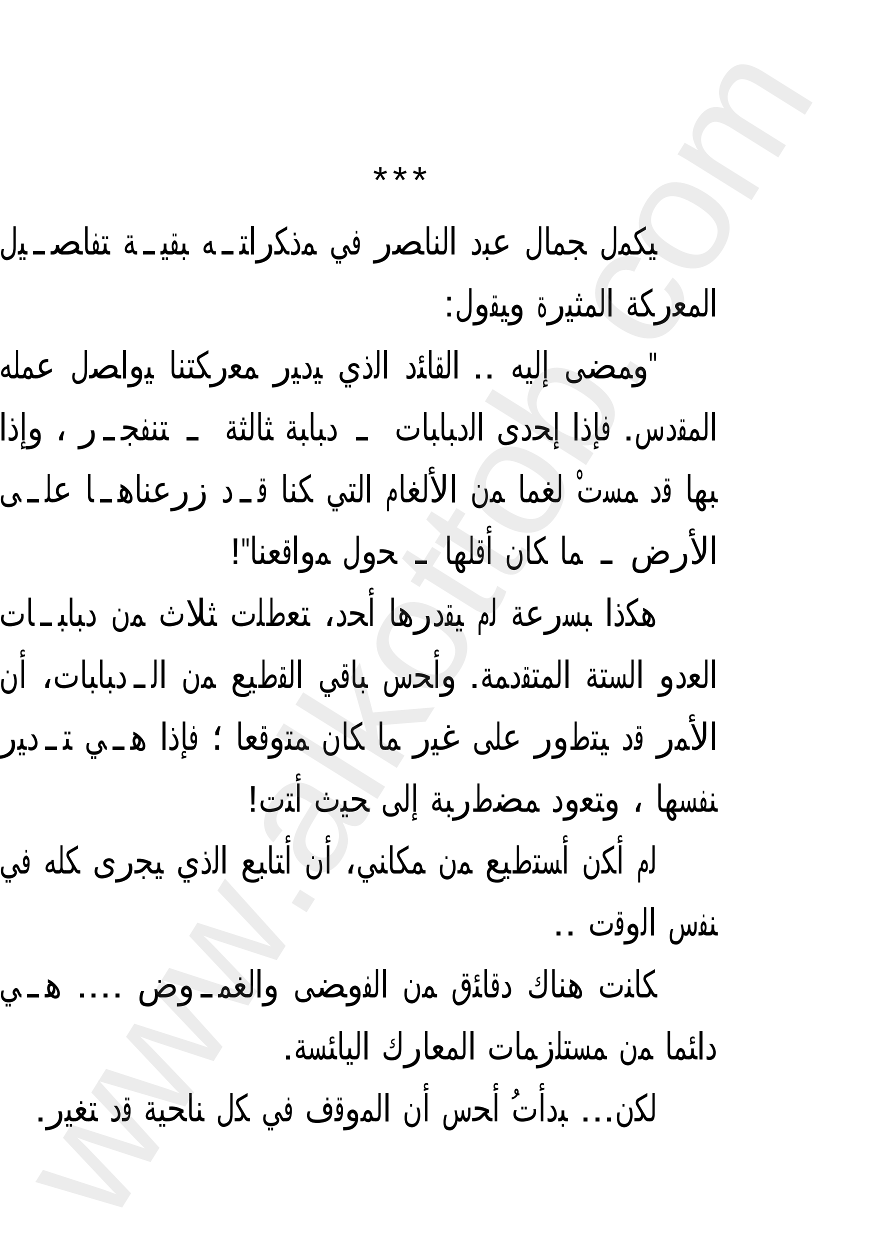
وكانت كل الأصول والقواعد تفرض عليهم أن يعودوا إلى الوراء.

مع ذلك.. فإني حين طلبتُ إلى الباشجاويش أن يتقدم ويصمد، لم أجد إلا حماسة منطلقة لا تلوي على شيء.

تسلل أحد منهم وسط التين الشوكي، وفي يده مدفع البيات، وعلى أعصابه تصميم في متانة الصلب، وظل ينتظر دبابة العدو، حتى أصبحت على بعد عشرة أمتار منه، ثم أطلق عليها مدفعه، وإذا الطلقة تصدمها مباشرة وتمزقها في لمح البصر!

في نفس الوقت . .

كان ضابط الفصيلة التي اكتسحها العدو ومر فوق مواقعها، يمسك مدفع بيات آخر، يصوبه ويطلقه من بعد أمتار قليلة؛ فإذا دبابة ثانية تنفجر.. وتتمزق!"



***

يكمل جمال عبد الناصر في مذكراتـه بقيـة تفاصـيل المعركة المثيرة ويقول:

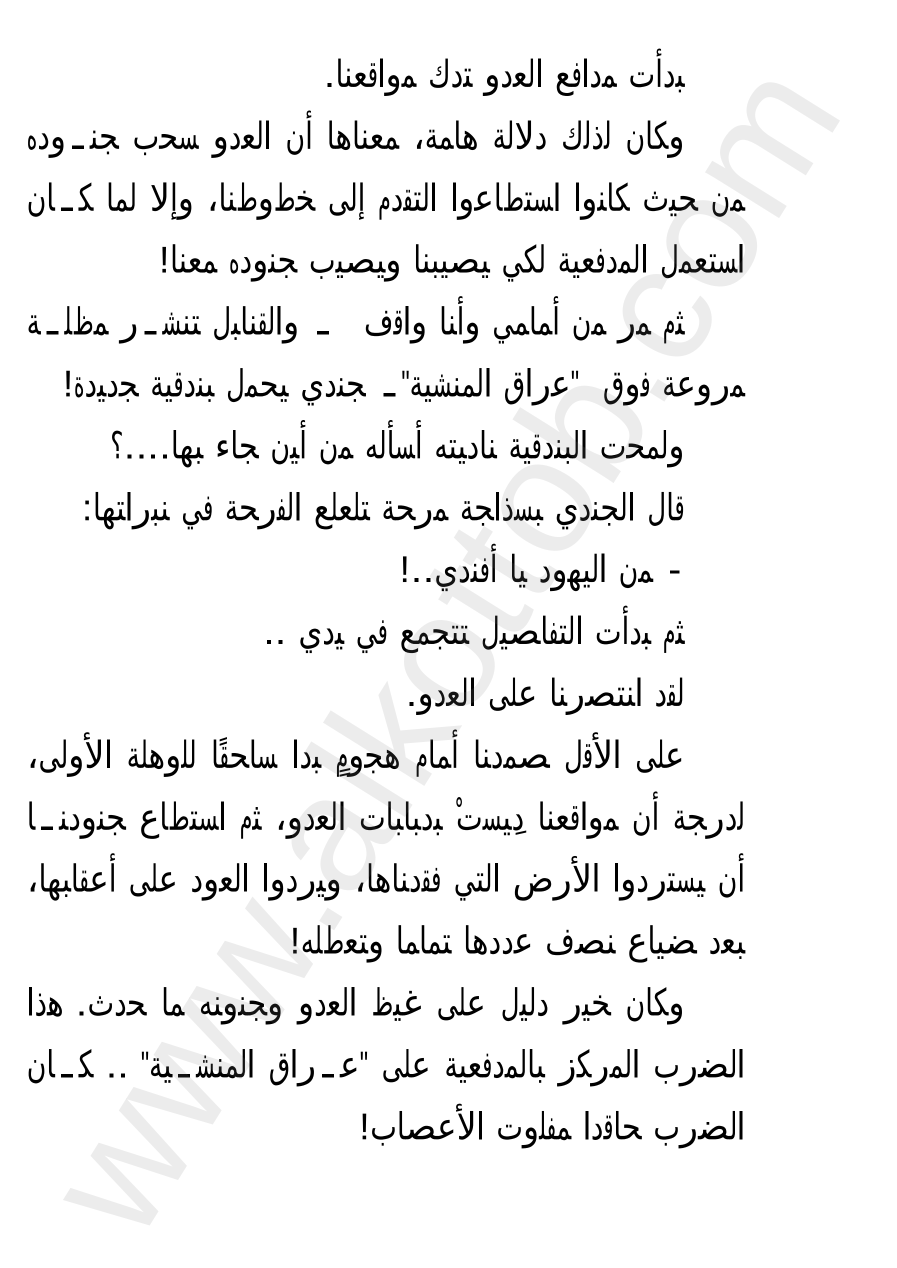
"ومضى إليه .. القائد الذي يدير معركتنا يواصل عمله المقدس. فإذا إحدى الدبابات ـ دبابة ثالثة ـ تنفجـر ، وإذا بها قد مستْ لغما من الألغام التي كنا قـد زرعناهـا علـى الأرض ـ ما كان أقلها ـ حول مواقعنا"!

هكذا بسرعة لم يقدرها أحد، تعطلت ثلاث من دبابـات العدو الستة المتقدمة. وأحس باقي القطيع من الـدبابات، أن الأمر قد يتطور على غير ما كان متوقعا ؛ فإذا هـي تـدير نفسها ، وتعود مضطربة إلى حيث أتت!

لم أكن أستطيع من مكاني، أن أتابع الذي يجرى كله في نفس الوقت ..

كانت هناك دقائق من الفوضى والغمـوض .... هـي دائما من مستلزمات المعارك اليائسة.

لكن... بدأتُ أحس أن الموقف في كل ناحية قد تغير.



بدأت مدافع العدو تدك مواقعنا.

وكان لذلك دلالة هامة، معناها أن العدو سحب جنـوده من حيث كانوا استطاعوا التقدم إلى خطوطنا، وإلا لما كـان استعمل المدفعية لكي يصيبنا ويصيب جنوده معنا!

ثم مر من أمامي وأنا واقف ـ والقنابل تنتشـر مظلـة مروعة فوق "عراق المنشية"ـ جندي يحمل بندقية جديدة!

ولمحت البندقية ناديته أسأله من أين جاء بها....؟

قال الجندي بسذاجة مرحة تلعلع الفرحة في نبراتها:

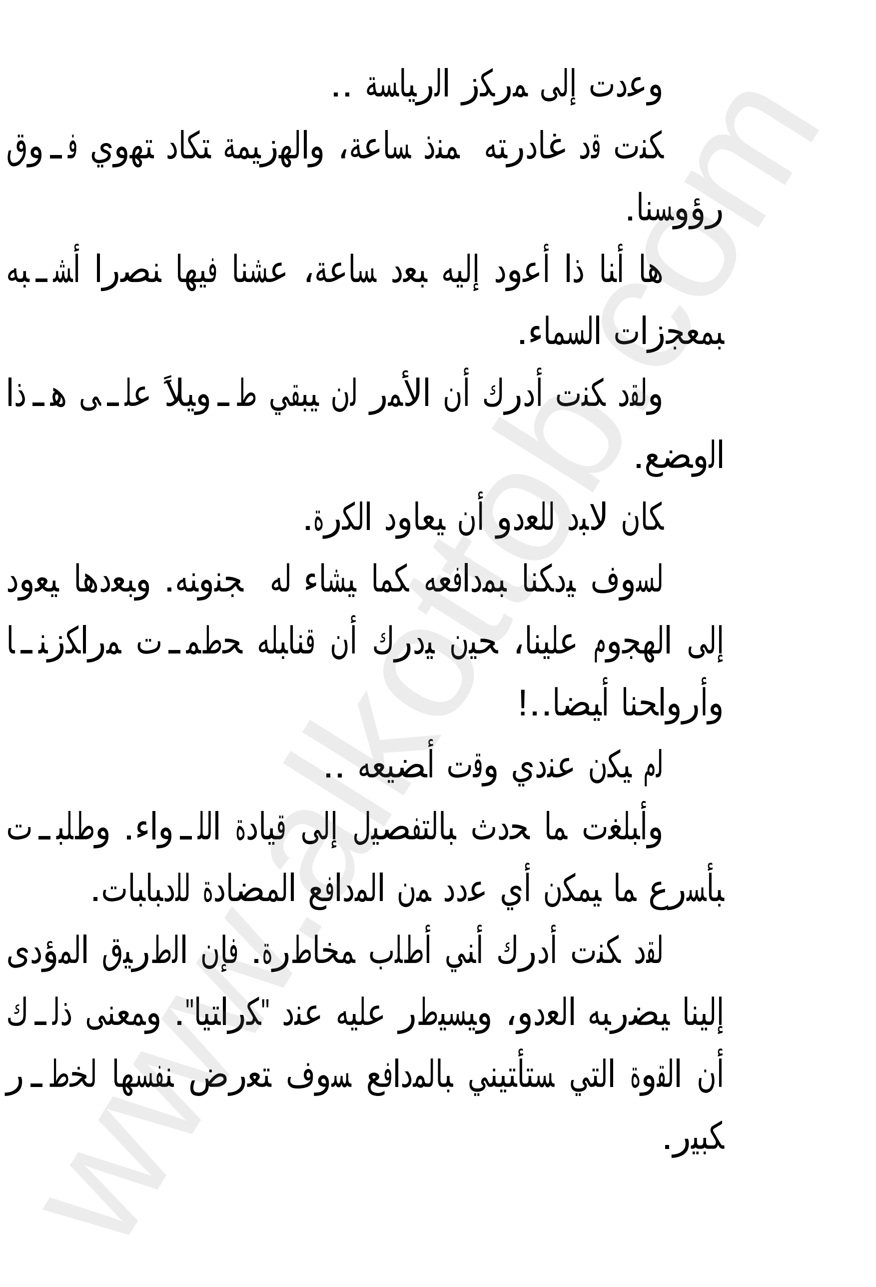
- من اليهود يا أفندي..!

ثم بدأت التفاصيل تتجمع في يدي ..

لقد انتصرنا على العدو.

على الأقل صمدنا أمام هجومٍ بدا ساحقًا للوهلة الأولى، لدرجة أن مواقعنا دِيستْ بدبابات العدو، ثم استطاع جنودنـا أن يستردوا الأرض التي فقدناها، ويردوا العود على أعقابها، بعد ضياع نصف عددها تماما وتعطله!

وكان خير دليل على غيظ العدو وجنونه ما حدث. هذا الضرب المركز بالمدفعية على "عـراق المنشـية" .. كـان الضرب حاقدا مفلوت الأعصاب!



وعدت إلى مركز الرياسة ..

كنت قد غادرته منذ ساعة، والهزيمة تكاد تهوي فـوق رؤوسنا.

ها أنا ذا أعود إليه بعد ساعة، عشنا فيها نصرا أشـبه بمعجزات السماء.

ولقد كنت أدرك أن الأمر لن يبقي طـويلاً علـى هـذا الوضع.

كان لابد للعدو أن يعاود الكرة.

لسوف يدكنا بمدافعه كما يشاء له جنونه. وبعدها يعود إلى الهجوم علينا، حين يدرك أن قنابله حطمـت مراكزنـا وأرواحنا أيضا..!

لم يكن عندي وقت أضيعه ..

وأبلغت ما حدث بالتفصيل إلى قيادة اللـواء. وطلبـت بأسرع ما يمكن أي عدد من المدافع المضادة للدبابات.

لقد كنت أدرك أنني أطلب مخاطرة. فإن الطريق المؤدى إلينا يضربه العدو، ويسيطر عليه عند "كراتيا". ومعنى ذلـك أن القوة التي ستأتيني بالمدافع سوف تعرض نفسها لخطـر كبير.

مع ذلك فإن ضابطًا شابا باسلاً قـام بـثلاث سـيارات وأربعة مدافع. وملأ سيارتين منهـا بـذخيرة "الهـاون". و استطاع أن يصل إلينا تحت النار.

طلبت له نيشانًا حتى نشعره بتقديرنا ..

وظللت بعد الحصار أجـرى وراء النيشـان .. حتـى حصل عليه صاحبه أخيرا ...!

وأعدت تنظيم صفوفنا على الوضع الجديد ..

وضعت ثلاثة مدافع مضادة للدبابات عند المنطقة التـي هجم منها العدو. كنت أتوقع أن يعود منها إذا كرر الهجـوم؛ فقد تصورت أن العدو سوف يعتقد أننا سنحتاط له فـي كـل مكان، إلا المكان الذي هاجم منه فعلاً.. ولم ينجح ..!

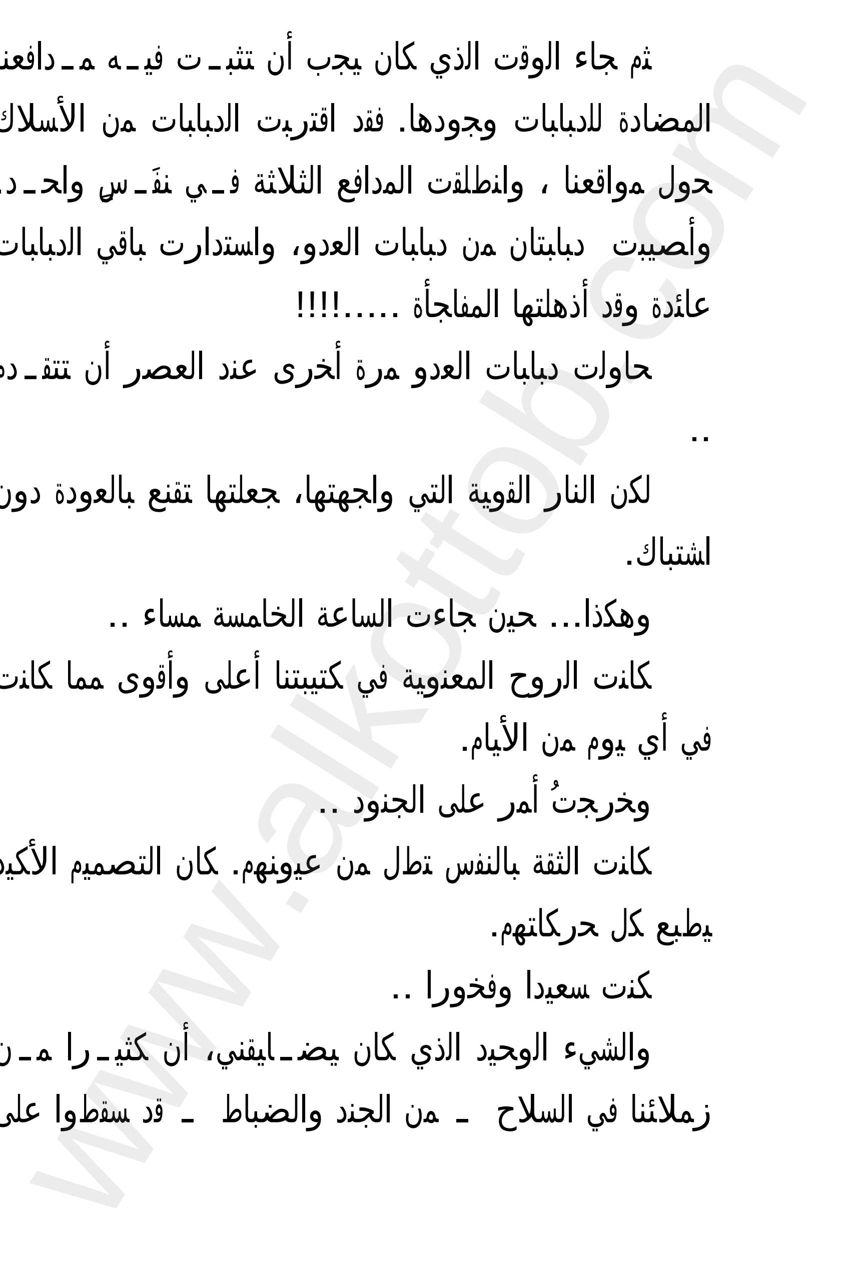
في الساعة العاشرة صباحا ..

بدأ العدو هجومه الثاني ..

تقدمت ست دبابات...

تقدمت في اطمئنان وهدوء، واثقةً أننا لا نملـك مـدافع مضادة للدبابات، وإلا كنا استعملناها في الهجوم الأول ..!

ظلت مدافعنا المضادة للدبابات لازمة الصـمت، بينمـا مدافع "الهاون" وحدها هي التي تطلق النار من خطوطنا.



ثم جاء الوقت الذي كان يجب أن تثبـت فيـه مـدافعنا المضادة للدبابات وجودها. فقد اقتربت الدبابات من الأسلاك حول مواقعنا ، وانطلقت المدافع الثلاثة فـي نفَـسٍ واحـد. وأصيبت دبابتان من دبابات العدو، واستدارت باقي الدبابات عائدة وقد أذهلتها المفاجأة .....!!!!

حاولت دبابات العدو مرة أخرى عند العصر أن تتقـدم ..

لكن النار القوية التي واجهتها، جعلتها تقنع بالعودة دون اشتباك.

وهكذا... حين جاءت الساعة الخامسة مساء ..

كانت الروح المعنوية في كتيبتنا أعلى وأقوى مما كانت في أي يوم من الأيام.

وخرجتُ أمر على الجنود ..

كانت الثقة بالنفس تطل من عيونهم. كان التصميم الأكيد يطبع كل حركاتهم.

كنت سعيدا وفخورا ..

والشيء الوحيد الذي كان يضـايقني، أن كثيـرا مـن زملائنا في السلاح – من الجند والضباط – قد سقطوا على

أرض المعركة. كانت الأرض التي سقط عليهـا بعضـهم، تروي قصصا عجيبة عن الشجاعة و الفداء ..!

لقد عثرت إحدى دورياتنا، التي خرجت في الليل تبحث عن جثث بعض السـائقين والطبـاخين، الذين انطلقوا للمعركة اليائسة، عثرت عليها بعد الأسلاك الشـائكة التـي تحمي مواقعنا. وإن معنى ذلك، أن هؤلاء الجنود الأشداء، لم يكتفوا بأن يردوا العدو، بل خرجوا لمطاردته علـى الأرض الحرام بين خطوطنا وخطوطه!

ويواصل جمال عبد الناصر تسجيل التفاصيل المثيرة لما حدث في "عراق المنشية" في مذكراته قائلاً:

وجلستُ في تلك الليلة من مركز رياسة كتيبتنا أحـاول أن أتصور الموقف كله ..

لقد كان الذي لا يقبل الشك في تصـوري، أن هجـوم العدو علينا في "عراق المنشية" جزء من خطة عامة. ولقـد فشل العدو أمام مواقعنا. فماذا جرى لخطته العامة....؟ فهل سيحاول تنفيذها في مكان آخر....؟!

ولو كانت لي القدرة على الرؤية البعيدة يومها، لعلمـتُ أن ما كنت أتصوره لم يبتعد كثيرا عن الحقيقة ...!

كانت للعدو فعلاً ـ كما أثبتت التصورات بعد ذلـك ـ خطة عامة.

كانت هذه الخطة مبنية في مرحلتها الأولى على اختراق مواقعنا. فلما فشل العدو في محاولته معنا، لجأ إلى طريـق آخر؛ فهجم على تقاطع الطرق عند "عراق سويدان".

ومرة أخرى لو كانت لي القدرة على الرؤيـة البعيـدة، لكنت رأيت الكولونيل "بيجال آلون" الذي كان يقود قـوات العدو في معارك النقب وهو يخطب في جنده لكي يشـجعهم، ثم يخرج بهم إلى معركة "تقاطع الطرق".

وهناك ـ لسوء الحظ ـ يلتقي قائد العدو مع النصر!

قد تلقيت خبر سقوط موقع "تقاطع الطرق" عند "عـراق سويدان" بدهشة......

لقد كنتُ أدرك، أن الموقع بالغ الأهمية بالنسبة لنا؛ لأن سقوطه معناه عزل قواتنا (على القطاع الممتد مـن "عـراق

سويدان" إلى "الخليل") عن مجموعة الجيش الرئيسية العاملة على الخط الساحلي بين "غزة" و"أسدود".

وكنت أعرف أن قواتنا في هذا الموقع هائلة..!

لست أذيع سرا إذا قلت الآن أن اثني عشر مدفعا مـن مدافع "الفيكرز" كانت تحمي هذا الموقع ..!

لكني صدقت الكارثة بعد أن علمت التفاصيل ...!

لقد كان يجب أن تحل بنا هذه الكارثة. لم يكن معقـولاً أن يكون نصيبنا غيرها، إزاء الحال الذي كانت عليه الأمور هناك!

كان هذا الموقع في حماية الكتيبة التاسعة.

ولكن قائد الكتيب كان في أجازة ....!

وقتل قائدها الثاني في ضربة مباشرة لقنبلة "هاون" ...!

ركب قائدها الثالث سيارة، وانطلق بها، ولم يتوقـف إلا في الإسماعيلية....!

أما القائد الرابع.. فقد ترك الكتيبة، وذهب إلى القيـادة العامة في "المجدل" ...!

ومن سوء الحظ أن عبد الحكيم عامر، الذي كان أركان حرب هذه الكتيبة، كان قد نقل منها ليعمـل أركـان حـرب للكتيبة الثانية....!

وأقول - وأنا واثق أن الصداقة وحدها ليست هي المنبع الذي يصدر عنه قولي - أنه لو كان عبد الحكيم عامر مـا يزال أركان حرب لهذه الكتيبة، لتغير مجرى المعركة، ولما استطاع العدو ببساطة، أن ينجح في هجومـه الليلـي علـى الموقع، ويدخله مفاجأة وغدرا.

كان الطريق بيننا وبين "المجدل" قد قطع بسقوط تقـاطع الطرق ..

وضرب العدو ضربته الثانية، حين تقدم مـن "خربـة الأمير" إلى الطريق الرئيسي فاحتل جنوبه أيضا، كما احتـل شماله، وقطعنا عن بيت "جبرين"!

إذن فقد أصبحنا محاصرين تماما ..

من الشرق .. ومن الغرب ..!"

***

ويكمل جمال عبد الناصر في مذكراته تفاصيل الحصار فيقول:

" بدأتُ أدرك أننا على أبواب أوقاتٍ عصيبة ..

كان الموقف أكثر من خطير ..

وكان العدو نشيطًا إلى حدٍ يفوق طاقة الاحتمال.

وبدأت الغارات الجوية على مواقعنا تزداد كثرةً وشدة..

واختفي طيراننا تماما ولم نعد نراه ....!

وراحت مدفعية العدو تصب الحمم فـوق رؤوسـنا، لا تهدأ لحظة، ولا تتركنا نهدأ.

وكان أكثر ما يضايقني فيما حدث، أنه كان بين قواتنـا عدد كبير من الجرحى.

وكان الذي أتمناه أن نجد طريقًا، نستطيع منه إخـراج الجرحى إلى حيث نضمن لهم العـلاج، وأن بقـاءهم بيننـا يضغط على مشاعرنا ضغطًا عنيفًا قاسيا ....!

وكان هناك بعض المرضى إلى جانب الجرحى....

لقد دخلتُ في الصباح على صديق ، فإذا هو يتلوى من الألم، وإذا الفحص يثبت أنه يعاني أزمة عنيفة في المصران

الأعور، وأنه من الضروري أن تجرى له جراحة عاجلـة، وإلا انفجر المصران ....!

ولكن كيف يمكن أن تُجرى له العملية الجراحية؟

وخرجتُ ثائرا أطلب إلى حمالاتنا أن تخرج لاستكشاف طريق آخر للوصول إلى "بيت جبرين".

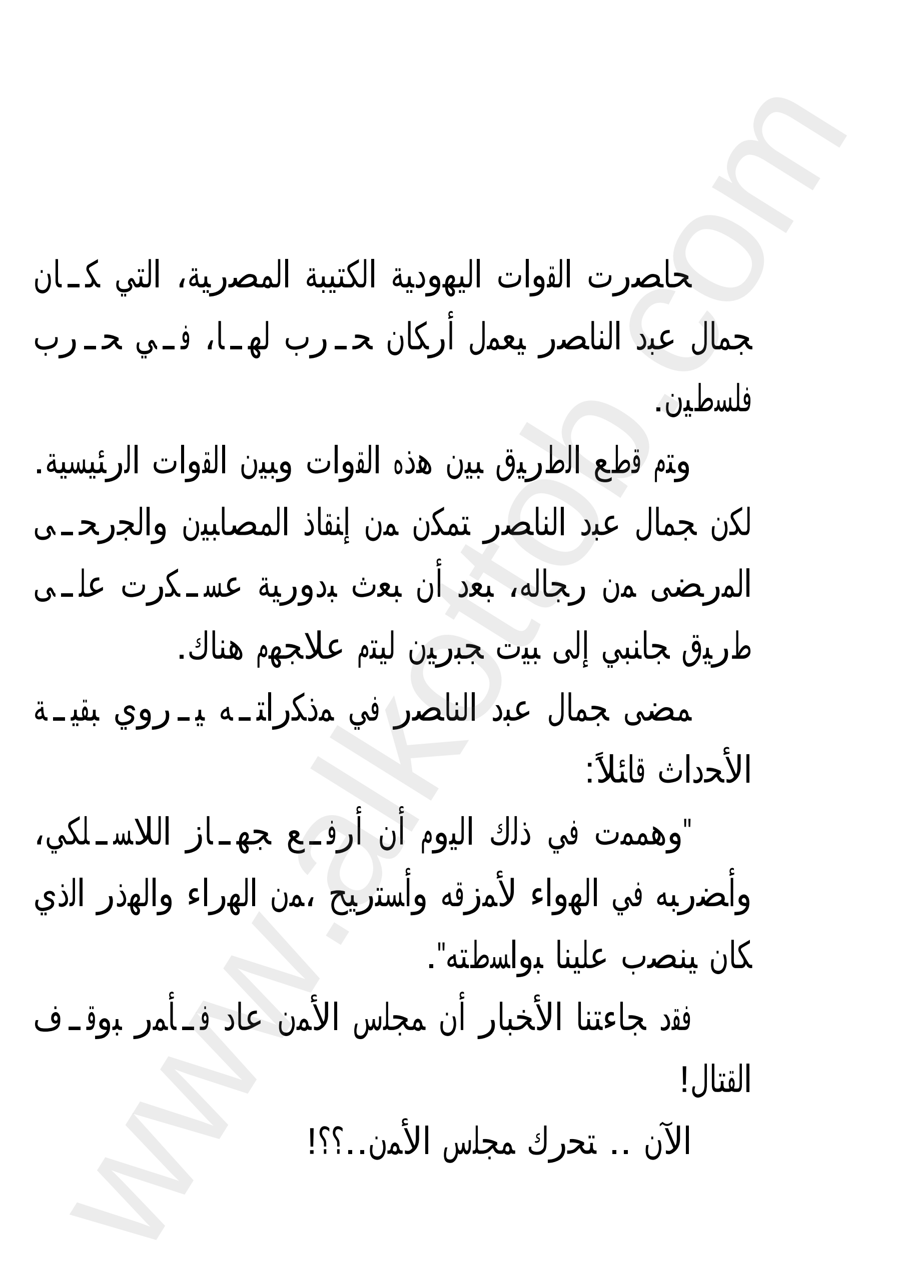
كانت فرحتي لا تُقدر، حينما عادت دورية الحمـالات، بعد أن اكتشفت طريقًا جانبيا مـازال مفتوحـا إلـى "بيـت جبرين".

وتنهدتُ بارتياح. وأنا أعهد بالجرحى والمرضى إلـى أحد من ضباطنا، لكي نخرج بهم في قافلة، تجتاز الطريـق الخلفي إلى "بيت جبرين" ...."

الفصل الخامس عشر .....

و"الأخير"

عبد الناصر .. في لقاء مع ضابط إسرائيلي !



حاصرت القوات اليهودية الكتيبة المصرية، التي كان جمال عبد الناصر يعمل أركان حرب لها، في حرب فلسطين.

وتم قطع الطريق بين هذه القوات وبين القوات الرئيسية. لكن جمال عبد الناصر تمكن من إنقاذ المصابين والجرحى المرضى من رجاله، بعد أن بعث بدورية عسكرت على طريق جانبي إلى بيت جبرين ليتم علاجهم هناك.

مضى جمال عبد الناصر في مذكراته يروي بقية الأحداث قائلاً:

"وهممت في ذلك اليوم أن أرفع جهاز اللاسلكي، وأضربه في الهواء لأمزقه وأستريح ،من الهراء والهذر الذي كان ينصب علينا بواسطته".

فقد جاءتنا الأخبار أن مجلس الأمن عاد فأمر بوقف القتال!

الآن .. تحرك مجلس الأمن..؟؟!

أين كان .. وأين الخطباء فيه....؟!

لقد تحرك العدو يوم ٥ أكتوبر. ولكن مجلـس الأمـن أغلق عينيه، وسد أذنيه، وحبس لسانه.!

ومضت أيام ١٧ و ١٨ و ١٩ و ٢٠ وفيهـا اسـتطاع العدو أن يقطع خطوطنا، وإذا بمجلس الأمـن يفـتح عينيـه وأذنيه، ويصدر أمرا بوقف القتال ..!

هي خطة مرسومة ..

وهي مؤامرة علينا ..

و لعب بأقدارنا و مصائرنا وأعمارنا ..

و عبثٌ وهزل ..

والنار المصبوبة فوقنا ، والطرق المحاصرة حولنا ، لا تسمح لنا أن نشترك فيه ....!

في صباح يوم الخميس ٢١ أكتوبر، دعينا إلى مـؤتمر في "الفالوجا". وكان المؤتمر لقواد الكتائـب فـي المنطقـة المحاصرة وأركانات حربها.

وكانت هذه الكتائب ثلاثًا ..

الكتيبة الأولى والكتيبة الثانية وكتيبتا الكتيبة السادسة.

ورأس المؤتمر الأميرالاى السيد طه لأنـه تلقـى مـن رياسة القوات أمرا إنذاريا بالاستعداد للانسـحاب. علـى أن يرتب أمره لبدء الانسحاب .. في الساعة السادسة النصـف. بعد أن يتلقى أمرا تأكيديا للبدء فيه...!

كان من رأيي أن هذا خير ما نصنعه.

لقد كنا ثلاث كتائب هي ثُلث الجيش المصـري، فهـل يعقل أن يبقى ثلث الجيش المصري مستسلما للحصار، فـي مواقع سدت عليه من الشرق ومن الغرب...؟!

هذا من ناحية.

ومن ناحية أخرى.. فقد كنت أرى أن بقاءنا فـي هـذا الخطر، لم يعد له غرض. لقد كنا هنا لنفصل النقب الجنوبي عن الشمالي. وقد اتصل النقب الجنوبي مع الشمالي .. فلماذا بقاؤنا...؟

ومن ناحية ثالثة.. فقد كنت أشعر أن انسـحاب ثـلاث كتائب إلى "الخليل"، سوف يرغم العدو على توزيـع قواتـه بينها وبين مجموعة الجيش الرئيسي على الساحل.

وبدا أن كل من في المؤتمر مقتنع بهـذا الـرأي .. إلا رئيسه الأميرالاى السيد طه ..!

مع ذلك.. فلم يسعه إلا أن ينزل على رأى الإجماع.

والتفت لي، ليكلفني بوضع الخطة المفصلة للانسـحاب، بواسطة الطريق الجانبي الذي لم ينتبه إليه العدو، والذي بعثنا الجرحى منه إلى "بيت جبرين".

وانتحيت ركنا من قاعة الاجتماع أرتب الخطة ..

لكن لم يقدر لي أن أتم وضعها. فما لبث السيد طـه أن تلقى أمرا ثانيا من رياسة القوات. **كان هذا الأمر يقول:**

"يلغى الأمر السابق بالانسحاب .. حافظوا على مواقعكم .. أمر إيقاف القتال صادر لمصلحتنا......!"

***

ويكمل جمال عبد الناصر بقية الأحداث المثيـرة فـي مذكراته:

"وكان إيقاف ضرب النار طبقًا لقرار مجلس الأمن، يبدأ في الثانية من بعد ظهر الجمعة ٢٢ أكتوبر".

وأوقفنا الضرب في الموعد المحدد ..

لكن العدو لم يوقف ضربه، ولا أوقف قواته عن احتلال المواقع التي تستكمل منها حصارنا.

وكنت أتمنى في قلبي، أن يركز العدو جهده على طريق الأسفلت الرئيسي. ينسى الطريق الجانبي إلى "بيت جبرين"، حتى يظل منفذًا مفتوحا أمامنا.

لكن الأماني شئ .. والواقع شئ آخر ..!

فلقد طلع صباح السبت ٢٣ أكتوبر. وإذا العدو قد احتل الطريق الجانبي، وحصن مواقعه عليـه. ومعنـى ذلـك أن حصارنا قد كملت حلقاته. ولم يعد خلاله منفذ... !

وفي الساعة الواحدة عند الظهر ..

تلقى السيد طه أمرا جديدا من رياسة القوات بالانسحاب إلى "الخليل".

ولكن وأسفاه ..!

كانت الفرصة قد أفلتت ..!

إن طول التردد جعل الذي كان ممكنًا بالأمس، مستحيلاً تمام الاستحالة في اليوم ...!

لقد قطع الطريق الخلفي الذي كنا نعتمد عليه.

لقد كان ممكنًا أن ننسحب في سلام منذ ساعات.

لكن الوضع الآن يحتم علينا أن نخترق حصار العـدو، ونقتحم خطوطه، ونحن نحمل سلاحنا، ومدافعنا، ونتحـرك على الطريق.!

واضطررتُ عند الظهر الذي قد استبان من كل ناحية، أن أصدر أمرا بتخفيض المؤن اليومي للضباط الجنود، إلـى ربع ما كانت عليه.

يجب أن نرتب أنفسنا للمجهول الغامض الذي يحيط بنا."

***

ويكشف جمال عبد الناصر في المذكرات عن أن فكـرة الحرب المعنوية استخدمها اليهود ببراعة في حرب فلسـطين فيقول:

"وقضينا ليلة عجيبة تحت معركة مثيـرة مـن حـرب الأعصاب.!

طارت طائرات العدو على مواقعنا تلقي المنشورات ..

وأمسكتُ أحدها أقرأه .. كان المنشور موجها إلينا. كان عنوانه يقول:

" أيها الضباط والصف والعساكر ، بـاللواءين الثـاني والرابع ..

ومضيت أقرأ المنشور حتى آخره ودمي يغلي..

كانت كلمات المنشور اليهودي تقول:

" هل تعلمون أنكم محاطون....؟

اللواء الثاني محاط ، وكذلك اللواء الرابع. لا توجد أيـة وسيلة للاتصال بينهما. ولا مفر من الإحاطة.

إن الإحاطة معناها الفناء .. الموت. إنكم لتشعرون بذلك في المستقبل القريب. لا يستطيع قوادكم أن يبروا بوعـودكم الكاذبة. قائلين بأن النجدات من الرجـال المهمـات القويـة ستصلكم قريبا .

كلا ..

لقد احتلت القوات الإسرائيلية "بئر سبع". بعد ما دقـت قواتكم دقًا. سحقتها سحقًا تاما. وإذا اتكلتم على القوات التـي سيبعثها الملك عبد ا ، فاعلموا أنه لا ينوي إلا طرد قـواتكم من قواعدها في "بيت لحم" و"الخليل"...!

إنكم ترون الآن في هذه البلاد، نتائج الدعاية الكاذبة، التي كنتم تصدقونها، قبل ما أرسلتم من مصر. وصف قوادكم وساستكم رحلة فلسطين بأنها سهلة. ووعدوكم بالغنائم والتمتع.

أين الغنائم..؟

وأين التمتع...؟

إنكم لم تجدوا هنا إلا المصائب. ولم تلاقوا إلا الخسائر الفادحة.

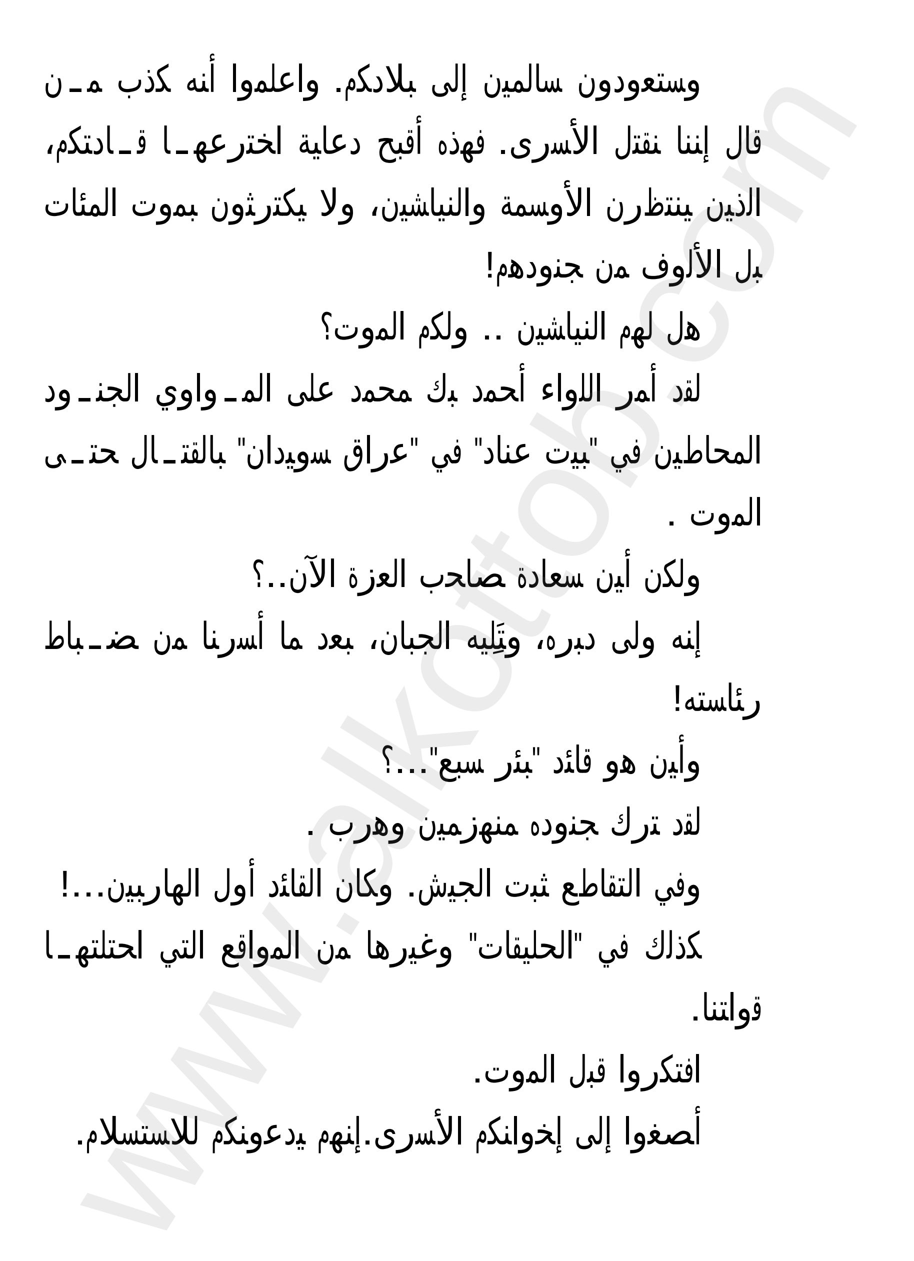
ولن تلاقوا غير هذا في المستقبل ....!

ولقد شاهدت عينكم، أن اليهود يعرفون الدفاع عن وطنهم وأراضيهم. يحسنون الحرب. هم لم يحتلوا بلادا غريبة . لم يفكروا - ولن يفكروا - في احتلال أي بلاد ليست لهم.

وإذا تطلعتم إلى الخريطة، سوف يتبين لكم أن الجيوش الإسرائيلية تحيطكم إحاطة السوار بالمعصم ..!

عليكم أن تختاروا:

إذا أردتم البقاء في الحياة .. استسلموا.



وستعودون سالمين إلى بلادكم. واعلموا أنه كذب من قال إننا نقتل الأسرى. فهذه أقبح دعاية اخترعها قادتكم، الذين ينتظرن الأوسمة والنياشين، ولا يكترثون بموت المئات بل الألوف من جنودهم!

هل لهم النياشين .. ولكم الموت؟

لقد أمر اللواء أحمد بك محمد على المواوي الجنود المحاطين في "بيت عناد" في "عراق سويدان" بالقتال حتى الموت .

ولكن أين سعادة صاحب العزة الآن..؟

إنه ولى دبره، وتَلِيه الجبان، بعد ما أسرنا من ضباط رئاسته!

وأين هو قائد "بئر سبع"...؟

لقد ترك جنوده منهزمين وهرب .

وفي التقاطع ثبت الجيش. وكان القائد أول الهاربين...!

كذلك في "الحليقات" وغيرها من المواقع التي احتلتها قواتنا.

افتكروا قبل الموت.

أصغوا إلى إخوانكم الأسرى.إنهم يدعونكم للاستسلام.

انجوا بأنفسكم واستسلموا.

وكل من يحضر وبيده هذا المنشور، ستؤمن حياته، ويعود سالما إلى بيته .....!

أيها الضباط .. اعلموا أننا سنحترم حقوق مندوبكم الذي يتقدم حاملاً الراية البيضاء لتُجرى معه المفاوضات .....!

ثقوا باحترام حقوقكم العسكرية في ديارنا.

أُعلمتم .. أُنذرتم ..!"

***

يقول جمال عبد الناصر في مذكراته:

في الصباح بدأت نوبة جديدة من حرب الأعصاب ..

جاءني أحد الجاويشية يقول:

سيارة مدرعة من سيارات العدو، واقفة على الطريـق خارج مواقعنا، رافعة راية بيضاء، وعليها ميكرفون يصرخ بأعلى صوته: "ضابط إسـرائيلي يطلـب مقابلـة ضـابط مصري"!

وركبتُ سيارة جيب ..

وطرتُ إلى هذا الموقع. وإذا السـيارة واقفـة حيـث سمعت. والراية البيضاء ترفرف فوقها. الميكرفون مـايزال يصيح " ضابط إسرائيلي يطلب مقابلة ضابط مصري"....!

وقررتُ أن أذهب بنفسي ..

وطلبت من جنودنا، أن يرفعوا البوابة التي تسد الطريق أمام مواقعنا. ثم قفزت إلى سيارة الجيب كما أنا .

كنت مرتديا بنطلونًا عسكريا و "بول أوفر" من الصوف الكاكي اللون.

وقفز معي إلى الجيب اثنان من زملائي الضباط.

وجاء معنا جاويش يمسك مدفعا من مدافع "التومي".

وانطلقت بالجيب بأقصى سرعة علـى الطريـق، فـي المنطقة الحرام بيننا بين العدو، في اتجاه المدرعة التي ترفع

العلم الأبيض، تطلب بأعلى صوتها ضابطًا مصـريا، لكـي يقابل ضابطًا إسرائيليا...!

كان الجو مثيرا غريبا ..

وكانت مشاعري ، وأنا منطلق بسـيارة الجيـب علـى الطريق متباينة.

ها هي إحدى مدرعات العدو أمامنا . تطلب واحدا منا.

ها أنا منطلق إليها، لأقابل أحد الضـباط الـذين كنـت أجاهد لقتلهم. وكان هو أيضا من ناحيته يجاهد لقتلي...!

وكان موقفنا كما أعلم ..

حصار كامل .. نار لا تهدأ .. ودبابات وطـائرات .. منشورات أيضا....!

وكان الصمت على الطريق كاملاً . إلا من دوي محرك سيارة الجيب ..

وأوقفت السيارة في حذاء مدرعة العدو ملاصقة.

وأطل ركابها من ضباط العدو علينـا، وفـي عيـونهم دهشة، ثم استجمع واحد منهم كبريائـه، وشـد رأسـه فـي عنجهية مكشوفة.

وقال باللغة الإنجليزية:

أنا المساعد الشخصي للقائد العام لهذا القطاع. أنا مكلف بأن أشرح لكم موقفكم. إنكم محاصرون من كل ناحية. نحن نطلب منكم التسليم...!

نزلتْ على أعصابي سكينة غريبة ..

وقلت له في هدوء:

أما الموقف فنحن نعرفه جيدا .. ولكن الاستسـلام لـن يحدث ...!

ثم أضفت دون أن تختلج في صوتي نبرة:

نحن هنا ندافع عن شرف جيشنا.

بدأ الضابط الإسرائيلي يتكلم بالعبرية وأحـد مرافقيـه يترجم.

ثم عاد ليتكلم باللغة الإنجليزية...!

ثم تنازل عن كبريائه وبدأ يتكلم باللغة العربيـة. وهـو يشرح لنا الموقف حولنا.

قلت له :

إنك تحاول عبثًا .. ونحن نرفض الاستسلام !

حملق في وجهي .. وقال في استنكار:

ألا ترجع إلى قائدك تسأله؟

قلت له :

هذا موضوع ليس فيه مجال لسؤال !

مرة أخرى حملق في وجهي ..

وساد الصمت بعض الوقت. وهو ينظر إلينـا. ونحـن ننظر إليهم.

وفجأة أحسست أن قناع الكبرياء المصنوع على وجهـه ينزل.

قال في صمت خافت مؤدب:

لنا طلب إنساني عندكم؟!

قلت:

ما هو...؟

قال:

نريد أن نسحب قتلانا عندكم من المعركة السـابقة .. أنت تعرف أن أهل القتلى يحبون الاحتفال بـدفن أبنـائهم .. فهل تمانعون...؟

نظرت إليه .. وصوته الخافت المؤدب يثير في أعماقي شعورا غريبا بالراحة والرضاء ..

وقلت له:

ونحن نوافق لك على هذا الطلب الإنساني!

***

حين عدنا إلى مواقعنا مرة أخرى عبر الطريق ..

كانت سيارة الجيب الصغيرة التـي كنـا فيهـا تضـج بالضحك والمرح.

كنا نقارن بين بداية المقابلة ونهايتها .

بين العنجهية والكبرياء عند طلب الاستسلام .

والأدب والحياء .. عند طلب جثث قتلاهم !

******

هكذا بسرعة ل يقدرها أحد . تعطلت